

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY  
  
3 8534 01047 0593

3

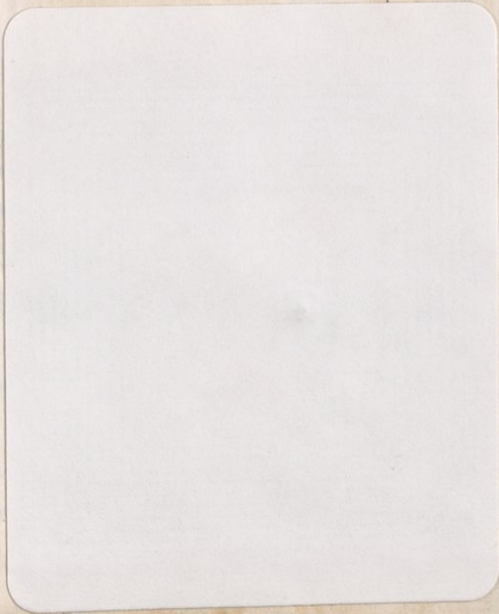
B  
I  
M  
C





FROM THE  
LIBRARY OF  
THE  
AMERICAN UNIVERSITY  
IN  
CAIRO

من مكتبة  
الجامعة الامريكية بالقاهرة





51



'Y

11



BF

173

M2x

C.1

Mahmūd, Mahmūd  
Tahlil al-nafs

تحليل النفس  
محمود محمود

# تحليل النفس

تأليف

محمود محمود

يطلب من :

مكتبة مصر وطبعها

٢٦ شارع الفجالة — تليفون ٥٨٩٢٠

مطبعة مكتبة مصر — ٣٦ شارع الفجالة



~~134~~  
M278

۱۳۱، ۲۴  
ت. ۲۲  
۱۴

27655



## مقدمة

لم تكن العلوم في أول نشأتها مقسمة — كما هي اليوم — إلى فروع مختلفة ، وإنما كانت المعرفة الإنسانية شيئاً واحداً ، كعارف الطفل الصغير ، الذي يجمع شتات التجارب دون تقسيم أو تمييز . وبقيت العلوم كذلك أمداً طويلاً ، ثم أخذت تتشعب وتتفرع ويستقل بعضها عن بعض ، وكان أرسطو أول من فصل علم النفس عن بقية العلوم ، فهو بحق مؤسس هذا العلم ، وأول من وضع حجراً في بنيانه . وتعتبر رسالته « في الروح » أول كتاب في هذا الباب . ورغم أن الموضوع قديم يرجع إلى عهد اليونان ، إلا أن اسمه بالفرنجية ( Psychology السيكولوجي ) حديث العهد ؛ وأول من أطلق عليه هذه التسمية جوكليينيس Goclenius الذي نشر كتابه سنة ١٥٩٠ تحت عنوان « سيكولوجيا » ، والكلمة مؤلفة من مقطعين : Psyche ( أي الروح أو النفس ) و Logos ( أي كلمة أو حديث — أو علم ) — أي علم النفس . ولذا فإن هذه التسمية كانت تتناسب ومادة الموضوع ، فاحتفظ بها من ذلك الحين في اللغات الغربية ، ثم نقلت إلى العربية بعد ترجمة مقطعيها وتعريبهما .

كان أرسطو إذن — كما قلنا — أول من جمع المعلومات القديمة



الخاصة بالروح ، ونظمها ورتبها وبوبها فصولاً ، وكان الإغريق عامة ينظرون إلى النفس والروح والعقل ، كأنها شيء واحد ، ولم يقيموا للجسم وزناً ما ، ولذا فإن مدلول كلمة (روح) عند الإغريق أوسع منه اليوم في جميع اللغات . وبقى العقل والروح لا ينفصلان في نظر الباحثين حتى كانت العصور الوسطى وما فيها من جدل في أمور الدين ، فانفصلت دراسة العقل عن دراسة الروح ، واختص بالأولى علماء النفس (أو الفلاسفة) ، واختص بالثانية علماء الدين وإذن فقد انتقل علم النفس من دراسة الروح إلى دراسة العقل .

ولبثت العلاقة بين العقل والجسم أمراً غامضاً ، ولغزاً غير مفهوم حتى أواخر العصور الوسطى ، حين ظهر ديكارت ( ١٥٩٦ - ١٦٥٠ ) ، وهو المؤسس الثاني لعلم النفس بعد أرسطو ، فحدد العلاقة بين المادة والعقل ، وقال : إن أهم ما يميز المادة أنها تشغل حيزاً من الفراغ ، وأهم ما يميز العقل هو الشعور ، ومن ذلك الحين أصبحت دراسة علم النفس هي دراسة الشعور .

والشعور كما يفهمه ديكارت ، هو ذلك الإحساس الذي يتزايد تدريجاً ، حينما ينتقل المرء من السبات العميق إلى اليقظة التامة ، وهو إحساس شخصي ذاتي ، لا يحس به إلا صاحبه ، ولذا فدراسة الشعور لا يمكن أن تكون إلا بطريق التأمل الباطني ، حيث يفكر المرء في شئون نفسه ، وفي مشاعره وإحساساته ، وله وحده القدرة على الحكم عليها . ومن النتائج الطبيعية لهذا الاتجاه في دراسة علم



النفس — دراسة الشعور — ألا يابه الباحثون إلا بما يعمله المرء وهو يقظ تمام اليقظة ، أما ما يقوم به على غير وعى منه ، كالحلم وخواطر اليقظة السانحة ، فلا أهمية له البتة ، وعلى هذا فدراسة النفس تقتضى دراسة السلوك الظاهرى الذى يمكن ملاحظته ومشاهدته — بل ويمكن إخضاعه للتجربة . ومن ثم بات علم النفس علماً موضوعياً ، وموضوعه دراسة السلوك . وقد لا يرى القارىء فى موضوع علم النفس — على هذه الصورة — وموضوع علم وظائف الأعضاء فارقاً يذكر ، ولكننا نذكره أن علم وظائف الأعضاء يدرس سلوك كل عضو على حدة ، أما علم النفس فيدرس سلوك الجسم كتلة واحدة ، وما يقوم به من ردود الأفعال للبواعث الخارجية .

وهكذا نرى أن علم النفس تخلص أولاً من دراسة الروح ، ثم تخلص من دراسة العقل دراسة نظرية بحتة ، ثم تخلص من دراسة الشعور ، وأبقى على دراسة السلوك وهو مظهر الشعور . ولبثت الكثرة الغالبة من علماء النفس ترى هذا الرأى وتنظر هذه النظرة حتى جاء « سجمند فرويد » فنبه الأذهان إلى أهمية دراسة ما وراء الشعور ( أو اللاشعور ) وقال بأن أعمال الإنسان جميعاً تصدر عن بواعث لاشعورية فى العقل الباطن ، ولذا فالأحلام والخواطر وما إليها لها أهميتها الكبرى فى الكشف عن مكونات النفس . وعلى هذا الرأى بنى نظرية شاملة يعلل بها مظاهر السلوك جميعاً ،



وأنشأ مدرسة تعتقد بعقيدته ، وأصبح له أتباع كثيرون ينشرون آراءه ونظرياته ويفسرونها ، كما بات له كثير من الخصوم والمعارضين . ولعل اتجاه فرويد في دراسة علم النفس هو أهم ما يشغل العلماء في هذا الميدان في هذا العصر ، وقد صدرت في تأييده أو نقده كتب عديدة باللغات الأجنبية ، ولكن العربية - في ما نعلم - لم تحظ حتى اليوم بكتاب يعرض نظريته ويعلق عليها بالنقد والشروح .

والبحث في هذا الموضوع شائك وعسير لأسباب عدة ، منها أنه يقوم على دراسة الغريزة الجنسية وأثرها في السلوك ، والكلام في هذه الغريزة دقيق خطر ، نظراً لقوة التقليد ، ولما يحوطها من الغموض والإبهام واشتزاز الجمهور من التحدث فيها صراحة ؛ ومنها أن الموضوع يبحث في اللاشعور وهو شيء كثيراً ما يخفى علينا ولا نكاد ندرك وجوده ، ومنها أن هذا الفرع من العلم حديث لم يتفق بعد - وبخاصة في اللغة العربية - على مصطلحات عامة له تسهل التعبير عنه .

ولكن هذه العقبات وغيرها لن تثبط من عزمنا على عرض النظرية للجمهور عرضاً مبسطاً ميسراً يفيد منه المدرس والطبيب والطالب ، بل وكل قارئ وقارئة . ولكن الموضوع واسع الأطراف متشعب النواحي ، وهذه من أولى المحاولات في العربية لبسطه وعرضه ، ولذا فنحن لانزعم لأنفسنا أننا وفقنا في استقصاء كل ما يشتمل عليه الموضوع ، أو أننا ضربنا من الأمثلة ما لاغنى



بعدها لمستزيد ؛ وإنما كل أملنا من هذا الكتاب أن يحفز القارىء إلى التوسع والاستزادة ، وأن يكون الحلقة الأولى من سلسلة من المؤلفات تخرج في هذا الموضوع ، ويكون حظها من العناية والدقة أكبر من حظ هذا الكتاب .

وقد قلنا أن فرويد هو أول من عنى بعناية كبيرة بدراسة اللا شعور ، وقد سمي طريقته في البحث « التحليل النفسى » ، ثم تبعه كثير غيره من الباحثين ، ومن أشهرهم وأبعدهم صديتاً وأطولهم باعاً « آدلر ، و « يونج » ، وسنحاول في هذا الكتاب ألا نقتصر على عرض نظرية أحدهم دون الآخر ، ولكننا سنقدم للقارىء - جهد الطاقة - مزيجاً مؤتلفاً من نظرياتهم جميعاً .



## تاريخ التحليل النفسى ومباحثه

كان فرويد - كما أسلفنا - أول الباحثين بحثاً جدياً منظماً في تحليل النفس ، ولكنه لم يكن فى الواقع أول من أبدى الملاحظات الأولى فى هذه السبيل ، وإنما سبقه فى ذلك رجلان ، أولهما شاركو Charcot الطبيب الفرنسى المختص فى الأمراض العصبية ، فقد لاحظ أن جميع المصابين بالنورستانيا والأمراض العقلية الذين عرضوا عليه للعلاج كانوا يشكون اضطراب علاقتهم الجنسية بالجنس الآخر ، وثانيهما جوزيف بروير Josef Bruer الذى كان يشتغل بعلاج الهستيريا فى أواخر القرن الماضى ، وكان يعتمد إلى التنويم المغناطيسى فى طريقته ؛ والتنويم حالة تشبه النعاس يسهل فيها على الطبيب أن يؤثر فى المريض ، ويسهل على المريض أن يجاوب الطبيب . وقد لاحظ بروير أن المرضى كثيراً ما يذكرون أثناء نومهم حوادث تغيب عن ذاكرتهم فى اليقظة ، فكان بذلك يصل إلى كثير من أسرار المريض الدفينة التى تخفى على المصاب نفسه ، وكان أكثر مرضى بروير من النساء ، وكان يقص لهن بعد يقظتهن ما أبجن به أثناء التنويم ، فيشاهد تقدماً فى صحتهن العقلية بعد ذلك ، ومن هذا وصل بروير إلى نظريته ، وهى أن الهستيريا لن تزول مادام بعض



الذكريات دفيناً في النفس ، ومادام المريض مصاباً ، بالامنزيا (١) ، فإن ذكر المريض في يقظته تلك الحوادث الخافية زال عنه المرض . وهذه الحوادث قد تكون تافهة في ذاتها ، ولكن أثرها كبير في سلوك المريض .

وكان الرأي السائد قبل بروير أن أعراض الهستيريا تنشأ عن اعتلال في المخ أو عن اختلال في خيال المريض ، وأن لا علاقة بين مكونات الذاكرة وحوادث الماضي وبين المرض .

وكان فرويد في ذلك الحين يشتغل بالبحث في علم التشريح ، واشتغاله لا يجدي عليه من الربح ما يعوض عليه مشقة العمل ، فهجر التشريح إلى علاج الأمراض العصبية ، واشترك مع بروير ، واتخذ طريقته في العلاج أول الأمر ، وهي البحث عن خفايا النفس بطريق التويم المغناطيسي . ولكن فرويد لاحظ أن العلاج لا يجدي في كثير من الأحوال ، وأن الهستيريا قد تختفي اليوم وتظهر في الغد ، والمرض قد ينتقل من عضو من أعضاء الجسم إلى عضو آخر ، كما لاحظ أن بعضاً من المرضى لا يستجيب للنوم ، فأخذ على نفسه أن يبحث عن طريقة أخرى أجدي من التويم وأكثر منه نفعاً . فعدل

---

(١) الامنزيا ، Amnesia اصطلاح في علم تحليل النفس معناه فقدان الذاكرة أو النسيان المطلق ، وكثيراً ما ينجم عن كبت الحوادث في النفس كبتاً شديداً ، وقد ينتاب من يصاب بالارتجاج المخي فينسى المريض كل ما وقع له قبل هذا الارتجاج .



عن هذه الطريقة واستعاض عنها بالتحدث إلى المريض في يقظته .  
فيكون يطلب إلى المريض أن يرسل خواطره إرسالا في الأمر الذي  
يشغل باله ، ويذكر كل ما يعن له ، وتطورت هذه الوسيلة إلى طريقة  
تداعي المعاني المطلق ، وهي الآن حجر الزاوية في طريقة فرويد  
للعلاج ، وذلك أن المريض لا يتحدث في موضوع بعينه ، ولا يركز  
ذهنه في شأن بذاته ، وإنما يترك خواطره تجري على طبيعتها وتنقل  
من موضوع إلى آخر ، ويبوح للطبيب بكل ما يطرأ له مهما كان  
مخجلا أو تافها . وقد لاحظ فرويد أن كثيراً من مرضاه يذكرون  
أحلامهم فيما يذكرون ؛ ويربطونها بحوادث اليقظة ؛ فتنبه إلى أهمية  
الأحلام وأدخلها على طريقته ، فيكون يطلب إلى مرضاه إن يقصوا  
أحلامهم ، وأن يرووا له كل ما يذكرون مما يتعلق بها .

ولاحظ فرويد كذلك أن المريض بطبعه لا يميل إلى الإباحة  
عما بنفسه ويجنح إلى المقاومة ، وأن الطبيب ينبغي له أن يستحث  
المريض على التحدث وعلى رواية ذكرياته القديمة ؛ فإن أفصح الطبيب  
في حض المريض على الإفصاح عما يخفى وجد أن تلك الذكريات ،  
التي كان المريض حريصاً على سترها ، تتعلق كلها بالشؤون الجنسية ،  
وتتناهى وقواعد الأخلاق التي يعتقد فيها المريض وهو في وعيه .  
وعلى هذا فعقل المريض أبدأ في صراع وتنازع لأن بعض رغباته  
قد وجد سبيله إلى الخروج والتنقيس وبعضها الآخر انحبس في  
اللاشعور ولم يخرج إلى حيز الشعور . ولما كان لا بد لهذه الرغبات



الدفينة من التعبير عن نفسها بوسيلة ما ، ولما كان المريض يقاوم خروجها الى دائرة الشعور فإنها تعبر عن نفسها بطريق غير مباشرة وتسبب للمريض شذوذاً في سلوكه أو نوعاً من النورستانيا . والنورستانيا - في ما يرى فرويد - ليست مرضاً بالمعنى المعروف ، وإنما هي وسيلة من الوسائل العديدة المختلفة يتخذها المرء دفاعاً له عن المشتقات النفسية والاجتماعية التي يلاقها . ولا يختص بها نفر دون الآخرين ، وإنما هي تصيب كلا منا بمقدار ، ولكننا لا ندرك مظاهرها إلا حين تشدد وتخرج عن الحد المألوف .

وقد رأى فرويد أن هذا الشذوذ العقلي كثيراً ما يزول لوقت مل ثم يعود ثانية ، وحاول أن يتبين علة ذلك ، وبعد البحث والتعليم اتضح له أن المرضى كثيراً ما يذكرون له حوادث يزعمون أنها وقعت لهم أيام الطفولة ، فإذا ما استدعى الوالدين وسألها عن صحة ما يروى المريض تبين له أن المريض لم يكن صادقاً فيما يقول ، ولكنه كذلك لم يكذب عامداً ، وإنما هذه الحوادث التي يرويها كانت خواطر وهمية يحلم بها في يقظته أيام الطفولة ، وأحلام اليقظة طريقة من طرق التنفيس عن الرغبات المكبوتة ، لأن العاشق المحروم - كما نعلم - يحلم بلقاء معشوقته كما يحلم الجائع بشهوى الطعام . ومن ثم تنبه فرويد إلى أهمية الخواطر في تحليل النفس كما تنبه إلى أهمية الأحلام من قبل .



ومما سبق يتبين لنا أن علم النفس التحليلي وليد المشاهدة والتجربة ،  
وأن فرويد تطرق من جمع الأمثلة المختلفة الى بناء النظرية ، ولم يبدأ  
بفرض النظرية - كما يظن بعضهم - ثم حاول تطبيقها على ما وقع بين  
يديه من الأمثلة . ولم يكن لفرويد حين بدأ البحث غير مؤهبة  
الطبيعية ، وشغفه بالمعرفة ، وملاحظات شاركو وبروير التي أشرنا  
اليها فيما سبق ، وعقيدة ثابتة بأن الظواهر العقلية - حتى التافه منها -  
لها مقدمات محدودة معينة كما للحركات البدنية سواء بسواء ، وأن لكل  
شيء سبباً ، إذ كان فرويد يعتقد بالجبرية وبارتباط النتائج بالأسباب  
ولم يتسع صدره لقبول المصادفة والاتفاق في تعليل الظواهر .  
والنظرية الأولى من سيكولوجية فرويد هي أن أعراض الهستيريا  
والشكل الذي تظهر به تتوقف على ما وقع للمريض في تاريخه الماضي ،  
فإن كل ما يحدث لنا - كما يرى فرويد - قد ينسى ولكنه لن يموت ،  
بل يظل - رغم كونه وخوده - فعالاً ، وعليه تبعة كثير مما نعمل في  
حاضرنا وما نألم منه في حياتنا . فاللاشعور إذن ليس شيئاً كامناً  
خامداً ، وإنما هو - على غير وعي منا - ثائر فعال . ولم يأت فرويد  
في هذا الرأي ببدعة جديدة ، فقد سبقه إليه الفيلسوف شوبنهاور ،  
كما سبقه ( فون هارتمان Von Hartmann ) ، ولكنه فرويد هو  
صاحب الشرح والتعليق ؛ وسنتحدث عن اللاشعور بشيء من  
التفصيل في فصل مقبل من فصول هذا الكتاب .  
وكما تنبه فرويد إلى أهمية دراسة الأحلام والخواطر للكشف



عن الطبقات العميقة في العقل ، تنبه كذلك إلى أهمية الفكاهة والنكات  
ولاحظ ما بينها وبين الأحلام من أوجه الشبه ، فهي كذلك تتم عن  
الرغبات الدفينة في النفس ، لأن النكتة في أغلب الأحيان تدور  
حول ما يشغل الذهن ، ومن هذا ما تسمعه كثيراً في الأوساط  
المصرية - والوضيعة منها بنوع خاص - حيث تكاد لا تخرج النكتة  
عن تورية في الشؤون الجنسية . وكذلك أدرك فرويد العلاقة بين  
الفنون الجميلة والغريزة الجنسية ، فالمثال والمصور كلاهما كثيراً  
ما يرسمان جسم المرأة العاري ، والشاعر كثيراً ما يستهل القصيد  
بالغزل - حقيقة أو وهما - وهكذا . . .

ولما كانت الغريزة الجنسية - في نظر فرويد - هي مبعث الصراع  
العقلي ، وسبب كل ضروب النشاط الإنساني ، فقد توفر على دراسة  
هذه الغريزة ، وأخذ يتبع نشأتها ، وانتهى من الدرس بإخراج  
كتاب عنها لدى الأطفال نشره بعد كتابيه عن الأحلام وعن الفكاهة .  
ويقول فرويد في هذا الكتاب : إن الجانب الأكبر من الغريزة  
الجنسية يحيا حياة باطنة على خلاف ماتوهم ، وإن النشاط الذي  
ينبعث عنها له قدرة عجيبة على الانتقال إلى ميادين أخرى من أعمال  
الإنسان غير ميدانها الطبيعي : وعلى هذا فإن قدراً كبيراً من أعمالنا  
الشعورية يتوقف على الدوافع الغريزية المكبوتة . ومعظم النقد  
في علم النفس التحليلي يدور حول هذا الموضوع .

وقد أدرك فرويد عند دراسته للغريزة الجنسية عند الأطفال



أن هناك شبهة في العمليات العقلية التي يقوم بها الأطفال ، وبين تلك التي يقوم بها المصابون بالنورستانيا ، أو التي تميز المتوحشين من بني الإنسان ، فدرس حياة المتوحشين ، وتطرق منها إلى دراسة الأساطير والخرافات والنظم الاجتماعية والدينية عند الشعوب البدائية . وقد ألقت هذه البحوث ضوءاً شديداً على موضوعات كثيرة غامضة تتعلق بتاريخ الجنس البشري في ماضيه . ويعتقد فرويد أن الفرد في تطوره العقلي يشبه تطور الجنس البشري .

ومن هنا يتبين أن فرويد بدأ بدراسة المصابين بالهستيريا ، وتطرق من ذلك إلى البحث في موضوعات مختلفة . وظل يعمل وحده أكثر من عشرة أعوام ، ولا يجد من يعطف عليه أو يقبل آراءه ونظرياته . ثم أخذ غيره من الأطباء بعد ذلك يتابعون خطاه ويتأثرون طريقته ويؤيدون نتائجه ، ومن هؤلاء Ernest Jones (إرنست جونز) الذي ظل يعمل أكثر من عشرين عاماً . وفي سنة ١٩١٠ تألفت جمعية دولية للتحليل النفسي ، لها فروع مختلفة في البلدان المختلفة ، وتأسس الفرع البريطاني سنة ١٩١٣ ، وخصص الكثير من المجالات لهذا الموضوع ، ووضع في الكتب الكثيرة . وهناك الآن ثلاثة معاهد للتحليل النفسي ، يلتحق بكل منها عيادة طبية ، حيث يتلقى الطلبة مناهج منظمة في نظريات هذا العلم وممارسة طريقته ، وهذه المعاهد في برلين ، ولندن ، وفيينا ، وإنا لنا أمل أن تحذو مصر حذو هذه الدول المتقدمة ، وتقبل هذا الفرع من علم النفس ، وتهتم



بدراسته في معاهد التربية على الأقل .  
وكان من أعوان فرويد الذين عاونوه في أول الأمر « آدلر » ،  
و « يونج » ، ولكنهما اختلفا عنه فيما بعد ، وأسس كل منهما طريقة  
جديدة في التحليل النفسي .

### نظرية آدلر :

لا يعترف آدلر بأن الغريزة الجنسية هي الدافع الأول ، والباعث  
الأكبر لسلوك الإنسان ، ولا يعترف بكبت العواطف ، ولا يرى  
— كما يرى فرويد — أن الحلم يعبر عن رغبات خفية في النفس ،  
ولا يعتقد في وجود خواطر لاشعورية في النفس ، وإنما هذه الخواطر  
في رأيه لا قيمة لها ، لأنها حلت في الذهن قبل تكون النفسية .

وموجز نظريته أن الإنسان يسعى في جميع أعماله للظفر بالنفوذ  
والسلطان ، وقد أخذ هذا الرأي عن الفيلسوف المعروف نيتشه  
الذي يقول بأن الحياة تسير « بإرادة القوة » ، يقول آدلر: إن الإنسان  
سعيد مادام يتمتع بالقوة والنفوذ ، فإذا أحس بالنقص والضعف ،  
تولتته الكتابة والحزن ، ويطلق آدلر على هذه الظاهرة « عقدة  
النقص (١) » Inferiority Complex وهذا الشعور بالنقص يستولى

(١) « العقدة » Complex مجموعة من الإحساسات والعواطف  
تقوم بنفس شخص معين وترتبط في ذهنه بموضوع معين ، أو بعبارة  
أخرى العقدة مجموعة من الروابط الشخصية تظهر في ذهن زيد من  
الناس إذا دعاها إلى الظهور باغت معين . =



على الشخص ويدفعه إلى التخلص منه ، فيسعى جهده إلى تعويض النقص بالتسامي في ناحية أخرى . وقد ينقلب هذا التسامي عقدة في نفسه

== وكل عقل بشري عبارة عن مجموعة من العقد ، فالمرء يبدأ منذ الطفولة في تكوين روابط عاطفية تتعلق بكل ما يصادف من تجارب ، وهذه الروابط تتسع وتتعمق يوماً بعد يوم ، فالطفل - مثلاً - قد يجلس بجوار أمه وهي تعد طعامه على النار ، فيربط « النار » بالنور ، « بإشباع رمق الجوع » ، ولكن النار قد تحرقه فيضيف إلى هذه العقدة إحساسين جديدين وهما « الألم » و « والخوف » ، ويسعى جهده بعد هذا ألا يقرب النار فتضعف رابطة الألم تدريجاً حتى لقد يسترد عقدة اللذة الأولى التي تتعلق بالنار . وهكذا تتكون العقدة بالتجارب غير المقصودة ، أما الآراء التي تجمعها عمداً عن موضوع بعينه فلا تؤلف ما نقصد عليها بالعقدة ، فقد يعلم المرء مثلاً من دراسته العلمية أن المشروبات الروحية ضارة بالجسم منهكة للقوى ، ولكن المسكرات - رغم ذلك - قد ترتبط في ذهنه ارتباطاً عاطفياً باللذة والنشوة ، فلا يستجيب لداعي منع المسكرات لأن بنفسه عقدة لذة عن الخمر أسحق غوراً من المعرفة المكتسبة .

وقد تبقى العقدة ما عاش صاحبها ، وقد تتلاشى في بضع ساعات ، فقد تلحف على الرغبة مثلاً في الاستمتاع بالثناء على عمل أدبت فأتغاضى عن بعض القدح . في مثل هذا الحين تتكون في نفسى عقدة ثناء ، ولكن قدرتى على النقد والحكم الصحيح تعود إلى بعدما تتبدد الروابط العاطفية التي انقابتني منذ حين .



تسمى « عقدة التسامى ، Superiority Complex ويضرب آدلر لذلك مثلاً (ديموستونيس) اليونانى الألىكن الذى أحس بعجزه عن الإفصاح ، فأقسم ليخطب فى الناس ، ومارس التحدث إلى الجماهير حتى أصبح خطيباً مصقماً ذائع الصيت . ولىكن هذه المحاولة - محاولة التغلب على النقص بالتسامى - قد تبوء بالفشل ، ويشعر المرء باليأس ، فتصيبه علة الهستريا ، وهى مرض مصطنع ينتاب المرء ، والغرض منه أن يظفر المصاب بعطف المحيطين به وبالناية بأمره ، ويبدل المال فى سبيل شفائه ، فيصبح فى مرضه أكثر أهمية منه فى صحته فى نظر المجموعة التى يعيش بينها ، ويكتسب بذلك نفوذاً على أهله

---

== والعلاج النفسى يتعاقب قبل كل شىء بعقد الألم السحيقفة فى النفس لأن الموضوعات التى تتصل بأمثال هذه العقد تراجع إلى اللا شعور وتسبب هناك صراعاً نفسياً . ولعالم النفس طرق تمكنه من بعث هذه الموضوعات ، فيشير ببعضها العواطف الحادة التى ترتبط بها ، ويستعين بهذه الطريقة على فهم العقل الباطن عند المصاب . خذ لذلك مثلاً : قد يجد الطبيب وهو يعالج طفلاً ما أن كلمة « كلب » تمس عاطفة قوية فيه ، فيخرج إلى حيز الشعور خوفاً كان مكبوتاً ونشأ لدى الطفل حينما سمع كلباً ينبح فى يوم من الأيام . وقد يجد الطبيب أن كلمة « ماء » ، وكلمة « بحر » ، وكلمة « يعوم » ، تشير إلى عقدة ما عند مريض من مرضاه ، أى أنها تثير عاطفة قوية ، فيعلم أن المصاب ربما كان يفكر يوماً ما فى الانتحار بالغرق .



وذويه ، إذ يتساحون في قسوته وغلظته عليهم لأنه عليل ، والعليل لا يعاتب .

ويؤيد أدلر نظريته بما يشاهده بين الناس جميعاً ، رجالهم نسائهم . فالطفل يشغف بالرجولة ، والمرأة تحاول أن تخرج من أنوثتها وتزني بزى الرجال ، والرجل الضعيف يغبط الرجل القوي البنية ، والشيخ يحسد في الشباب قوته وحيويته ، أى أن الناس جميعاً يرون في الشباب والرجولة الصورة المثلى للإنسانية ، ويرغبون فيها . فكل منا إذن يحس بإرادة القوة . وهذا ما يسميه أدلر « رغبة التذكير » *The Masculine Protest* ويخرج من هذا أدلر بضرورة توفير الحرية لكل فرد حتى يتسنى له أن يسير نحو تحقيق القوة ، وأن لا يشعر « برغبة التذكير » وعلى أولى الأمر أن يشفقوا على رعيتهم ولا يقسوا عليهم ، حتى لا يعملوا بذلك على الزيادة من هذا الإحساس . وهناك من النقاد بطبيعة الحال من لا يشاطر أدلر هذا الرأي ، فيرى « وتلز ، Wittels مثلاً أن الطفل يحب الطفولة ، وأن المرأة تحب الأنوثة ، وأن الشيخ يجد في شيخوخته لذة لا يدركها الشباب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر العربي :

خلقت أوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شبيبي مومج القلب باكياً

فنظرية أدلر - كما رأينا - تقوم على الأثرة والأنانية وحب الذات ، وليس ما يبديه الفرد من التودد إلى الجنس الآخر إلا رغبة



في الظفر به والسيطرة عليه ، أى أن في تحقيق الرغبة الجنسية إشباعاً  
لرغبة القوة والنفوذ ، وأن الحب ليس معناه إلا السيطرة على القلب .  
ولما كانت النورستانيا في نظر آدلر مظهراً من مظاهر السيطرة ، كان  
يلجأ في علاجه مرضاه إلى تفهيمهم - باللين مرة ، وبالشدّة مرة ،  
وبالتحكّم أخرى - أنهم يكبرون الظن بأنفسهم ، ويتطلبون من المجتمع  
تقديراً فوق ما يستحقون ، وكان يقنعهم بأن وسيلتهم إلى الشفاء هي  
النضال في سبيل العلو والترقى ، لا الركون إلى المرض والإخلاق  
إلى الكسل . ورأيه في هذا يتفق ورأى الأطباء الذين يرون أن  
علاج النورستانيا هو في إهمالها وعدم رعايتها أو النظر إليها ، لأننا  
بعطفنا على المريض نغذى الرغبة التي دفعته إلى الشذوذ في سلوكه ،  
فيمبغى لنا أن لا نبدي للمريض عطفاً حتى لا يتماهى في مرضه لإشباع  
شهوة النفوذ في نفسه .

وواجبنا - نحن المدرسين - إن لمسنا بطفل من الأطفال شذوذاً  
في سلوكه أن نكشف عن عقدة النقص في نفسه ونحاول أن نستبدل  
بها عقدة التسمّى ، فالطفل الذي لا يجيد مادة الحساب مثلاً قد يبرع  
في رواية الشعر والإلقاء ، والطفل الذي لا يحب الدرس على إطلاقه  
قد يبرع في الرياضة البدنية فيجد ميزة في نفسه يفخر بها بين أترابه ،  
ولا يحاول الانزواء والتوارى عن أعين زملائه .

وليست الأحلام في نظر آدلر تعبيراً عن رغبات دفينّة في النفس ،  
وإنما هي محاولات يقدمها العقل الباطن للمرء لحل عقدة النقص في



نفسه ؛ ولهذا العقدة عينها يرجع آدler السبب في مقاومة المريض لتأويل رؤياه ، لأنه لا يجب أن يرى سواه أقدر منه على فهم خفايا نفسه . وإلى هذه العقدة كذلك يرجع الباعث على رغبتنا في الحط من شأن زملائنا ونقد ما يقومون به من أعمال وما يظهرون من براعة فوق مقدورنا ؛ وكثير من النقد الأدبي ونقد الفنون لا يصدر فيه الناقد عن صدق وإخلاص ، وإنما عن حقد وغيره .

وقد كان لبحوث آدler ونظرياته أثر في توجيه فرويد وتعديل بعض آرائه ، فقد أخذ فكرة الأنانية من آدler وسماها « تقرير الذات ، ego ، واعترف بوجودها باعثاً في النفس إلى جانب الباعث الجنسي ، وهذا الباعث الجديد في نظره هو الدافع الذي يحفزنا إلى الاعتداء على غيرنا من الناس .

### نظرية كارل جستاف يونج :

يعتقد آدler - كما ذكرنا - أن إرادة القوة هي الدافع للمرء في جميع تصرفاته ، وأن الدافع الجنسي ما هو إلا مظهر واحد من مظاهرها ، أما يونج فيرى أن الدافع الجنسي كان في أول الأمر يملك على المرء كل نفسه ويسيره في كل ما يفعل ، وإنما جانباً من هذه الرغبة الأولية ، هذه الطاقة الحيوية ، قد خلص من الرغبة الجنسية المحضنة خلال تقدم المدنية الإنسانية ، وانصرف في منح أخرى . هذا الجانب الجديد يعارض الطاقة الجنسية ويقاومها ويقف في سبيلها .



والواقع أن أدلر ويونج كليهما قد أخذتا الرأي من فيلسوف أعظم  
منهما وهو (شوبنهاور) الذي يقول بأن الدافع الذي يدفع بالإنسانية  
جمعاء هو (إرادة الحياة) وهو رأى أشمل وأوسع مدى من  
هذين الرأيين .

ويونج هو أول من قال بأن اللا شعور هو المستودع الذي يدخر  
فيه الإنسان الثقافات القديمة والعقائد والآراء البائدة ، وهو القائل  
بأن العقل الباطن يفكر على طريقة قديمة مهجورة هي طريقة آباءنا  
الأولين ، وبأن الأحلام والأوهام وخواطر المصابين بالهستيريا هي  
البقية الباقية فينا من تراث الفكر القديم ، فالحلم صورة من صور  
الحياة البائدة البدائية تظهر في ستار رقيق من الثقافة الحديثة ، ولذا  
فنحن في أحلامنا كثيراً ما ننحط ونرى أنفسنا ونحن نعيش في الغابة  
ونشتغل بالصيد ، أو ننتقم بأنفسنا لأنفسنا دون الرجوع إلى  
قاض أو حاكم . ويقول الناقدون أن يونج لا يقدم لنا طريقة لعلاج  
الشواذ ، لأن المريض لا يفيد شيئاً حين تعمل له شذوذه وترجعه إلى  
اتباعه طريقة بالية في السلوك .

والجانب الذي تخلص من الدافع الجنسي هو ما يطلق عليه فرويد  
(تقرير الذات) الذي أشرنا إليه عند الكلام على نظرية أدلر .  
ويقول يونج إن هذا الجانب أرقى في نزعته من الباعث الجنسي ،  
وهو الذي يبعث المرء على كل عمل مجيد ، وعلى التنزه عن الدنس  
الجنسي ، وعلى التقرب إلى الله . فيونج على هذا رجل أشد إيماناً .



وأقوى ديناً من فرويد ، ويعتقد أن الدين يدفع بالإنسان إلى التسامى  
بغريزته الجنسية .

وهو يقسم الناس إلى أنماط مختلفة ، ويرجع كل فرد إلى نمط  
خاص . وهمه في العلاج أن يرد المريض إلى نمط من هذه الأنماط ،  
فإذا تم له ذلك شرع في هدايته على هذا الضوء . فطريقته إذن هي  
في الواقع طريقة تركيبية Synthetic لا تحليلية Analytic .



## قيمة تحليل النفس بين العلوم وفائدته

أتينا في الإلمامة السابقة على تاريخ فكرة التحليل النفسى . وكيف تطورت ، وما اشتملت عليه من بحوث ، وأهم الباحثين فيها ، والآن تقدم للقارى فكرة عن قيمة تحليل النفس بين العلوم وفائدته للناس . ويجب قبل أن نشرع فى بسط الموضوع ، أن نشير إلى أن الرأى العام عن تحليل النفس يتذبذب بين طرفين متناقضين ، فمن الناس من يقول بأن هذا المبحث الجديد لم يأت بما لا علم لنا به من قبل ، فحقائقه معروفة ذائعة بين عامة الناس ، ومنهم من يقول بأنه مبحث تعافه النفس ، ويمجه الذوق ، وينبغى أن تتحاشى قراءته أو أن تقرأه كما تقرأ حديثاً من الهزل لا جد فيه . والحقيقة - كما هى دائماً - وسط بين النقيضين ، فهذا العلم يجمع أشتاتاً من المعرفة كلنا بها عليم ، ولكنه يعلمها تعليلاً قد يغيب عن الكثير منا ، تعليلاً لم يطرأ لأحد منا من قبل . وسنحاول فى هذا الكتاب أن نربط حقائق تحليل النفس بالأمثلة المعروفة المألوفة ، ولكننا - رغم ذلك - نعتزف بشذوذ الكثير من الآراء التى نوردنا هنا نقلاً عن أصحابها ، وذلك لأن التحليل النفسى يحاول أن يجيب عن أسئلة لم يتعرض لها أحد من قبل ، بل ولم يفرض أحد وجودها بين الناس . تحليل النفس يعالج ميداناً من المعرفة - هو اللاشعور - وهو ميدان لا نحس بوجوده ، بل وكثير منا



ينكره كل النكران . وكثير من مادة هذا العلم مأخوذ من الأمراض العصبية ، ولهذا فهو - في ظاهر الأمر - يختص بالأفراد الذين لا تقع عليهم تبعه كبيرة في الحياة ، والدين لا يأبه المجتمع لما يفعلون . هذا إلى أن النتائج التي يصل إليها تحليل النفس ويؤكد أهميتها ، غالباً ما تكون جارحة للحس ، بغضه إلى النفس ، ولذا فلا عجب أن لا يؤمن بصحتها أحد . ومع ذلك كله فلا شك أن هناك من الناس اليوم من يشغف بهذا الموضوع ، وكلنا يكاد يعتقد بوجود أعماق مجهولة في طبيعة الإنسان ، ولذا فأملنا وطيد بأن هذا العلم سوف يشق طريقه إلى القلوب ، وينال من الناس ما هو جدير به من عناية . وسيقابل الباحث في هذا العلم كثيراً من المتناقضات ، وأولها أن هذا التعبير عينه « التحليل النفسى » يدل على ثلاثة أشياء ، فنحن نقصد به أولاً طريقة خاصة من طرق العلاج الطبي ابتكرها الأستاذ فرويد النمساوى لعلاج طائفة معينة من الاضطرابات لعصبية ، وهذا المعنى المحدود هو ما كان يقصد بالتعبير أول ظهوره . ونحن نعنى بتحليل النفس كذلك طريقة خاصة للوصول إلى الطبقات العميقة في العقل ، كما أننا نعنى به فوق هذا وذاك محتويات اللاشعور . ولعل القارىء يدهش بعد هذا من أن طريقة البحث وطريقه العلاج واحدة ، ولسكن هذه الدهشة بعد معرفة شيء عن المشاكل النفسية لا تلبث أن تنبدد .

بل أن كثيراً من الناس يستعمل هذا التعبير خطأ للدلالة على



معان أخرى ، مما يساعد على زيادة تعقيد العلم واضطرابه في أذهان  
القراء ، فإن عامة الناس - بل وبعض المختصين - يتكلمون عن تحليل  
النفس ، ويشيرون بذلك إلى أى ضرب من ضروب العلاج النفسى  
(وهو العلاج العقلى للأمراض العصبية) بغض النظر عما إذا كانت  
الطريقة الفنية التى ابتكرها فرويد هى وسيلة العلاج أم لا . كما أن  
بعض الأطباء يستخدم طرفاً من طريقة فرويد ونظرياته دون أن  
يعرفوا دقائقها أو يفهموها جيداً ، ويخلطونها بغيرها من الطرق ،  
وبما يناقضها من الآراء فيزداد الأمر تعقيداً على تعقيد . هذا إلى أن  
بعض علماء النفس يحبون أن يوهموا القراء أنه جديد ، وأنه لم يظهر  
إلا بعد الحرب العظمى . فالتحليل النفسى إذن يطلق على أمور بعيدة  
العلاقة بالموضوع أو لا علاقة لها البتة به .

فما هو إذن تحليل النفس ؟ الواقع أن كتابنا هذا من الغلاف  
إلى الغلاف جواب عن هذا السؤال ، ولكننا قبل أن نشرع فى التفصيل  
نحب أن نسمى إلى القارىء بفكرة عجلى عن ماهية الموضوع .  
يحتوى العقل على عناصر يتعسر على الوعى أو الشعور أن يسبر  
إغوارها ، وقد ألمع إلى هذه الحقيقة كتاب من قبل فرويد ، ولكن  
هذا العالم النمساوى هو أول من أدرك وأذاع بين الناس أن هذه  
العناصر لا تنسجم وبقية العقل . وفى خلال بحوثه أثبت أن العقل  
البشرى يشبهه مجموعة من الحجرات المحكمة ، وأن لاصلة البتة بين  
حجرة وأخرى . وكان يلاحظ أن المصاب بمرض عصبى لا يعاون



طبيبه في الكشف عن الحجرات العميقة في العقل ، ولذا فقد استنتج  
أن هناك قوى عقلية معارضة تصرف المريض نفسه عن العلم ببعض  
نواحي عقله ، وقد أطلق على هذه القوة المعارضة « المقاومة » ،  
Resistance والمقاومة تقف في وجه الطبيب والمريض على السواء ،  
وهي طريقة يلجأ إليها المرء لاشعوريا لإخفاء خواطره المكبوتة (١).

(١) « الكبت Repression » هو كبح العقد البغيضة كبحاً  
لا إرادة لنا فيه ، وإيداعها في العقل الباطن ، أي أننا نكبت الأفكار  
حين تناسبها غير عامدين .

أما « القمع Suppression » فهو الإخفاء الإرادي لعاطفة ما ؛  
فالمرء حين ينسى أن يدفع ما عليه من ديون ، أو أن يجيب عن  
خطاب عمل يقوم بعملية كبت لاشعورية ، ولكنه حين يخفي غضبه  
أو مله من سماع حديث غير جذاب ، يقوم بعملية القمع . والقمع  
الشعوري كثيراً ما يؤدي بدرجة غير محسوسة إلى الكبت اللاشعوري .  
ومن هذا نعلم أن ليس هناك نسيان مطلق ، وإنما الخواطر التي  
نظن أننا قد نسيناها مخبوءة في اللاشعور . وهذا يفسر لنا ما نراه  
من التناقض في السلوك أحياناً ، فقد نرى مثلاً عالماً لا يعتقد في الخرافة  
ولكنه يخشى السحرة ، وذلك من أثر العقائد المكبوتة التي تلقاها  
منذ طفولته ممن هم أكبر منه سناً . والكبت يلازمنا منذ الطفولة ،  
وهو ضروري في كثير من الأحيان ، فنحن ننسى مثلاً المخاوف التي  
كانت تفتابنا عند تعلم المشي في الصغر فنستقيم في مشيتنا ، ولولا ذلك  
لظلمنا نتعثر كما كنا حينما بدأنا نتعلم المشي . ومن فوائد الكبت أننا =



وكلنا يعرف هذه الخواطر المكبوتة في صورتها الساذجة ، كما نعرف  
أنا لانحب الكشف عنها ، بل ولا نود معرفتها ، ونتلمس الأسباب  
لتناسيها وتجاهلها ، وإبعادها عن محيط العقل . ولكن فرويد لا يشير  
في الواقع إلى الخواطر حديثة الكبت التي تختفي في اللا شعور حيناً ،  
وتقفز إلى الشعور حيناً آخر ، وإنما يشير إلى الخواطر التي كبتت  
في الاغوار السحيقة منذ زمن بعيد حتى ليتعذر على صاحبها ذكرها  
أو إخراجها إلى حيز الشعور . والخواطر المكبوتة والمقاومة كلها  
مجهول لصاحبها ، فهي إذن بحق «لا شعورية» . والمقاومة تساعد على  
جهل المرء بمحتويات اللا شعور . وليس من اليسير أن تعرف ما يقرب  
في أعماق نفسك ، ولكي تصل إلى ذلك ينبغي أن تتوجه إلى طبيب  
مختص بالتحليل ، وقد ينفق في علاجه إياك السنوات الطوال .

وقد لا يعترف القارى بجهله حقيقة نفسه ، ولكننا نذكره بقول  
سقراط : «أيتها الإنسان ! اعرف نفسك» ، كما نذكره بأن الإنسان  
جامد بطبيعته لا يميل إلى التجديد ، محافظ بفطرته على القديم .  
وليست المقاومة التي يلقاها علم النفس التحليلي من الناس الا مثلاً

== لا نذكر موتانا دائماً ، كما ننسى الحوادث الأليمة التي تمر بنا في حياتنا ،  
فالكبت إذن في أمثال هذه الحالات مفيد ونافع ، ولكنه حين يظهر  
في الأحلام المزعجة ويسبب الهستيريا ضار بالغ الضرر . وإذا اشتد  
الكبت حتى زاد عن طاقة اللا شعور جن المرء وأخذ يتحدث عن  
خواطره المكبوتة بصوت مرتفع .



لذلك . بل إن علم النفس التحليلي ليفسر لنا السبب في هذه المحافظة التي يميل إليها كل إنسان . وذلك لأن معارضة الآراء الجديدة - سواء كانت خاصة بالنفس أو بالعالم الخارجي - ليست في أساسها إلا انعكاساً للمعارضة الباطنية في النفس أو المقاومة ، لمعرفة الإنسان دخيلة نفسه .

وليس بدعاً ما يلاقيه علم تحليل النفس من مقاومة ، فالتاريخ حافل بما يدل على ميل العامة إلى الإبقاء على القديم ، فما كان أشد مقاومة العرب للدين الإسلامي الخفيف رغم صدق آياته وإحكامه ، ورغم النور الذي يشع من جوانبه . ولم يكن يسيرا على النفوس أن تتقبل بالرضا علم الفلك في القرن السادس عشر ، وعلم وظائف الأعضاء في القرن السابع عشر ، ومكتشفات الكيمياء في القرن الثامن عشر ، والبيولوجيا في القرن التاسع عشر . وأهم ما يوصم به تحليل النفس أنه يخرج في كثير من مواضعه عن حدود الأخلاق والعرف ، وأنه يهدم كثيراً من العلم القديم ، وأنه علم مادي ، بل ويميل نحو الإلحاد . وأنه يحط بالإنسان من مستواه الرفيع ، ويعلق كل الأهمية على الغريزة الجنسية الحيوانية ، فهو يسيء إلى حسن ظننا بأنفسنا ، ويجرد الحياة من كثير من مباحثها وجمالها وروحانيتها بما يكشف من حقائق . وما أشبه موقف الإنسان إزاء هذا العلم الجديد بموقف الشاعر الإنجليزي Keats ( كيتس ) حينما غضب غضبة قوية بعد ما كشف العلم عن ألوان الطيف ، إذ خشي أن يجرمه هذا التحليل العلمي التمتع



بجمال قوس قزح ، وهو خوف وهمي لا يقوم على أساس من الصحة .  
كان الشاعر كيتس يحس أن استمتاعه بجمال القوس يتوقف على  
إحساسه بالغموض الذي يحيط بحقيقته ، وتوهم أن نور العلم سيبدد  
هذا الغموض ويحرمه لذته . ولكن رجال العلم لا يرون أن المعرفة  
تضعف الحس بالجمال ، والإعجاب بنظام الكون ، بل أن زيادة  
المعرفة - على التقيض من ذلك - تبين للمرء أنه لا يعرف إلا القليل ،  
وأن ما لا يعرف كثير ، وإنما كلما بددنا الأوهام التي يولدها الجهل  
اشتد خضوعنا لله وتقديرنا لحكمته وتدييره ، ولكن الإنسان رغم  
هذا يتعلق بأذيال الوهم والجهل . هذا إلى أن تحليل النفس يشرح لنا  
طبيعة المخاوف الوهمية ، ويبرهن على أن النظرية التي تقول بأن  
الوهم والجهل ضروريان ، لتقدير القيم الروحية للأشياء ، باطلة من  
أساسها .

ولكن الخوف من العلم - لحسن الحظ - آخذ في النقص ،  
والتسامح اليوم أشد من ذي قبل ، والتجارب سوف تؤتي ثمارها  
إن عاجلا أو آجلا ، وسوف يعرف الإنسان يوما أنه إذ يستبدل  
الإعجاب والثقة بالكبرياء والخوف يظفر بالشئ الكثير . وعلم  
النفس التحليلي يساعدنا على تبديد هذه المخاوف الوهمية التي سيطرت  
علينا واستعبدت أذهاننا حقا طويلا من الزمان .

ولعل من أسباب الاعتراض على تحليل النفس أنه يتعلق بحرية  
الإرادة . وهذه الحرية - كما نعلم - شديدة الارتباط بإحساسنا الروحي



باللانهاى المطلق . كان الإنسان قديماً لا يعتقد فى تعلق الأسباب  
بالمسببات ويظن أن حوادث الحياة الجسمية تخضع لقوة عليا تتدخل  
فى نظام الكون تدخلا إعتباطياً لا مبرر له ولا يقوم على علة منطقية .  
وظلت هذه القوة الخارقة المستبدة أجيالا طويلة تعزى إلى الكائنات  
الخارقة للطبيعة ، وبما أن هذه الكائنات لا تستطيع أن تمارس  
نفوذها إلا وفقاً لرغبة الإنسان ، كان الانسان يعتقد أنه يمكنه  
بالإرادة أن يسيطر نفوذاً قوياً على الحوادث التى تمس سعادته .  
ولكن بتطور المجتمع ونمو المدنية أخذ الإنسان تدريجاً يذبذ عقيدته  
فى هذه القوة الوهمية ، ويعتقد بأن النتائج لا تنجم إلا عن مسبباتها  
وأنه لا إرادة له فى تسيير الحوادث . وقد علمتنا التجارب أن  
الاعتراف بوجود النواميس الكونية الأزلية يزيد من قوتنا أكثر  
مما تفعل عقيدتنا فى القوى الموهومة . يريدنا العلم على الا نعتقد  
بأن هناك حادثاً منعزلاً لا يرتبط بسابق أو لاحق ، وإنما كل حدث  
ما هو إلا حلقة من سلسلة الأسباب والمسببات التى لا تنقطع .  
وينطبق هذا الرأى على العمليات العقلية كما ينطبق على ميادين المعرفة  
الأخرى . وعيب التحليل النفسى فى نظر المعارضين أنه يطبق على  
دراسة العقل هذه النظرية العلمية العامة ، وأنه لا يؤيد حرية الإرادة ،  
ولا يعترف بأن من الناس من يستمتع بحرية إرادية أكثر من سواه .  
وهذا - فى ظنهم - معناه هدم التبعية الشخصية وقواعد الأخلاق  
الاجتماعية ، والأحكام الفردية ، والحس بالجمال الذاتى . والذين



الإسلامي الكريم يؤيد ما زعم فرويد فقد جاء في كتاب الله ( وجعلنا  
لكل شيء سبباً فأتبع سبباً ) .

وتحليل النفس إذن يحاول أن يقنع الناس بأن السكون يقوم على  
النظام ولا يقوم على الفوضى ، وأن العالم كله واحد منسجم تنخرط  
فيه النفس الإنسانية ورغباتها كما تنخرط فيه الموضوعات الأخرى .  
والأيام كفيلة بنصرة هذا العلم كما انتصر غيره من العلوم والمعارف  
من قبل . وسوف يؤدي ذلك إلى اتساع نفوذ الإنسان وزيادة سلطانه  
على نفسه ، وهو أشد ما نكون إليه حاجة في هذه الأيام .

والأمل وطيد في أن يتخذ تحليل النفس مكانته بين العلوم . وربما  
كان من أهم مميزاته أنه تجريبي عملي ، وليس موضوعه علمياً نظرياً  
بحتاً ، وأنه يحاول أن يتخلص من النظريات المهمة في علم النفس العام  
كنظرية مظاهر الشعور الثلاثة: الوجدان والإدراك والنزوع ، فهي  
نظريات عقيمة تكاد تكون عديمة الصلة بشئون الحياة العامة ،  
ولا تفتح للمرء دخيلة نفسه أو تكشف له عن الدوافع والأعمال  
التي يقوم بها غيره من الناس الذين تضطره حياته أن يخالطهم  
ويعاشرهم في جو من المودة والتسامح والتفاهم . فتحليل النفس على  
هذه الصورة علم عملي نافع له من القيمة العملية ما للمسرة أو  
السيارة في تسيير شئون الناس .

إن كل من يضطره عمله اليومي إلى الاتصال بالناس يواجه  
كثيراً من المشاكل النفسية التي لا يحيط له عن معالجتها . وإنك لترى



مثلاً زيداً من الناس - وهو رجل ذو خبرة وكفاية ونفع - يعيش في جو مليد بالآلام والذلة والخنوع حتى إنه ليقتصر دون مجاراة زملائه وإخوانه فتدهش لهذه الظاهرة وهذا السلوك؛ وترى عمراً من الناس شديد القسوة على من هم دونه، بينما هو بين أخوانه رجل رقيق محبوب، فلا تعرف لذلك علة. كما قد يسأل المرء نفسه لماذا أراي دائماً أميل إلى مضايقة فلان والخط من شأنه، ولماذا يميل هذا الطفل إلى العزلة لغير ما سبب بين، ولماذا تحيا هذه المرأة حياة عصبية مريضة، وهي دائماً متعبة تشكو ألماً في الرأس كما تشكو البرد وعسر الهضم، كثيرة الشغب، شديدة التردد والجزع، قوية الإشفاق على نفسها، مع أنها تحيا حياة تقتضي أن تكون صحيحة البدن قوية سليمة؟ هذه وأشباهها هي المسائل التي تقدمها لنا الحياة كل يوم، وهي تارة تخصصنا، وطوراً تخص من نعاشر أو زملاءنا في العمل. وقد تتوقف سعادة الأسرة أو المجتمع بأسره على مقدرة المرء ومعرفته ومهارته في مواجهة أمثال هذه الأمور بشيء من الحكمة والتبصر. فليس إذن من بذل الوقت في غير طائل أن نعلم شيئاً عن تحليل النفس لأنه يعطينا على الأقل مفتاحاً خيراً للوسائل لمواجهة المشاكل اليومية التي تنجم عن اتصال شخص بأخر.

وفوق هذا فإننا نعيش في زمن العالم المتمدن يشكو فيه - كما يشكو من قديم الزمان - من الأمراض والاعتلال العصبي، نعيش في عالم قليل الثقة في دواء الطبيب. ولقد بدأ الرجل العادي يدرك ما أدرك



كثير من الأطباء من قديم وهو أن العقاقير كثيراً ما تقصر دون علاج أعراض المرض علاجاً حاسماً ، وبخاصة تلك الأعراض التي تنشأ عن أسباب بعيدة عن منالنا ، بل وفوق قدرتنا على التشخيص ولكننا إذا لم نعثر على وسيلة نستبدلها بهذه العقاقير التي لا تثق فيها بتنا في حال أسوأ من ذي قبل ، حينما كانت عتميدتنا الساذجة في الأدوية تؤدي إلى الشفاء .

ولكن هناك - لحسن الحظ - الكثير مما قد نستعيض به عن هذه العقاقير ، وقد أخذ في الانتشار ، وأخذ الناس يدركونه شيئاً فشيئاً ، فليس هناك رجل دقيق الملاحظة ينكر معجزات العلاج الروحي الذي يقترن بأمثال « هكسون » الطبيب المعروف . وكلنا يعرف الأثر النفسي الذي يتركه على المرضى الأولياء في القرى والذي توحى به الرقى والتأمم ، وقد ترجمت إلى العربية قصة عنوانها « الطلسم » للكاتب الإنجليزي السروالترسكت ، تبين لنا في خيال رائع جذاب أثر الطلسم في الشفاء . ولكن جمهرة الناس لا تعلم شيئاً عما يقوم به الخبراء في العلاج الروحي . وقد ذاعت في الأوساط العامة أخيراً شهرة المسيو كوي Coué في معاونة الناس وتعليمهم علاج أنفسهم بأنفسهم بطريقة الإيحاء الذاتي ، وقد أيدته علماء التحليل النفسي فأثبتوا إثباتاً قاطعاً لا يحتمل الشك أن للمرء قدرة على علاج نفسه بمعرفة نفسه وفهم شخصيته .

نعم لقد أدرك الإنسان من منذ نشأته ما لمعرفة المرء نفسه من



قيمة عظيمة ، ولقد أوصتنا الديانات السماوية جميعاً بتعرف نفوسنا  
نجاه في القرآن الكريم ( . . . . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . . . . )  
والكن الإنسان أدرك مع ذلك المشقة الزائدة في معرفة المرء نفسه  
معرفة صحيحة مجربة ، وحاول بمختلف الطرائق منذ العصور القديمة  
أن يصل إلى سبيل معرفة النفس ، ولجأ إلى طريقة التأمل الباطني ،  
ولكنها لم تفلح ولم تؤد إلى النجاح لأسباب ليس هذا مجال بحثها ،  
ويكفيها هنا أن نقول : إن المرء حين يقوم بهذه التجربة لا يسهه إلا  
أن يمزج العقل بالعاطفة ، فلا تكون نتيجة أبحاثه مبنية على الفكر  
المجرد . وظل الباحثون يدأبون حتى كانت المدرسة الحديثة في العلاج  
النفسى ، فكشفت لنا عن نظرية جديدة ، وطريقة عملية تؤدي  
مباشرة إلى معرفة النفس ، ومتى عرفت نفسك سهل عليك علاجها .  
ولا غرابة في ذلك ، فالعقل السليم - كالجسم السليم - يعالج مشاكله  
بنفسه ، فبما أن الجسم السليم يتناول الطعام ويهضمه ويتغذى به  
ويلفظ نفاياته ، فكذلك العقل السليم يتقبل الآراء المختلفة ويميز بين  
غشها وسميتها ، ويأخذ بما يفيد ، وينبذ ما لا يفيد . ومن الوسائل الناجعة  
لعلاج النفس المريضة الدين والفلسفة والأعمال المجاهدة ، فذكر الله  
علاج من خوف الخطيئة ، والتوبة حل نهائي للندم ، ومن ثم كان  
نجاح (الشيوخ) في القرى حيث يفشل الطبيب ، وذلك لأن المريض  
أكثر صراحة مع الشيخ منه مع الطبيب ، إذ يروح للأول بما يخفي  
على الثاني .



ومن البديهي أن كتاباً صغيراً كهذا لا يمكن أن يتسع فيه المجال  
لبحث مزايا المدارس المختلفة في علم النفس التحليلي أو التعمق في بيان  
أصولها وطرائقها . ولكن ما همنا هنا هو ذلك السؤال الذي يتردد  
كثيراً على ألسنة الناس - وبخاصة أولئك الذين لمسوا بأنفسهم نجاح  
التحليل النفسي في العلاج ، ولاكنهم لا يعلمون إلا النزر اليسير من  
مبادئ العلم - وذلك السؤال هو : كيف أن البحث في الدوافع  
والأفكار والبواعث والعواطف التي تنتاب المريض تؤدي إلى شفائه  
من كل الأعراض الجثمانية والنقائص العقلية ؟

يعلم كل منا أن ليس أضنى على النفس من النزاع العقلي أو العاطفي  
والشعور بأن المرء ينجذب إلى ناحيتين متضادتين في آن واحد .  
وكذلك يدرك كل امرئ ذلك الشعور بالفرج والراحة الذي يحس  
به حينما ينقضي هذا النزاع ، ويصل صاحبه إلى حل نهائي . في مثل  
هذا التردد وفي هذه المحنة يقول المرء من كل قلبه : إني لأبالي ماذا  
أنا صانع ، مادمت أستطيع أن أقوم بعمل حاسم في هذه السبيل ،  
أو في تلك . هذا الصراع النفسي قد يكون شعورياً ، وقد نعلم به ،  
مثال ذلك : هب أني أريد أن أذهب إلى دار السينما لرؤية ممثلة  
خاصة أنا مولع بتمثيلها ، وهب أن هناك قريباً لي مريضاً ، ويحتم  
علي واجبي في هذه الليلة أن أعوده ، فمادا عساي أن أفعل؟ إن رغبتى  
الشديدة في مشاهدة الممثلة تسيطر على نفسى أولاً ، وإني لأفكر  
في ابتداع أسباب وجيهة عديدة أعتذر بها عن زيارة المريض ،



ولكن سرعان ما يغلبني الإحساس بالواجب ، فأرى أن قضاء الليلة في دار السنما وسيلة لبذل الوقت لا طائل تحتها ، فأقول لنفسي إن هذه الممثلة لم تعد خير الممثلات ، وقد تفوق عليها كثيرات غيرها ، ثم أتخيل زيارة المريض فأتوقع لذة فائقة من أداء الواجب ، ومن بشاشته لي حين يراني ، ثم أعود فجأة إلى الرأي الأول وأوثر أن أشاهد التمثيل ، وهكذا تستمر الحركة الفكرية في تذبذب ، وأظلم أتردد وأنا قلق حتى يرجح أحد الرأيين الرأي الآخر ، وأخيراً أصل إلى حل حاسم . هذا مثال من أمثلة النزاع الشعوري ، ولكن علماء النفس قد اكتشفوا أن الأغلبية الساحقة منا ، تنجذب نحو ناحيتين متضادتين ، دون أن نكون على علم بذلك ، وأن الصراع النفسي يتم لاشعورياً ولا ندرك منه غير نتائجه ، ولا تربط هذه النتائج بمقدماتها الصحيحة بغير معونة الخبراء ، ومن ثم كانت أهمية تحليل النفس في الطب الحديث ، لأن الطبيب الذي يعتمد إلى التحليل يسبر غور اللاشعور ويخرج إلى الضياء ذلك النزاع الخفي الذي يفت في قوة البدن ، فيواجهه المريض موضع العلة ويعالجه بنفسه ، فيطمئن فؤاده وتعود إلى جسمه حيويته الطبيعية ، كأن الطبيب بهذا يكشف عن منصرف كانت تتسرب منه القوة الحيوية فيسده ويوقف مجراه . ومصادر هذه المنازعات اللاشعورية عديدة لاحصر لها ، وربما كان أكثرها ذبوعاً ضرباً من ضروب الخوف ، كالخوف من المرض أو الخوف من الكوارث العائلية ، أو خوف من تغير الظروف من



سوء الى أسوأ ، أو من الإثم والخطيئة ، أو الفقر أو الملل ،  
أو الشيخوخة ، أو الموت ، ونحن كثيراً ما نكبت هذه المخاوف (أى  
نرفض عمداً أن نفكر فيها) أو نقمعها (أى نسمح لها أن تغوص  
في اللاشعور حتى لا نعلم بها البتة) . ولكن الخوف - كما نعرف -  
يسبب اضطراباً جثمانياً وعقلياً ، فيجهد المرء للمقاومة . وهذا  
الاضطراب النفسى يسبب المتاعب النفسية ، وهو باعث من بواعت  
الأرق فى النوم . وتحليل النفس يكشف عن سبب الخوف ويأتى به  
إلى دائرة الشعور حتى يستطيع المصاب أن يواجهه ويعالجه ، فتطمئن  
نفسه وينشط جسمه ، ومن ثم كان العلاج النفسى ناجعاً فى شفاء  
الأرق حيث تفشل العقاقير .

والصراع العقلى فى غالب الأحيان نزاع بين رغبات الفرد  
وحاجات المجتمع . يقول الإنسان الهمجى «أنا» ويظن نفسه «مركز  
العالم» كما يقول فكتور هو جو : ويتعلم الإنسان المتمدن أن يقول  
«نحن» وأن يحيا لنفسه ولغيره .



## الاشعور

لعل القارىء بعد هذا كله يريد أن يعلم بشيء من التفصيل حقيقة  
الاشعور وماهيته .

ليس العقل الإنسانى ساذجا بسيطاً كما يبدو ، وإنما هو مركب  
شديد التعقيد ، وهو يشبه بحراً خضماً يمثل سطحه المترقق مانسميه  
عادة بالعقل الواعى ، بينما يمثل الجزء الأكبر المستتر من الماء  
« العقل الباطن » أو « الاشعور » . وكما أن الطبقات الدنيا من الماء  
لا تفتأ تختلط بالمياه الطافية فتغير لونها وحرارتها ، فكذلك الطبقات  
السفلى من الاشعور لا تفتقر عن التعديل والتبديل فى أعمالنا وأفكارنا  
التي نعيها . وليس إدراك هذه الفكرة بالأمر الهين ، ولا عجب أن  
نرى النقاد يتلمسون المعارضة فى كل لون من ألوان الجدل العقلى  
والفلسفى . ولعل أهم ما يوجهونه من نقد أن كل عملية عقلية هى  
- بطبيعة الحال - شعورية كذلك ، ولذا فمن تناقض القول أن نقول  
بأن هناك عمليات عقلية لاشعورية ، فهذه العمليات - إن وجدت -  
قد تكون فيزيقية . ولكنها إن تكون عقلية . والواقع أن التنويم  
المغناطيسى قد ساعدنا على إدراك العمليات العقلية اللاشعورية التي  
تظهر فى صورة الآراء والرغبات وما إليها ، ولكننا مازلنا نفتقر إلى  
إثبات وجود عمليات فيزيقية لاشعورية .



اقتنع فرويد بوجود طبقات خفية من العقل تقوم بعملها لا شعوريا ، ثم تدرج من ذلك إلى صوغ نظرية عامة عن تكوين العقل لن نتعرض لها هنا بالتفصيل ، ويكفي أن نجمالها إجمالاً .  
يعتبر فرويد العقل جهازاً يتحرك بدافعين مختلفين ، دافع خارجي ، وآخر داخلي ، ومن البواعث الخارجية ما يؤثر على الحواس من منظور ومسموع وملبوس الخ . . . . ومن البواعث الداخلية التي تؤثر في المرء الجوع والعطش وغير ذلك من الغرائز القوية ، وكثيراً ما يتأثر الفرد بالباعثين في آن واحد ، فالجائع مثلاً حينما ينظر إلى طعام شهى يتأثر بمראה كما يتأثر بالجوع الباطني . ويرى فرويد أن هذه العمليات العقلية جميعاً تبدأ بالاشعور . ثم يخرج بعضها في التو إلى الشعور ، ويبقى بعضها الآخر محتبساً في طوايا العقل الباطن . ومن اليسير أن نتصور كيف أن البواعث الداخلية تمر بالاشعور أولاً ، ولكننا قد نشك في أن البواعث الخارجية تمر بمنطقة اللاشعور قبل مرورها بمنطقة الشعور ، ولكن أمثلة كثيرة من الحياة اليومية تؤيد هذا الزعم ، فكثيراً ما يتنبه الواحد منا إلى نفسه فجأة فيحس أنه قد سمع رنين جرس منذ لحظة ، ولكنه لا يذكر أنه أدرك هذا الصوت بشعوره الظاهر ، وتفسير ذلك أن الصوت وقع في اللاشعور أولاً ، ثم انتقل إلى الشعور .

والعمليات العقلية من حيث علاقتها بالاشعور - في رأى فرويد -

ثلاثة ضروب :



١ — الشعور العادى ، ويشتمل على الخواطر والآراء  
والإحساسات وغيرها مما نفطن إليه في لحظة ما .  
٢ — شبه الشعور ، وهو بمثابة حجرة خارجية متصلة بالشعور ،  
ومن اليسير أن تتحول الخواطر شبه الشعورية إلى خواطر شعورية  
بإرادة التذكر ، أو بإثارة فكرة متصلة بها . وينقسم شبه الشعور  
قسمين : خواطر يمكن إدراكها دون مشقة كالذكريات القريبة العهد  
وما إليها ، وخواطر يتعسر إخراجها إلى حيز الشعور ، وهذا  
الضرب الأخير متصل باللاشعور ، وهذا هو سبب المشقة  
في إدراكها .

٣ — اللاشعور المحض ، وهو يشتمل على الآراء التي لا يمكن أن  
يخرج إلى حيز الشعور إلا بواسطة التحليل النفسى .  
ويظهر أن هناك عاملاً يمنع انتقال خاطرة ما من ناحية من هذه  
النواحي الثلاث إلى ناحية أخرى ، ويسمى فرويد هذا العامل  
« بالرقيب » Censor وهو يقف بين اللاشعور ، وشبه الشعور وبين  
شبه الشعور والشعور .

ولنترك الآن الشعور واللاشعور ونبحث في العقل من ناحية  
أخرى ، ناحية فعله وأثره لانهائية وصفه ومعرفة كنهه . في العقل  
طبقة بحقيقة ، تطابق اللاشعور على وجه الجملة . هذه الطبقة تشتمل  
على دوافع أولية وبواعث غريزية تريد الانطلاق وتضغط إلى الأمام  
كى تفرج عن نفسها وتشبع شهواتها ورغباتها . هذه الدوافع كثيراً



ما يعبر عنها بعبارة الشك فتقول «الظاهر أن ...» و«يبدو لي أن ...»  
ويطلق فرويد على هذه المنطقة الكلمة اللاتينية Id (أو مجموعة الدوافع  
الغريزية) هذه المجموعة هي منبع الطاقة العقلية التي تصدر عن الغرائز.  
وفي سنى الطفولة الأولى ينفصل جزء من هذه المجموعة عن بقيتها  
ويتصل بالعالم الخارجى . هذا الجانب المنفصل له وظيفة أساسية ،  
وهى تحديد العلاقة بين الفرد والعالم الخارجى بما فيه البيئة الإنسانية  
ويطلق على هذا الجانب اسم ego أو (الذات) وهذه «الذات» هى  
التي تعطينا الحس بالشخصية . ولا تتصل الذات كلها بالشعور - على  
خلاف ما قد يتوهم القارىء - وإنما يبقى جانب منها متصلاً بالشعور ،  
ولا يخرج إلى حيز الشعور مطلقاً . ومن منذ الطفولة تتجه «الذات»  
نحو نقد «مجموعة الدوافع الغريزية» فتقبل منها بعض رغباتها وتوافق  
عليها وترفض بعض الرغبات الأخرى وتعارضها . وهذه العملية  
الأخيرة تطابق «الكبت» . ولذا فالخواطر المكبوتة تبتعد عن  
الشعور وعن الذات فى آن واحد ، وعلى هذا فهذه الخواطر تكون  
جانباً من «مجموعة الدوافع الغريزية» وليس تردد المرء فى موقف ما  
إلاخلاف بين مجموعة الدوافع الغريزية وبين الذات . وفى الكثير  
الغالب يدرك المرء رغبة الذات ، ولكنه لا ينفذها ، فإن سألته  
السبب ألقىته جاهلاً به ، وذلك لأن رغبة المجموعة الغريزية لا شعورية .  
وكما أن جانباً من مجموعة الدوافع الغريزية يستقر فى أعماق النفس  
ولا يخرج إلى حيز التنفيذ ، بل يبقى مكبوتاً ، فكذلك ينفصل عن



الذات جزء منها ويتميز عنها ويسمى «الذات السامية» Super-ego وهي أشد اتصالاً بالمجموعة الغريزية منها بالذات . ووظيفتها أن تراقب العلاقة بين الاثنين ، وأن تكون بمثابة الحارس يحذر الذات من انطلاق الخواطر المكبوتة من المجموعة الغريزية . وهذه الوظيفة تطابق وظيفة « الرقيب » ، وهي قوة تعذبنا في اليقظة وعندما نكون على وعى تام بما يدور في أفئدتنا ، وكثير منا يحس بها في أحلامه ، وفي الحالة المتوسطة بين اليقظة والنوم ، وقد دلت التجربة على أنها شديدة التنبيه في حالة التنويم المغناطيسى . فمن المؤلف مثلاً لرجل يعلم أنه ينبغي له أن يبرح فراشه في ساعة معينة أن يحس بدفع الضمير فينهض على قدميه قبل أن يستيقظ من نومه تيقظاً يمكنه من النظر إلى ساعته ، أو التحقق مما يدور حوله ، ويقول مكذوَجَلٍ : إنك تحتاج إلى مجهود عنيف كي تحرض رجلاً أميناً متين الخلق - حتى حينما يكون تحت تأثير التنويم المغناطيسى - على أن يسرق أو يرتكب جرماً من الجرائم ، وذلك لأن مقاومة الضمير ( أو الذات السامية ) دائماً التنبيه ، وذلك على الرغم من أن الإنسان في الأمور التي لا تمس الخلق ينصاع انصياعاً تاماً لإرادة منومه . هذه القوة كثيراً ما تسبب للمرء نزاعاً دائماً بين نفسه ونفسه ، لأنها تبدأ على حرب شديدة مع الغرائز الدنيا . وليس في هذا الرأي جديد إذا طبقناه على المنازعات الخلقية التي يعلم بها المرء ، أو على ما تصادف كل يوم من جهد في أداء الواجب . ولكن ما يهدينا إليه



تحليل النفس هو أن هذه المنازعات التي نحس بها قليلة الأهمية إذا قورنت بالقتال الذي لا يفتقر ، والذي يستعر في اللاشعور فيستنفد فينا الحيوية ويسبب لنا العليل والنورستانيا . ومما يجدر بالذكر هنا أن ( الذات السامية ) تأتي إلى حيز الوجود نتيجة لأثر الوالدين في الطفل في السنوات الأولى من العمر ، وهي وإن لم تكن صورة من تعاليمهم وإرشادهم ، إلا أن كثيراً من قوتها يرجع إلى الرابطة العاطفية بين الطفل ووالديه .

والخلاصة أن هناك نواح أربع في العقل . —

١ — مجموعة الدوافع الغريزية الأولى .

٢ — الذات وهي جانب تم انفصاله عن المجموعة الغريزية .

٣ — الخواطر المكبوتة وهي جانب من المجموعة الغريزية انحدر

إلى أعماق النفس لتضارب بينه وبين الذات .

٤ — الذات السامية ، وقد تم انفصالها عن الذات .

ولما كانت شخصية المرء تنحصر في الذات وحدها شق عليه أن

يتصور الجوانب الأخرى من عقله .

ومما سبق يتبين لنا أن الخواطر المكبوتة هي الرغبات التي لا تتفق وقواعد الأخلاق ، وإن يكن هذا القول أبعد ما يكون عن الدقة في التعبير لأن هذه الخواطر لم تخرج إلى حيز العمل حتى تتعرض للحكم الخلقى ، ولذا فمن الخطأ أن نعطيها وصفاً معيناً ونعتبرها خلقية أو غير خلقية ، لأن الإحساس بالخطأ والصواب لم يتعلق بها . وهذه



الخواطر في طبيعتها إما جنسية أو عدائية ( كحب القسوة والاعتداء على الآخرين ) ، والكثرة المطلقة من الخواطر العدائية جنسية في نشأتها ولكنها لم تتجه وجهتها الصحيحة ، فنستطيع إذن أن نقول إن الخواطر المكبوتة جنسية كلها في طبيعتها وفي نشأتها . هذه الخواطر المكبوتة إذن غير خلقية - إن صح هذا التعبير . ويقابلها من الناحية الأخرى الذات السامية فهي الجانب الخالق في النفس الإنسانية ، وهي قوية في الأطفال قوة كثيراً ما تجعل إحساسهم الخلق أشد مما ينبغي ، فكثير من الأطلاق لا يفرق بين الزلات الهينة والآثام الخطيرة ؛ وواجب المرء أن يتلافى هذا الخطر ، وإلا نشأ الطفل وهو يحرم على نفسه الكثير مما يحل أدائه ويجوز عمله ، ثم يشتد به هذا الإحساس حتى يبلغ الهستيريا أو النورستانيا .

والعمليات شبه الشعورية لا تختلف عادة عن العمليات الشعورية في شيء غير أنها تخرج عن دائرة الوعي . وأما العمليات اللاشعورية فلها عدة صفات تميزها عن الشعورية وتناقضها في كثير من الوجوه وقد أشرنا إلى بعض هذه الصفات من قبل كصلتها القوية بالغرائز وبحياة الطفولة ، وظهور الغريزة الجنسية فيها بشكل قوى . وهناك فوق ذلك مميزات كثيرة أخرى . منها خلو اللاشعور من فكرة الزمن وفكرة النفي ، فهو غير محدود في الوقت ولا يعرف كلمة ولا ، ومنها أن الآراء التي يحتويها ما هي إلا صور لأشياء وأعمال لم يعبر عنها بالكلام ، لأن الألفاظ تنحصر في العمليات الشعورية وشبه الشعورية ،



ومنها أن الطاقة التي تحتويها هذه الآراء دائبة الحركة ويمكن انتقالها من جهة إلى أخرى بطريقة لا تعرفها الحياة الشعورية ، ومنها أن اللاشعور يخضع لمبدأ اللذة والألم وهو المعيار الوحيد لتوجيه رغباته ، فهو يندفع دائماً نحو اللذيد ويتعد عن الألم ، وهو مبدأ لا يتفق والحقيقة ، فاللذيد قد لا يكون نافعاً كما كثرة الأكل مثلاً ، والألم قد يكون مفيداً كالدواء . ومن المميزات الأخرى للاشعور أن طبيعته نزوعية . ولناخذ مثلاً مما يقع كل يوم نوضح به هذه الصفة الأخيرة . هب أنك شرعت في كتابة خطاب ، وفي أثناء الكتابة فرغ المداد من القلم ، فإنك حين تدرك ذلك تشعر بشيء من المضايقة ، فتبحث عن الدواة ، فإن لم تجدها اشتد بك الضيق ، وإن وجدتتها هدأت تأثرتك وخف غضبك وملاّت القلم بالمداد وعاودت الكتابة . في هذا المثال تلمح مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك والوجدان والنزوع . فإنك بعد ما أدركت فراغ القلم من المداد ، أحسست بشيء من ضيق النفس ، ثم نزعت إلى عمل ما ، وذلك هو البحث عن المداد . ولما يجب أن نذكر أن النزوع لم يكن في تحريك أعضاء الجسم نحو البحث عن الدواة ، وإنما هو دافع من داخل النفس إلى خارج ، هو النشاط العقلي الذي يوجه الحركة . بل النزوع كثيراً ما يحدث حينما يكون النشاط الجثماني على أقله ، كالمريض يجب أن ينهض من الفراش ولا يستطيع ، فإن ذهنه في نشاط رغم فتور جسمه وسكونه ، وكالمفكر ينشط تفكيره وهو مستلق على الفراش أو جالس إلى مكتبه . النزوع



موجود في الحياة العقلية جميعاً ، والحديث نفسه عن الرغبات النفسية نوع من النزوع ، وتحليل النفس لا يهتم إلا بهذا الجانب من جوانب الشعور .

ويهتم تحليل النفس كذلك بالميوول الإنسانية . ولنضرب لذلك مثلاً . هب أن شخصاً قد أساء إلى في الماضي ، فإنني كلما أرى هذا الشخص أو أسمع صوته أو أفكر فيه أحس بالكراهية والعداوة له . ولكن هناك - لاشك - فترات من حياتي أنساه فيها كل النسيان ، ومع ذلك ، ففي هذه الفترات عينيها يصح أن يقال عني إنني أكرهه أو بعبارة أخرى إن كراهيتي له جزء من شخصيتي وترجع إلى تجاربي الماضية التي تحدد مشاعري دون وعي مني ، ولذا فهي تختلف عن غيرها من ضروب النشاط العقلي إذ أني لا أعرضها دائماً للتأمل والبحث . وهذا الإحساس هو ما يعرف بالميل . وتجب التفرقة بين إحساسات الكراهية التي أشعر بها بين الحين والآخر نحو الشخص الذي أساء إلى ، وهي إحساسات عقلية تمر بالخطاير ثم تترك المجال لغيرها ، وبين الميل الدائم لكراهية هذا الشخص ، الذي قد أعياه وقد لا أعياه .

والميوول إما طبيعية أو مكتسبة ، فالميل الذي أشرنا إليه فيما سبق مكتسب ، وهو نتيجة للتجارب الماضية . ولكن هناك من الميوول ما هو طبيعي يشترك فيه الناس جميعاً كميلنا إلى متابعة الأجسام المتحركة ، فهو ميل إنساني عام يشترك فيه الصغار والكبار على السواء .



وتكون الميول جانباً هاماً من اللا شعور ؛ ومن الميول ما لا يقربها صاحبها كالشره والزهو والقسوة والخوف من المخاطر الشخصية وجميع الغرائز التي يخجل منها الإنسان المتمدن. وكما يحتوي اللا شعور على الميول ، يحتوي كذلك على التجارب السالفة ، فإن كل ما نعمل على وعي منا ليس إلا نتيجة لعدة بواعث صادرة عن اللا شعور . يستيقظ الواحد منا فيغتسل ويرتدي ملبسه ويتناول طعام الإفطار ويخرج إلى العمل ، وإذا ما أمسى الليل تأهب للنوم ، وهو بكل ذلك شاعر ، وهو يكاد يؤديه راغماً - رضى أو لم يرض - وذلك لأن الباعث اللا شعورى الباطنى جده شديد ، فنحن لا نناقش أنفسنا لماذا نقوم بهذا العمل أو ذاك ، فالأعمال الشعورية جميعاً تستند إلى دوافع لاشعورية . إنا نقرأ ونكتب على وعي منا ، ولكن الطريقة المعقدة التي تؤدي بها القراءة والكتابة اندست منذ سنوات عدة في اللا شعور ، ولو لا ذلك ما استطعنا الإنشاء ، ويؤيد ذلك أنك إن حاولت أن تنشئ رسالة وتكتبها على الآلة الكاتبة في آن واحد - وأنت تجهل الكتابة على هذه الآلة - تعسر عليك ذلك ، لأن تفكيرك الشعورى بأجمعه يتجه نحو البحث عن مواضع الأحرف على الآلة ونحو عملية الكتابة نفسها ، ولذا فإنشاء الرسالة في هذه الحالة متعسر مستحيل . وفي حياة التلميذ مرحلة يستطيع فيها أن يفكر ، ويستطيع فيها كذلك أن يكتب ، ولكنه لا يستطيع أداء العاملين معاً كما يفعل الكبار المدربون ، لأن مشقة الكتابة تستنفد



عقله الواعي فيتعسر عليه التفكير . فالاشعور إذن يؤثر في كل عمل  
تؤديه ونحن في حالة الوعي .

إن ما يحتويه العقل الباطن كثير مهم ، يحار حتى كبار علماء النفس  
في تعريفه ؛ هو مجاهل غير مكشوفة لم نصل إلى أغوارها ولم نعرف  
منها إلا أطرافها . ويرى بعض الباحثين أنها تشتمل على ناحيتين  
مختلفتين كل المخالفة ، وتانك هما ما دون الشعور ، حيث تنشأ  
البواعث الدنيا والحيوية جميعا ، وما فوق الشعور ، وهو منبع المطامح  
والدوافع العليا ، ولكن هذه التقسمة لم يعترف بها بعد كثرة الكتاب .  
ونستطيع أن نقول إن الاشعور يشتمل على التجارب الماضية  
التي قد نطن أن النسيان أصابها جميعا ، ويشتمل كذلك على الدور  
الأولى لجميع العادات العقلية والجهتية ، كما يشتمل على أسباب الخوف  
الغريزي ، وعلى ما نحب وما نكره بالغريزة . ولنضرب لذلك مثلا من  
الحياة اليومية : رجل يكره قرع النواقيس ولا يعرف لهذه الكراهية  
سببا ، وإنما ليتجنبها ما وسعه التجنب فيبوء بالعجز والفشل . ما علة  
ذلك ؟ هذا الرجل إن أعنت الذاكرة قد يجد في عقله الباطن خاطرة  
دقيقة تتعلق بهذا الموضوع ، فمن المحتمل مثلا أنه عثر في طفولته  
بناقوس ، فحمله ودقه ، وصعق لمسمع صوته أول الأمر ، فسقط على  
أثر ذلك وأصابه الضرر ؛ أو ربما نهرته أمه وعنفته على فعلته حينما  
رأته ، فارتعب وارتاع . أو لعله قصد منزلا فأخطأه ودق جرس  
باب غير الذي أراد ففجّل من خطئه ، وربما نسي هذا الحادث بعد



حين ، لأن المرء من عادته أن ينسى ما لا يسره ، ولكن كراهية  
للنواقيس غامضة بقيت في عقله . خذ مثالا آخر : فتاة شابة  
كلما سمعت طائراً يرفرف بجناحيه تملكها خوف غرزي ونكوص  
شديد . لا مشاحة في أن السبب في ذلك يرجع إلى حادث وقع لها  
أيام طفولتها ثم تطوح في هوة النسيان ، فربما هجم عليها طائر كبير  
الحجم غاضب ثائر ؛ وربما عضتها أوزة في قدمها أو ما شابه ذلك .  
أمثال هذه الأهواء التي نحس بها ولا نعرف لها باعثا كثير مألوف ؛  
وكثيراً ما ينسى السبب الأول نسياناً تاماً . وقد يستطيع المرء في قليل  
من الأحيان أن يتذكر بشيء من إجهاد الذاكرة ما وقع له في طفولته  
فينكشف له ما أغلق عليه .



## الطاقة الغريزية

عرفنا مما سبق أن الغريزة الجنسية - في رأى فرويد - هي العامل الأول في نفسية الإنسان ؛ وقد كان بوسع فرويد أن يكسب كثيراً من الأتباع لو أنه ساق نظرياته في أسلوب لا يسيء به إلى تقاليد الجمهور ومشاعره ؛ ولكنه آثر الصراحة ولم يفعل ذلك . فهو مثلاً يقول إن الطفل الذكر « يحب أمه » و « يغار » من أبيه ؛ فيمكن القارىء يفهم هذا التعبير على ظاهره ويصم فرويد بالثورة على النظم الاجتماعية ، ولو أن فرويد قال إن الطفل يريد من أمه كل عنايتها ويكره كل من يشاركه في هذه العناية لظفر بتأييد كل من له دراية بشئون الأطفال . ذكر فرويد مرة أنه عثر بطفل صغير يريد أن « يقتل » أباه كي تخلص له أمه بحبها ؛ فثار كثير من القراء ؛ ونسوا أن كل طفل في ثورة الغضب قد يصيح في وجه أمه أو مربيته ويهددها بالقتل ؛ وهو لا يفهم من القتل مانعاً ؛ وإنما يقصد به « التخلص » من أمه . هذه الآراء وأمثالها أثارت الجماهير على فرويد ؛ وظن الناس أنه يقصد بحب الأم نوعاً دنيماً من العلاقة الجنسية ؛ وبقتل الأب إزهاق حياته فانصرفوا عنه وأعرضوا عن نظرياته .

أجل إن الحوادث التي يذكرها فرويد ملأى بالرديلة والشر والخروج على المؤلف ؛ وقد يرجع السبب في ذلك إلى أنه - كطبيب



للأمراض العقلية - قد شاهد كثيراً من السفلة والمنحطين ، وبني نظرياته عن نفسية الإنسان على دراسته لأمثال هؤلاء ، وحاول أن يتتبع الشواذ في ماضيهم على يصل إلى منشأ الشذوذ ؛ وهداه البحث - كما ذكرنا من قبل - إلى أن السبب في غالب الأحيان جنسى محض ؛ وأن الغريزة الجنسية تظهر عند الأطفال بحالة بدائية .

ثم جاء آدلر وخالف فرويد في رأيه ، وقال إن الدافع الأول للإنسان هو حب السيطرة ؛ وتبعهما يونج وحاول أن يوفق بين النظريتين السالفتين ، وأن يجمع الغرائز كلها - جنسية وغير جنسية - في طاقة واحدة أسماها « الطاقة الحيوية » ، أو Libido وقد استعار هذا التعبير من فرويد نفسه ، إذ كان فرويد يقصد بالطاقة الحيوية الحرمان الجنسي ، أو الجانب العقلي للغريزة الجنسية ؛ ولكن يونج توسع في معنى التعبير وأطلقه على الطاقة الحيوية بأسرها ، أو الدافع الحيوى ، أو التيار الذى تنساب فيه الأفكار والرغبات والميول جميعاً . وأخذ أتباع فرويد وآدلر ويونج يبذلون مجهوداً كبيراً فى المناقشة والجدل ، كل منهم يتعصب لأستاذه ، ولكن الأيام أظهرت لنا فيما بعد أن ثلاثهم كانوا على صواب ، وأن كلامهم كان ينظر إلى الحقيقة من ناحية خاصة . ونحن نميل إلى الأخذ برأى يونج ، وإن يكن من المعارضين أمثال مكدوجل من لا ينظر إلى الغرائز كلها على أنها طاقة واحدة ، وإنما يفصل كل واحدة عن الأخرى ؛ ورأى يونج أقرب ما يكون إلى النظرية القديمة فى النفس ؛ وهى أن الحيوية جميعها لدى



الحيوان والنبات - بل ولدى المعادن - تنبع من أصل واحد ، فمنحن نرى النبات يشق طريقه وسط الصخور ، ويلتوى على صور متنوعه كي يحتفظ بالبقاء ؛ وكذلك الحيوان والإنسان يأتون بالمعجزات ويعيشون في ظروف قاسية ويألمون جسما وروحا في سبيل البقاء . وأيا كانت طبيعة هذه القوة العجيبة التي تكسب الدنيا الحياة ، فإننا نستطيع على الأقل أن نفرض أن لديها إرادة المشاورة على صورة ما . هذه الصور حينما تظهر في الفرد نسميها « الطاقة الحيوية » وهذا التعريف للطاقة الحيوية يشبه ما يسميه المسيحيون « بالروح القدس » .  
ولكي نوضح للقارى هذه القوة نشبهها له بتيار نسميه تيار الحياة . هذا التيار يتدفق إلى خارج النفس أى أن الطاقة الحيوية تسعى غزيباً إلى التعبير عن نفسها في العالم الذي يحيط بها . والتعبير عن النفس ناموس أولى - وهو الناموس الذي يخرج الفرد بمقتضاه من البيضة ، والطفل من رحم أمه . وهكذا الحال في تيار الحياة ، الذي يزداد قوة وحجماً كلما تدفق من منبعه الخفي . فإن تدفق دون اعتراض خطير جرى في قناتين تمثل إحداهما الرغبة في السيطرة والنفوذ على العالم الخارجى ، وتمثل ثانيتهما الرغبة في الاحتفاظ بالجنس والتناسل . والأولى إرادة القوة عند آدلر ، والأخرى هى الغريزة الجنسية عند فرويد .

ولكن يظهر أن هاتين القناتين ليستا منفصلتين تمام الانفصال وليستا متشعبتين . ونستطيع أن نصور التيار ، وكأن جزيرة ما تقسمه



تقسماً مؤقتاً إلى قسمين ، ثم تتحد المياه جميعاً بعد ذلك . وقد تبدو  
 رغبة السيطرة لفترة ما وكأن لا علاقة لها بالغريزة الجنسية ،  
 فالفنان الذي يرسم الصورة ، والموسيقى الذى يضرب على القيثارة ،  
 والتاجر الذى يدير متجرأ كبيراً ، يجدون جميعاً منفذاً لحب القوة ،  
 وليس فى عملهم علاقة واضحة بالغريزة الجنسية . ولكننا إن دققنا  
 فى البحث رأينا أن فى إخراج الصورة أو القطعة الموسيقية أو إدارة  
 المتجر إشباعاً قوياً لحب الخلق والإنشاء الكامن عن كل إنسان ، فإن  
 أعمال الإنسان هى أطفاله التى تحيا من بعده ، ولذا فإننا نجد حب  
 السيطرة مختلطاً اختلاطاً عويصاً بالدافع الغريزى للتناسل ، وكلما درسنا  
 عمل هاتين الغريزتين الأوليتين ازددنا اقتناعاً أن ليس هناك حد  
 فاصل بينهما . والشكل الآتى يوضح ما نقول بعض التوضيح :

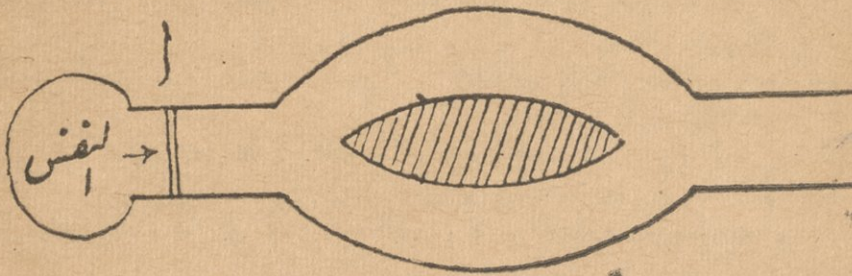


شكل ١ : التيار النفسى للطاقة الحيوية

هذا الشكل يبين لنا مجرى الطاقة الحيوية حين تتدفق حياة المرء  
 فى يسر دون اعتراض ، ولكن هذ التيار الطبيعى كثيراً ما يتوقف  
 عن التدفق أو تقف فى سبيله العقاقيل ، وهذه العقاقيل هى بمثابة



السد في مجرى النهر ، وقد يعترض التيار الدافق سد عند منبعه ، كما  
في الشكل الثاني :



شكل ٢ : السد عند المنبع

ويحدث ذلك حينما تكون الظروف الخارجية كرهبة إلى حد  
يرد التيار الجارى إلى النفس ثانية . فرغبات الطفل مثلاً حينما  
تنصرف نحو ما يحيط به - كأمه وأبيه ، وإخوته ورفاقه ، بل والدينا  
بأسرها - قد تصطدم بالحوازر الشديدة ، فلا يشبع الطفل رغباته  
في العالم الخارجى فيعود إلى نفسه ، يعود إلى عالم من الأوهام (١) ،

(١) « الوهم » Fantasy اصطلاح كثير الورد في علم النفس  
التحليلي ، ومعناة الفنى حلم اليقظة ، الذى تجد فيه الرغبات التى لم  
تتحقق فى عالم الواقع إشباعاً فى عالم الخيال . وعالم الوهم نقيض عالم  
الحقيقة ، والعقل المتزن السليم يدرك أن الوهم وهم ، ويحاول إما أن  
يحوله إلى حقيقة أو يستعمله كلهو لا ضرر منه . ولكن أكثر الناس  
يفشلون فى تمييز الوهم عن الحقيقة وفى علاجه ؛ وإن من بين أولئك  
الذين اختل توازن عقولهم من لا يفرق بين الحلم وحقائق اليقظة .



== والطفل الذي يتخيل نفسه بطلا من أبطال التاريخ أو فارساً من الفرسان ، إنما يعوض في أحلام اليقظة ما يفقده بسبب قيود الطفولة وعوائقها . وكما منا في هذا العصر - عصر التزاحم والضجيج والتبعات الجسم - من يلتبس التعويض عما يقصر عن نيته في غياهب الخيال . وأمثلة هذه الأوهام عند الشخص العادي لهو لا يضر ، ولكنها قد توحى في أذهان النوابغ بأعمال فنية خيالية عظيمة . أما نحن وأطفالنا فلا ننظر إليها نظرة الواصل فيها . والوهم إذا تحدد الغرض منه وقصد به إلى إدراك هدف بعينه هو أقيم ما يمتلكه الطفل أو الشاب . ويحدثنا التاريخ عن كثير من أبطاله الذين كانوا يحملون بالزعامة ثم نالوها ، وحياته « كليف » Clive وكولمبس Columbus مثال لذلك . ولكن المطامح الغامضة كأن تقول مثلاً : « لا بد أن أعمل عملاً عظيماً في يوم من الأيام » تولد عادة القناعة بالأحلام الجامحة وهي أكبر العقبات في سبيل التحقيق .

ودراسة الخرافات الشعبية من هذه الناحية - ناحية الوهم - فرع جديد من البحث له لذة فائقة ، ويبين اتجاهات الأمم وأطباعها ، فإن في الأفاصيص الشعبية للأمم ما يشبه أحلام الأطفال في التفوق على الكبار ، لأن الأمة الفتية كالفرديت تحس بالنقص وتلتمس التعويض عنه في الخيال .

وفي الامثلة السائرة بين الشعب المصري مثلاً أن مصر « أم الدنيا » وأن ليس هناك أعذب من ماء النيل ، وهذه وأمثالها ضروب من الوهم ، نعوض بها أسباب تخلفنا عن الأمم الغربية التي سبقتنا في مضمار المدنية . ولكننا إن تأبرنا على تحقيق هذه الأحلام جنينا منها خير الثمار .



أو قل بتعبير آخر أن طاقته الحيوية تصبح « فردية (١) » ، أو تنقلب إلى الداخل ، وإذا ما أدرك أن مواضع حبه وشهوته في العالم الخارجي لا تفي بحاجة نفسه ، فإن حبا كئيباً لذاته ، واهتماماً بشأن نفسه يحل

(١) « الفردى » Introvert ( ويقابله « الاجتماعي » Extravert ) هو ذلك الذي تنصرف طاقته الحيوية إلى دخيلة نفسه ، على نقيض « الاجتماعي » وهو من تنصرف طاقته الحيوية خارجاً عنه .

الاجتماعى يخرج إلى العالم ويستمتع باتصاله بغيره ويتبعده عن العزلة والتأمل ، أما « الفردى » فيبتعد ويتجنب بغيريته الاتصال بالعالم الخارجى ، وهو كمتوم لا يختلط بالناس ، قانع بنفسه . الاجتماعى عامة كثير الحركة ، كثير التودد ، شديد التطلع والتدخل ، أما الفردى فيفر من الناس ويحب أن يسير وحيداً ، وأن يجلس وحيداً ويسترسل فى التأمل . ولكن هذه التفرقة ليست حاسمة فاصلة ، فالإنسان الفردى لا يتحتم أن يكون أنانياً منغمساً فى نفسه ، كما لا يتحتم أن يكون الاجتماعى محباً لغيره ودوداً ، يميل إلى خدمة الآخرين . الاجتماعى يوجه انتباهه إلى العالم الخارجى ، فالناس والأشياء لها فى نظره معنى كبير ، وهو لا يحب أن يبدل ماتعود ، وإذا شق عليه يوماً أن يلقى أفراد أسرته أو زملائه أو من ألف من الناس امتلاً هما وغماً ، وهو يخشى أن يهاجمه اللصوص ، أو يصيب أهله أذى ؛ يحب الحركة ولا يميل إلى السكون ؛ يرى هدفه فى الحياة واضحاً ، ولا يأبه بمصلحة الآخرين إن كانت تقف فى سبيله . وإن =



محلها ، وتنمو شخصيته نمواً غير عادي على حب النفس والاهتمام بها .  
وأن كان السد الذي يعترض التيار كامل البناء ، حتى أن الطاقة كلها  
تنقلب إلى دخيلة النفس وتصرف إلى الأوهام ، أصيب الفرد  
بالجنون ، وعاش في حلم بعيد عن العالم لا يمكن الوصول إليه ، وقد  
يتوهم أنه من أصحاب الملايين أو ملك أو زعيم ، وينقلب هذا الوهم  
في ذهنه حقيقة .

== فرداً واحداً اجتماعياً في أسرة ما ليملاً البيت نشاطاً مادياً وروحياً ،  
حتى يكاد يتوارى كل من سواه ولا يكون له وجود . ومع ذلك فإن  
اهتمامه بشئون الآخرين ، وقدرته على مشاطرة غيره الوجدان ، قد  
تشتد لديه حتى يجتذب كثيراً من الأصدقاء والاتباع ، وقد يبرع  
نخطيب سياسي ، أو ممثل أو طبيب أو معلم ، أو رئيس منظم أو خادم  
للجمهور ، ولكنه لن يكون مفكراً عظيماً أو كاتباً كبيراً .  
أما الفرد في العالم الخارجي ليس له في نظره معنى كبير ، وهو لا يأبه  
له ، وكثيراً ما يحب أن يخلو إلى نفسه ، وقد يستطيع أن يعيش في  
حجرة كئيبة سيئة التنسيق دون أن يلحظ ما بها من عيوب ، بل وقد  
لا يتنبه لما يحوطه من أسباب الزينة والجمال . وهو على نقيض الاجتماعي  
لا يتمسك بالخوف على أهله وذويه ؛ لا يفكر كثيراً في أصدقائه  
وزملائه ، يطمئن عليهم في حضرتهم وفي غيبتهم ؛ واشد ما يخشاه  
- رغم أنه قلباً يحس بذلك - أنه قد تنقطع به الصلة عن عالم الحقيقة  
وعن العالم الخارجي . وقد يتمسك وهم غامض أنه ربما جن وخفي  
جنونه على غيره ؛ يخشى أن يلتقي بالغريب ، ولكنه يخشى كذلك ==



ولكن تيار الطاقة الحيوية في معظم الأحيان لا يتوقف كله عن التدفق ، وإنما يقف السد دون بعضه وحسب ، فتتدفق كمية كافية ، ويتمكن الفرد من العيش عيشة مرضية ولو إلى حد . نعم إنه قد يكتسب قليلاً ، أو لا يبالي ، أو يشرذ ذهنه ، أو يمتلي جسمه بالأمراض ، أو يصبح عصبياً ، أو تفتابه المخاوف ، ولكنه - مع ذلك - يستطيع أن يحيا بين الناس . وهذا النزاع الأولى بين إرادة

---

== إن لم يستطع أن يتغلب على هذه العزلة - أن يبني ولا صديق له ، أو أن يمسه الجنون . وقد يرى في أحلامه المزججة ( الكابوس ) أنه يتسلق درجا عالياً ، وكلما صعد إلى أعلى هوت من تحته الدرجات ، حتى إذا ما بلغ القمة ألقي الدرجة الأخيرة معلقة في الفضاء . وقد يرى أنه يقطن غرفة عليا ، وأن السلم الذي يصعد عليه قديم مهدم ، وقد يتحطم إن حاول الهبوط . هذه الأحلام وأمثالها تشير إلى خوفه اللاشعوري من الانفصال عن العالم الخارجي يوماً ما انفصالاً تاماً . وتراه شديد النقد لنفسه ، متردد في عمله لأنه لا يثق في أحكامه الشخصية ، يرعى شعور غيره إلى حد كبير ، إذ ينفذ ببصيرته إلى ما يشكون ، لأنه يرى في خياله كيف يقع عمله على نفوس الآخرين ؛ يجب التنقل من جهة إلى أخرى ، ومن وظيفة إلى أخرى ، لأنه يرى في ذلك حافزاً له على الاهتمام بالعالم الخارجي . ومن أمثال هذا الرجل ينشأ الكاتب والمفكر والباحث والمتدين المتحمس ومن إليهم .

والتطرف في شعور الفردى والاجتماعى شديد الخطر ، ولكن غريزة البقاء بطبيعتها تدفع المرء إلى الاتزان والأخذ من كل منهما .....



الحياة والخوف من مشقاتها ومتاعها قائم بنفوسنا جميعاً لدرجة ما ،  
وجانب هام من عمل الطبيب النفسى ، ينحصر فى تحطيم العوائق  
وإطلاق طاقة المريض . ويرمى الطبيب إلى إخراج هذه المخاوف  
- وهى فى الغالب كلها وهمية لا أساس لها - إلى حيز الشعور ، لأن  
حدثها تنظم حين يواجهها المرء بوعيه وشعوره .

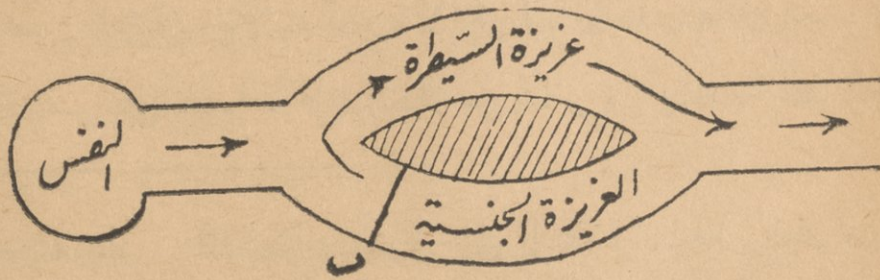
ولو فرضنا أن السد (١) فى الشكل الثانى قد أزيل ، فإن قدرأ  
كافياً من الطاقة الحيوية ينطلق ، ويتدفق تياره فى شعبتين تتحدان  
فيما بعد كما يظهر فى الشكل الأول . ولكن هناك فى عصرنا الحاضر  
- عصر المدنية - حالات كثيرة لا يمكن فيها لإحدى هاتين الغريزتين  
أن تنفس عن نفسها . فإن قليلاً من الناس من يسعده الحظ فيجد

---

— بمقدار . فالاجتماعى يتوق إلى الدعة والراحة والقدرة على  
الاستمتاع بالعزلة بعيداً عن العالم الخارجى؛ بينما ترى الفردى يسعى إلى  
تلمس الأسباب والوسائل لاختلاطه بغيره من الناس . والرجل العادى  
كثيراً ما يفلح فى الوصول إلى بغيته والتمتع بشيء من التوازن . وعلى  
ذلك فإنك قد تجد طفلاً فردياً محضاً أو جمعياً محضاً ، ولكن التربية  
والتعليم وكر السنين والأيام تهذب الفرد وتقل الكثير من تطرفه  
فى هذه الناحية أو فى تلك ، وإذا فشل المرء فى إيجاد هذا التوازن أصيب  
بخلل عصبي قد يصل إلى حد الجنون ، ولكنه فى كثير من الأحيان  
لا يعدو أن يكون شذوذاً عقلياً ، أو مرضاً جثمانياً . كما أنه كثيراً  
ما ينتهى إلى عجز شديد فى ناحية من نواحي الحياة .



منفذاً كافياً لبسط نفوذه وسلطانه ومخرجا كافياً لغريزته الجنسية .  
والكثرة الغالبة من الناس تحيا حياتها كما في الشكين الثالث والرابع ،  
أى أن القناة الجنسية تنسد فتتدفق الطاقة الحيوية فى قناة السيطرة ،  
أوقد يحدث العكس ، وبعبارة أخرى كثيراً ما يشاهد الطبيب النفسى  
حالات تسود فيها إرادة القوة حتى تصبح عاملاً هداماً ، كما يصادف  
حالات أخرى نمت فيها الغريزة الجنسية نمواً كبيراً حتى باتت خطراً  
عظيماً على الفرد وعلى المجتمع .



شكل ٣ : سد التيار الجنى



شكل ٤ : سد تيار السيطرة



وهذا يؤدي بنا إلى نتيجة حتمية ، وهي أن التحرر من الخوف ،  
وأن تصريف الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة تصريفاً متزاناً ،  
ضرورة لا مناص منها إن كان لا بد للإنسان أن يتطور تطوراً صحيحاً  
طبيعياً . ويتوقف التصريف الطبيعي لهاتين الغريزتين على ظروف  
المجتمع وضروب المدنية . وإني أرى أن الحياة الجنسية في مصر  
مضطربة غاية الاضطراب ، وأعزو الكثير من الفشل في الحياة  
العملية إلى ذلك . ولعلنا إن استطعنا أن نتوسع في تعليم البنات -  
وبخاصة في المرحلة الجامعية - وجدنا من اختلاط الجنسيين في معاهد  
التعليم العليا ما يزيل شيئاً من الغموض الذي يقوم بأذهان الأطفال  
عن الجنس الآخر ، ولقد بدأت الفتاة المصرية تخرج إلى المجتمع ،  
فإن سرنا في هذه الطريق - مع المحافظة على قواعد الأخلاق العامة -  
استطعنا أن نزيل كثيراً مما يشغل أذهان الشباب . كما أن هناك ظاهرة  
خطرة أحب أن أشير إليها في هذا الفصل ، وهي أن شبابنا المتعلم  
إما يؤجل سن الزواج أو لا يتزوج البتة ، فيزيد بذلك من قوة  
الرغبة المكبوتة مما يؤدي إلى سرعة الغضب والقلق في كل عمل يقوم  
به ، ولذا فالزواج المبكر من دواعي الطمأنينة واستقرار النفس .  
وليس الإنسان المتمدن خيراً حالاً من أخيه الهمجي ، فللإنسان  
الأول من أسباب التصريف والسكبت ما لنا نحن أبناء المدنية ، وإن  
يكن بصورة أخرى . فنحن مثلاً - من حيث غريزة السيطرة - نظفر  
بالنفوذ عن طريق جمع الثروة وفصل الطبقات والقوة البدنية وتثقيف العقل



وليس هناك فارق جوهرى بيننا فى ذلك وبين الرجل الهمجى إذ يجمع الأبقار ، ويمارس الصيد بدلا من الألعاب الرياضية المنظمة ، ويدل على علمه بخبرته فى السحر والكهانة . وأما فيما يتعلق بالتنفيس عن الغريزة الجنسية فالإنسان البدائى خير من الرجل المتمدن ، إذ أن الحرية والاستهتار الجنسى أشد لديه مما نشاهده فى أية جماعة متحضرة ، وترتب على ذلك انعدام الأمراض العصبية والهستريا عنده ، وقد أثبت ذلك مالىنوسكى بالبحوث التى قام بها بين أهل ميلنيزيا ، إذ شاهد أن الأمراض العصبية تكثر حيث القيود الجنسية ، وتنعدم حيث الحرية الجنسية .

وقد يبدو عجيباً للقارىء أن شيئا من الحرية الجنسية ينتج مجتمعا صحيحا ، وأن القيود الجنسية تخرج مجتمعا كئيبا ، ولكننا لو ألقينا نظرة على المجتمع المصرى والمجتمع الأنجليزى مثلا ، ألقينا فارقا كبيرا بين الاثنين ، فالأول قليل الإنتاج - ورغم ما يبدو عليه من الرزانة والجد - والثانى وفير الإنتاج رغم لهوه ومرحه .

ولعل هذا هو السبب فى أن الشرق يكاد يتفرد بالبحوث الروحانية العميقة ، بينما يشتغل علماء الغرب بالعلوم المادية العملية . ولكننا إذ نوصى بشيء من الحرية الجنسية لا نرمى إلى الإباحية ، وإنما نرمى إلى تنظيم العلاقات بين الجنسين تنظيما لا يخرج عن حدود والأخلاق الدين . والدين الإسلامى - كما نعلم - ييسر هذه العلاقات تيسيرا قد لا يتوفر فى أية شريعة أخرى . ونحن - مع هذا - ننصح



بشيء من ضبط النفس لا أسباب سببها فيما بعد :

ولا شك أن الإنسان الذي يعيش وسط المدنية الحديثة أشد تعقيداً في نفسيته من زميله الهمجي ، ولكن الدوافع الأساسية واحدة لا تتغير عند هذا أو ذاك . فإن إرادة الحياة ، أو كما يقال عنها أحياناً غريزة حفظ الذات ، قوية فينا قوتها لدى الإنسان الهمجي ؛ وهي غريزة لا يستطيع الإنسان المتمدن - مهما يكن - أن يعض الطرف عنها . أجل إنك قد تسأل الوالد ( أو الأم ) عن شدة هذه الغريزة عنده فينكر أنه أحفظ لنفسه منه لأبنائه ؛ ولكن تجارب العلماء دلت على أنه إذا أهدق الخطر اندفع الأب تلقائياً إلى نجاة نفسه أولاً ثم أبنائه ثانياً . وثبت بالبحث الدقيق أن التضحية بالنفس تأتي في المرتبة الثانية بعد غريزة حفظ الذات ، وإنها وليدة التفكير وليست عملاً يقوم به الإنسان تلقائياً دون جهد .

ومعنى إرادة الحياة أوسع مدى من معنى تلك الغريزة التي تحفزنا إلى الهرب من الخطر المفاجيء ؛ فإن مسألة توفير الطعام والمأوى ، وخشية الألم ، كل ذلك مرتبط بها . والمشكلة التي ينبغي للشعوب المتمدنة أن تواجهها هي ضرورة السيطرة على هذه الغرائز بأكثر مما يستطيع الإنسان الهمجي . وإن كان الرجل البدائي يخشى الكهانة والعرافة والسحر فنحن نخشى مشقة كسب الرزق ، وعدم الاطمئنان على مواصلة العمل ، والمضاربة في التجارة والصناعة ، ونكاد لا نحتمل مواجهتها بالشجاعة والإقدام . أجل إن العلوم كلها تقدمت ازدادنا



بتقدمها قوة ، ولكننا نزداد خوفاً كذلك ، فإن ما نعلم عن الأمراض  
وما نتوهم أننا نعلمه عن أسبابها - كالوراثة والعدوى - تضاعف من  
مخاوف الحياة عند الكثير منا وهي مخاوف ينعم الهمجي في جهله بها .  
وذو العلم يشقى في النعيم بعلمه وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم  
ولكن هل لهذه المخاوف التي لا نستطيع أن نقاومها علاج ما ؟  
لعل من اليسير أن تجيب على هذا السؤال بقولك « إننا يجب أن  
نطردنا من الأذهان ، لأنها كثيفة غير سارة ، ونحن نفخر إذا أصبنا  
في ذلك نجاحاً ؛ ولكننا لا ندرى إننا إذ نتحدث عن طرد الفكرة من  
الذهن لا نعدو مجرد القول ، والحقيقة إننا إن عرفنا شيئاً ما تعسر  
علينا أن ننفي معرفته بعد ذلك ؛ فما مصير هذا الشيء إذن إذا  
نحن أيدنا أن نفكر فيه ؟ إننا حين نطرده من الشعور يتسرب إلى  
اللاشعور ويصبح جزءاً منه ، وهناك يقيم حرباً ينجم عنها كثير من  
المتاعب العصبية ما دامت مشتعلة . فإذا حمى وطيس هذه الحرب  
تقدم العقل الباطن بحل ما ، وهذا الحل إما لا يقوم ألبتة على العقل ،  
وإما أن يكون تخلصاً مؤقتاً وحسب ؛ وقد يتخذ الأول صورة  
الاضطراب العصبي واهتزاز الرأس والأطراف اهتزازاً لاشعورياً  
بين الحين والآخر ، أو حدة المزاج وسهولة إثارتته . ومن الحلول  
المؤقتة غير الناجعة نذكر على سبيل المثال حال الرجل المريض يرقد  
في المستشفى ويعلم أنه سيفقد وظيفته لعدم لياقته بعد خروجه . إنه  
يخشى أن يواجه هذا الموقف ، ولذا فهو يطرده من ذهنه في حينه .



إنه لا يقول لنفسه صراحة وشعوريا ، إنى لا أستطيع أن أواجه العالم ،  
ولذا فإن صحى ان تتقدم ، ، لأن عقله الواعى يقول له إن هذه الوسيلة  
لمعالجة الموقف سخيفة غير معقولة ، ولكن عقله غير الواعى يساعده  
على ملازمة الفراش كى لا يواجه أزمة التعطل عن العمل ؛ ويشتد  
فى نفسه النزاع اللاشعورى حتى ينتهى الأمر بأن يؤثر العقل فى  
الجسم تأثيرا فعليا وتبقى أعراض المرض . والرجل فى الحقيقة  
لا يمارض على علم منه ؛ ولكنه يفر لاشعوريا من مواجهة الواقع .  
وكذلك الطفل حين يشكو ألما فى أسنانه مثلا ، فإن هذه الشكوى  
قد تكون هروبا من الإمتحان ، وهو يحس بالألم فعلا رغم سلامة  
أسنانه من كل عطب . وقد تستطيع أن تقنع الرجل الراشد بحقيقة  
الأمر ، ولكن من الخطأ أن تقول للطفل إن آلامه وهمية ، لأنك  
بذلك تزيد من شدة الألم إذ تمد عقله الباطن بسبب آخر للشعور  
بالألم ، وهو ضرورة الهروب من تهمة التمارض . وقد أبان المسيو  
كوى Coué أن قوة اللاشعور شديدة على الجسم ؛ وأن الأمراض  
التي تسببها حقيقية كالأمرض العقلية . ومن السهل فى حالة الطفل أن  
تظهر له شيئا من العطف وأن تستخرج منه السبب اللاشعورى بلباقة ؛  
فإن نجحنا فى ذلك زال عنه الألم .

وتميل المخاوف إلى أن تسد تدفق تيار الطاقة الحيوية عند  
مصدره . والرجل المتمدن - وإن كان لا يخشى الجوع والمرض  
والموت بمقدار ما يخشى الرجل المتوحش - قد يتوقف تيار طاقته



الحيوية عن التدفق لعدم التصريف الكافي لغريزتي الجنس والسيطرة ،  
وليس هذا بالأمر الهين ، فإن القوة التي تدفع الإنسان إلى حب  
الحياة هي بعينها التي تجعله يحب بسط نفوذه العقلي والبدني ، فيحب  
أن يظهر تفوقه في ناحية ما وأن يشكل الأمور وفقاً لإرادته . وهذه  
الغريزة عند الإنسان البدائي تؤدي به إلى تنمية قوته البدنية ، وإلى  
الاشتباك في الحروب ، والقسوة على الأسرى ، وإلى أعمال صبيانية  
كثيرة . وتحتم الشعوب المتأخرة على الشباب الذي يزعم لنفسه الشجاعة  
أن يبرهن على مقدرته على احتمال الألم والعذاب ، وأن يبين مهارته في  
القتال ، قبل أن يصبح عضواً صالحاً في قبيلته . أما في المجتمع المتمدن  
فالثروة والجاه والوظيفة تحل محل مطامع الهمجي ، وما يزال التفوق  
في الرياضة البدنية وسيلة لإظهار القوة والتفوق في المجتمع المتمدن .  
ويظهر الأطفال بجلاء حبهم للقوة ، فإن الطفل الذي يضرب على  
المائدة بملعقته ، ويرمى بملعقته إلى الأرض كلما سلمتها إليه أمه ، أو  
يخلع الحذاء كلما ألبسته إياه خادمته ، إنما يريد أن يقول : « انظروا  
جميعاً إلى قوتي » . والطفل الذي يمتشق الحسام ويضرب في أرجاء  
البيت يدق الطبل ، إنما يحلم أنه أعلى مرتبة من العالم أجمع ، أو أنه  
سوف يكون كذلك يوماً ما . والبهنت الصغيرة التي تحاول أن تتفوق  
على أخيها في الدراسة أو في اللعب ، إنما تريد أن تثبت قوتها ونفوذها .  
وهناك من الأطفال من لا يجد منفذاً كافياً لإثبات تفوقه ، فتراه  
شموساً رغم محاولة والديه ومعلميه في كبح جماحه ، وكثيراً ما ينفجر



ويحتد ويحطم ما يلاقيه ويتحدى العالم بأسره . وهناك من القتيات من لا يظفرن بلباس حسن ، ويدركن انهن مهملات لا قيمة لهن ، فينفسن عن رغبة السيطرة بأن يتوهمن أنهن حوريات مجهولات ، وأن الرجال سوف يجثون عند أقدامهن يوماً ، وأنهن أعلى مكانة من والديهن الوضيعين ، أو قد ينفسن عن أنفسهن بزجر من هم أقل منهن جسماً أو مقاماً .

والإنسان الذي يعيش في العالم المتمدن الحديث لا يجد في أكثر الحالات منفذاً لغريزة السيطرة ، فالرجل قد يكون في مكانة وضيعة وقد لا يكون سيد نفسه ، وعمله اليومي كثيراً ما يكون مملاً لا يحتاج إلى الابتكار ، والمرأة قد تعيش في منزل صغير وليس لها مصالح كثيرة في العالم الخارجي . فكيف يحصل أمثال هؤلاء القوم من العامة على الشعور بالسيطرة والنفوذ ؟ إنهم يجدون ذلك بطرق شتى ، أكثرها ذميم غير محمود ، كالغيبة مثلاً ، فهي تعطينا فكرة القوة والنفوذ والعلو على من نعرف من الناس ، لأننا إذ نغتاب شخصاً ما ، إنما نريد بطريق غير مباشرة أن نبين حطته عنا وارتفاعنا عنه . والخمر وسيلة أخرى للإحساس بالنفوذ ، فهي تجعل شاربها - لفترة قصيرة على الأقل - يحس كأنه يملك العالم . كما أن في زجر الزوجة والأطفال الصغار الذين يقعون تحت طائلنا تفريج عن هذه الرغبة المكبوتة ؛ والزوج الذي يتزوج من امرأة غنية يحاول أن يبسط سلطانه بأن يوهمها بأنه حكيم مدبر ، أو قوى البدن شديد البأس . ولدينا في تاريخ إنجلترا



مثل البرنس ألبرت الذي تزوج من الملكة فكتوريا ، فقد أخذ  
محاول حتى أفلاح فعلا في سلبها كثيراً من نفوذها على الدولة .  
وأحب قبل أن أفرغ من هذا الفصل أن أقول كلمة أخرى عن  
موقف الإنسان من غريزة التناسل أو الغريزة الجنسية في هذا المجتمع  
المتمدن . إن موقفه منها سيء غاية في السوء ، فالغريزة الجنسية تنمو  
لدى الفرد سنوات عدة قبل أن تجد لها منفذا طبيعياً مشروعاً وتحتجز  
مكانة هامة في حياته ، وذلك من جهة لأن الإنسان المتمدن يحيا على  
قاعدة الحب والزواج أكثر مما يحيا الإنسان الهمجي ، ومن جهة  
أخرى لأن عادات الإنسان المتمدن ووفرة الطعام لديه ، وعيشه  
الناعم الرغد ، وافتقاره إلى المجهود البدني ، تحث فيه الرغبة الجنسية .  
ويحتم المجتمع على الرجال والنساء على السواء أن يصر فوا سنوات  
عدة يعالجون فيها هذه الغريزة الطبيعية الأساسية علاجاً ما ، دون  
أن يتيح لهم الفرصة للتنفيس عنها تنفيساً طبيعياً مشروعاً بالزواج .  
فموقف الإنسان المتمدن من هذه الغريزة إذن غاية في الغرابة ، إذ  
من الجلي أن هذه الرغبات المكبوتة ، وهذه الغرائز المكبوحه ،  
لا بد أن توجد صراعاً في النفس . وإن كان الصراع يسبب  
النورستانيا فيحرق لنا أن نتساءل ولماذا لم تقع الكثرة الغالبة من الناس  
فريسة للأمراض العصبية . والجواب على هذا السؤال سهل يسير ،  
وذلك أن الانسان له قدرة عجيبة على الملاءمة بين نفسه وبين ما يحيط  
به من ظروف ، فكما أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع



أن يعيش في كل الأجواء وعلى أى لون من ألوان الطعام ، فإنه يستطيع كذلك أن يتصرف في كثير من المشاكل العقلية والخلقية . فإن حرمة المنفذ الطبيعي الأولى لطاقتة الحيوية أسرع إلى اختراع منفذ آخر يفي بالغرض . وقد وجد علماء النفس أن الرجل - أو المرأة - يبقى عضواً صالحاً في المجتمع من الوجهة العقلية والجثمانية مادامت هذه المنافذ مشبعة مقنعة ، ويسمى مثل هذا المنفذ المرضى في علم النفس « بالتسامى » Sublimation ، وموضوع التسامى بالرغبات الطبيعية شائك واسع الأطراف ، ولكن في الحياة اليومية أمثلة عديدة كثيرة الحدوث ، نستطيع جميعاً أن نتعرفها ونفهمها . فنحن نعرف مثلاً أن البنين والبنات في هذه الأيام في حاجة إلى الألعاب الكثيرة خارج الدور وإلى الألعاب الرياضية العنيفة ، وإن تركهم شاردي الذهن ضار بهم ، ويسبب لهم كثيراً من القلق النفسى . وبعبارة أخرى إن تيار القوة الحيوية الذى يدفعهم إلى بسط نفوذهم وسلطانهم ينبغي أن يجد له متنفساً ملائماً ، وإلا وجد له مخرجا غير مرغوب فيه ، وقد دل البحث في السنوات الأخيرة على أن الألعاب - وإن كانت في عهد الطفولة والشباب - منذاً كافياً للتنفيس عن غريزة السيطرة - ليست مما يدعو إلى الإنشاء وقوة الابتكار والإبداع ، ولذا فهى لا تكفى للتسامى بغريزة الجنس عند نضوجها ، ومن أجل ذلك تدخل المدارس الحديثة في برنامجها شيئاً من الصناعات وكثيراً من الفنون حيث يجد الأطفال مجالاً للتنفيس عن حب الخلق



والإنشاء ( وهو سر غريزة التناسل ) وذلك بالإبداع في التصميم  
والرسم والصنع . والأشغال اليدوية ضرب من ضروب التسامي  
بغريزة الجنس ، فيجب الاهتمام بها في سن المراهقة .  
ولعل أجمل ما في القدرة على التسامي بالرغبات الغريزية أن التسامي  
يرفع المرء تدريجاً من حياة كلها إشباع للشهوات الحسية إلى حياة  
رفيعة مليئة بحب الفن والجمال ، وإلى التدين والإيثار وحب الغير .  
وعلى ذلك فقد يكون في كبت غريزة الجنس والسيطرة عوض  
الإنسان وفائدة للمجتمع . بل إننا لمدينون بكل ما هو رفيع في المدنية  
الحديثة لكبت الغرائز الوحشية عند الإنسان .



## الخوف

قلنا في الفصل السابق إن الطاقة الحيوية أو القوة الغريزية قد  
تسد عند مخرجها ، وقلنا إن الخوف من أقوى الأسباب في هذا السد ،  
ولذا وجب أن ندرس الخوف كي نعرف أي دور كبير يلعب في  
حياتنا . ولا نقصد بالخوف هنا ذلك الإحساس الشديد بالرعب  
والفرع الذي قلنا يصادف المرء في حياته ، إنما نعني ذلك الشعور ،  
الذي ينتابك في كل مكان وفي كل وقت ، ينتابك في البيت وفي حجرة  
الدراسة وفي المكتب وفي الملعب ، وقد ينشأ عن توافه الأسباب  
وقد تحس به مئین المرات كل يوم ، فإنك ربما تخشى أن تتعرض لتسيار  
الهواء ، أو أن يشتد الحر ، أو لا تهضم الطعام ، أو أن يكثّر العمل ،  
وأن تسيء إلى أحد أو يسيء إليك أحد ، وأن تفقد مورد رزقك ؛  
وفوق هذا وذاك فإنك تخشى أشد ما تخشى أن تصبح معرضاً للسخرية  
والضحك . ونحن نعلم أطفالنا أن يخافوا إن هم وضعوا أصابعهم في  
أفواههم ، وإن صاحوا وعلا صياحهم ، وإن خرجوا وحدهم بعيداً  
عن الدار ، وإن حاولوا القرب من البحر ، أو تسلق الأشجار ، وإن  
أسرعوا في الجري ، وهكذا .

وأيسر الطرق وأسرعها لفرض إرادتك على فرد ما هي أن  
تلقى في روعه الخوف من العواقب ؛ وما توقع العقوبة على الأطفال  
سوى ضرب من إيجاء الخوف إلى نفوسهم . ولا شك أن العلم



بالعواقب التي لامناص منها عون كبير على النظام ، ولسكن خوف  
النتائج شديد الوقع على النفوس ، وليس هناك ما يعوق سير المدنية  
أكثر من خوف المشقة وخوف الفشل وخوف السخرية من  
الآخرين . الخوف له جاذبية لا تقبل شدة عن جاذبية الحب ، فإنك  
إن خشيت شيئاً لمبت ترقبه بعينيك ، وتصوب نحوه ناظريك منجذباً  
إليه تطلعاً أو رهبة . وكثيراً ما يعانى المرء من أثر الخوف حين  
يرتكب خطأ وسط جماعة من الناس ، كأن ينقلب منه فئجان القهوة ،  
أو أن يشير إلى موضوع يدرك فيما بعد خطأ التحدث فيه ، وما إلى  
ذلك . وكلنا يعرف انه كلما اشتد بالمرء الخوف من الوقوع في خطأ ما  
زاد احتمال ارتكابه إياه . وكثير من الناس يعزو ذلك إلى سوء  
الخط ، ولكن هناك في الواقع ارتباطاً جد معقول بين الاسباب  
والنتائج ، وذلك أننا نميل إلى أن نعمل ما نوجه إليه الفكر ، سواء  
كان الفكر معقوداً بشيء مرغوب فيه أو بشيء بغيبض . وقد دل  
البحث في السنوات الأخيرة على أن هذا الميل لا يؤثر في الوظائف  
التي تتحكم فيها تحكما إرادياً وحسب ، كالكلام والحركة ، ولكنه  
يؤثر كذلك في حركات الجسم غير الإرادية . وعلى ذلك فإن ركز  
المرء فكره في عملية الهضم على عقيدة أنها لن تتم في يسر ، شعر  
بعسر الهضم ؛ وإن ألح على المرء خوف المرض من العدوى فإنه يهيم  
لنفسه انتقال العدوى إليه ، وقد يصاب فعلاً بالمرض . وأكثر  
الناس يعلم هذه الحقائق اليوم ، ومع ذلك فقل منهم من يعتقد بهذه



النظرية : وهي أن الخوف من شيء هو أسوأ وسيلة لتجنبه .  
ويقول المثل المصرى العامى ( من يخشى العفريت يلتقى به ) .  
الخوف من أهم أسباب النزاع الشعورى والنزاع اللاشعورى .  
بواعث الحياة تقول لنا دائماً « افعل هذا ، وغريزة الخوف تقول لنا  
« لا تفعل هذا ، وهذه المنازعات - كما رأينا - تستنفد حيويتنا وتسبب  
لنا الأمراض ، ولذا فواجبنا أن ندرس مخاوف الأطفال ومخاوف  
الكبار الشائعة ونعلم مظاهرها .

وتستطيع أن تتعرف الخائف ، فهو قليل الحيوية ، وقد لا يكون  
مريضاً ولكنه قليل الحماسة والنشاط ، شديد الكسب لغريزتى الجنس  
والسيطرة . فهو يفر من التبعة ويخشى السلامة بأى ثمن ، وهو يؤثر  
أن يكابد القلق والبؤس والحرمان والظلم على أن يكافح في وجه الناس  
والظروف . وكثيراً ما تبعد الفتاة عن معاشره الرجال — حتى  
أقربائها — خوفاً لا حياء ، وقد يتحول الكسب في نفسها تسامياً  
فتتفانى مثلاً في خدمة والديها وأخوتها كى تتقى خطر « الفردية »  
وتسمو بأخلاقها ، ولكن كثيراً ما يفشل التسامى وتصاب البنت  
بالاكتئاب والمرض والشذوذ .

والمخاوف التى تفتابنا كل يوم في حياة العصر — الحاضر — حياة  
المدنية — يمكن تقسيمها تقسيماً سهلاً يسيراً ، فهى قليلة وإن تنوعت في  
مظاهرها — قليلة في أصولها . وبما أن هذه الأصول تختلف  
بعض الشيء عند الأطفال عنها عند الكبار ، فيجدر بنا أن نقسمها



قسمين : مخاوف الأطفال ومخاوف الكبار .

### مخاوف الأطفال :

إذا تكلمنا عن الأطفال فنحن إنما نقصد أولئك الذين يعيشون في ظروف عادية في بيت تحت رعاية والديهم أو غيرهم من الراشدين المسؤولين عن تربيتهم ، أما المتشردون من أبناء السبيل الذين يقومون بأود أنفسهم ويتحملون تبعه بقائهم فأولئك مخاوفهم أشبه بمخاوف الكبار . ويمكن تقسيم مخاوف الطفل العادي أقساماً أربعة ، وهي الخوف من المجهول ، والخوف من الآلام والمخاطر الجثمانية ، والخوف من السخرية ، والخوف من الاستهجان .

١ — خوف المجهول : ربما كان الخوف من المجهول غريزة إنسانية ورثناها عن آباؤنا المتوحشين الأولين ، الذي كان لديهم كل شيء غير مألوف سبباً يهدد حياتهم . ولكن بتقدم المدنية أخذ هذا اللون من الخوف يقل تدريجاً كلما ازدادت قوة الإنسان العاقلة . فالطفل في سنواته الثلاث أو الأربع الأولى من حياته يخشى كل ما لا يألف ، فالطفل الفقير ، الذي لا يألف في بيته إلا النزر اليسير من ضرورات الحياة ، إن أتيت به إلى روضة من رياض الأطفال ، دعر من اللعب ووسائل التسلية دعرأ شديداً ، وقد يصيح ويبكي ساعات متواليات فرقاً ورعباً . بل إن وجهها غير مألوف قد يثير الرعب عند الطفل في مثل هذه السن الباكرة . ومثل هذا الخوف



من المجهول تجده عند الكبار ، ولكنه بطبيعته الحال أقل حدوثاً ،  
لأن الراشد قد تصادفه الألوف من العلاقات الجديدة بين الأشياء  
ولكنه قل أن يصادفه شيء جديد عليه كل الجدة ، فإن التقينا به  
شعرنا بالخوف منه ، فإن دخل أحدنا يوماً بيته فرأى أول مارأى  
حيواناً له جسم القط ورأس الدجاجة شعر بالخوف فجأة ، لا لأن  
الحيوان خطر ، ولكن لأنه يخرج عن حدود المألوف . وكثير مما  
هو مألوف لنا غريب على الطفل يشير فيه الخوف والرعب ، فهو  
يصيح في الظلام لأنه يتخيل شيئاً ما يكمن له ، ولا فرق بينه في ذلك  
وبين رجل يحد في حجرته فجأة ثعباناً في الظلام . وتستطيع أن تخيف  
الطفل الصغير مثلاً بأن تقدم له برتقالة دقت فيها بعض أعواد  
الكبريت ، وإنه ليخشى أن يلمسها لأنه لم يألف أن يرى البرتقالة  
كذلك ، وقد يتصور فيها الحياة .

٢ — خوف الخطر الجثماني : الخوف من الخطر الجثماني  
مصدر شائع للصراع اللاشعوري عند الأطفال . وقد يرى الطفل  
أنه عار عليه أن يعترف — حتى لنفسه — بأنه يخشى القفز في الماء أو  
مداعبة الكلاب . فيكتم ذلك في نفسه ويكون له أثره فيما بعد .  
اشترى والد مرة عجلة لابنه ، وكان الولد لا يعرف ركوب  
العجلات ، ولكنه يتحرق شوقاً لأن يجرب هذا الضرب من اللعب .  
وما إن حاول ذلك حتى خر على الأرض وأصابه الأذى ، فزعم  
لنفسه أن موعد الغداء قد حل وأنه لا يصح أن يتأخر عنه ،



وطرح العجلة جانباً ذلك اليوم ، ولكنه لم يزد الفراش في اليوم التالي  
وارتفعت درجة حرارته ، ولم يدر الطبيب لهذه الحمى من سبب ،  
والتعليل النفسى لهذا المرض أن الطفل أحس بالخوف من العود إلى  
ركوب العجلة ، ولكنه لم يعترف لنفسه شعوراً به — هذا الخوف ،  
فاستقر الخوف في اللا شعور ، واصطرع مع تقدير الطفل لجرأته  
ورغبته في تعلم الركوب . وجاء الطبيب النفسى وأخذ يحادث المريض  
وذكر أثناء حديثه أن ركوب العجلات أمر شاق ، وقال إن الكبار  
كثيراً ما يشكون منه ، فذشط الطفل بعد ذلك بتقليل ، واستعد لملاقاة  
التجربة من جديد والتغلب على مخاوفه .

وكثيراً ما تنهم الأطفال بالتمارض ، ولكن هذا التمارض في  
الواقع غالباً ما يكون مرضاً وهمياً ينشأ عن مثل هذه المخاوف .  
وأما هذه الأمراض تحتاج إلى لباقة في معالجتها ، ومن واجبنا  
ألا نهم الطفل صراحة بادعاء المرض ، لأننا بذلك نشير لديه عناداً  
لا شعورياً تنشأ عنه أمراض فعلية ، وإنما ينبغي أن نقصر على إبداء  
الأسف له ، وأن نشجعه على مقاومة واستئنافه العمل ، وبذلك  
نتجنب إثارة الدافع النفسى الذى قد يدفعه لأن يثبت أنه كان مريضاً  
فعلاً رغم رغبة الكبار فيه .

٣ — خوف السخرية : قد يكون الخوف من السخرية أشد أسباب  
الانكماش لدى الكثير من الأطفال ، فالسخرية يتسبب عنها الإحساس  
بالخطة التى تبقى أمدأ طويلاً بعد انقضاء ذكرى الحادث الذى أثارها .



إنك إن انفجرت بالضحك من طفل حين يخطيء في النطق بكلمة ما ، أو حين يخطيء خطأ لا يصح الوقوع فيه أمام الناس ، فإنك غالباً ما تؤذيه أكثر مما لو ضربته ضرباً مبرحاً . فإنك إن ثرت في وجه الطفل أو ضربته تؤذي جهازه العصبي ، ولكنك إن هزأت به فقد تسيء إلى احترامه لنفسه ، وبذا تقضى فيه على تلك الصفة اللازمة له في حياته المقبلة ، وهي الثقة بالنفس ؛ وكثيراً ما نشاهد في حجرة الدرس أطفالاً لا يبوحون بما يعلمون ، وتعوزهم الصراحة خوفاً من السخرية منهم . أمثال هؤلاء حينما يتمون الدراسة ويخرجون إلى معترك الحياة يعوزهم الإقدام خوفاً من الاستهتار بما يعملون .

والخوف من السخرية يدفع ببعض الأطفال إلى الكذب أكثر مما يدفعهم الخوف من العقوبة ، فقد يعلمون لاشعورياً أن العقوبة زائلة ولكن الإساءة إلى احترام النفس باقية لا تزول . تعلم أحمد وهو طفل في السادسة معرفة الوقت بالساعة ، وكان شديد الفخر والعجب بذلك ، وذهب يوماً إلى بيت عمه ، ولما أذفت ساعة الغداء ، أخذ يحدق في ساعة الحائط طويلاً كي لا يتأخر عن موعد الغداء ، فقال له عمه : هل أنت تنظر إلى الساعة لتعرف الوقت يا أحمد ؟ هذه الساعة لا تتحرك ، فنجل أحمد لأنه لم يفرق بين الساعة المتحركة والساعة الساكنة ، وأحس أن موضع نخره قد بات سبباً للسخرية منه فاضطر إلى الكذب وصاح قائلاً : « كلا يا عمي . إنني ما كنت أحدق في الساعة ، إنما كنت أنظر إلى الزهور التي إلى جوارها ،



ومن أكثر العيوب شيوعاً بين الأطفال من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة العليا شدة « إحساسهم بأنفسهم » ويلاحظ أساتذة الفنون - والفنون وسائل التعبير عن النفس - أن أبناء الفقراء يتقدمون فيها أسرع مما يتقدم أبناء الأغنياء ، لأن الأولين أكثر جرياً مع طبيعتهم من الآخرين الذين يخشون نقد ما يعملون . والتعبير التلقائي الذي لا كلفة فيه من مميزات عامة الجماهير ، وأما الإحساس بالنفس والكلفة فمن مميزات الطبقة العليا . نعم إن أبناء الطبقة الراقية لا يبدوون إحساسهم بأنفسهم بالحركات الذميمة كوضع الأصابع في الأفواه ومد الشفتين ، ولكنهم يظهرون هذا الإحساس بمراعاتهم مراعاة دقيقة لقواعد السلوك والأخلاق ، وبالتبذل والبله - وهما من دلائل الكبت . والسبب في ذلك واضح جلي ، ففي الطبقات الدنيا يضرب الآباء أبناءهم ويزجرونهم زجراً شديداً ، ولذا فأطفالهم لا يحسون في المدارس بالإساءة إلى شعورهم ، واحترامهم لأنفسهم وثقتهم فيها قد لا تتزعزع . وإن شعر أحدهم بالخجل فترة وجيزة ، فسرعان ما تعود إليه الجرأة ثانية . أما في الطبقات العليا حيث يقوم بتربية الأطفال في البيت المرديات ومن إليهن ، حيث يكاد الطفل لا يسمع إلا الكلام اللين والتدليل أو الزجر الخفيف ، فلا مناص من أن يكون الطفل شديد النقد لنفسه ، قوى الإحساس بذاته . وقد يؤدي ذلك إلى زعزعة ثقته بنفسه ، وعرقلة الدافع الطبيعي فيه للتعبير عن نفسه تعبيراً صادقاً .



ولما كان لزاماً على الأطفال أن ينشأوا على التقاليد الاجتماعية وأن يمارسوها ، فإنه لا بد لهم من الزلل في كثير من الأحيان ، وما يترتب على الزلل من مشقات نفسية . والواقع أنه ينبغي لنا أن نعلم الأطفال الصواب أولاً قبل أن ننقدهم فيما يعملون . فبدلاً من أن نؤنب عليهم لأنه لم يحسن التأدب في حجرة الاستقبال ، يجب أن نعلمه كيف يحسن التأدب وماذا ينبغي أن يقول في أمثال هذه المناسبات . ومن الخطأ أن نرشده إلى الصواب في حضرة الزائرين ، فنحن لا نحب ذلك لأنفسنا . إنما ينبغي أن نرشده من قبل وأن نستعمل صيغة الإيجاب في النصيح لا صيغة النفي حتى يحسن التصرف وقت الحاجة ، وبهذه الوسيلة وحدها يصح سلوكه .

هذا إلى أننا ينبغي أن نترك الأطفال وشأنهم بقدر ما نستطيع وأن لا نكلفهم فوق طاقتهم بل وفوق ما نستطيع نحن أنفسنا ، وأن لانحتم عليهم أن يسلكوا سلوك الرجال ويتخلقوا بأخلاقهم إلا في ساعات قليلة من النهار ، ثم نترك لهم بقية اليوم يعبرون فيه عن أنفسهم تعبيراً تلقائياً . وليس من حسن التربية في شيء أن نترك الطفل طيلة يومه مع مربيته فإن هذا يضيع عليه فرصة النمو المطلق الصحي ، وقد يؤدي إلى فساد الطفل وإلى أسوأ النتائج . يجب أن نفهم أن الأطفال إن تركوا وشأنهم قد يتشاجرون وقد يصابون بأذى جثماني وقد يتلفون ما يحيط بهم من أشياء ، ولكنهم من ناحية أخرى يتعلمون دروساً قيمة ، كأن يعرف الواحد منهم مثلاً أنه إذا



كسرت لعبته فقدها ، وأنه إن فقد على طفل آخر ساءت العلاقة بينهما ، وأن معاشرة الأنداد ينبغي أن تقوم على قاعدة التبادل والأخذ والعطاء ، وأن حب الذات لا يجدي صاحبه نفعاً في النهاية . والحقيقة إن سرعة تأثير السخرية في الأطفال تغرينا أن نستخدمها كثيراً . إن زجر الطفل وتعييره ونهيه عن تأدية عمل ما قد يكون وسيلة ناجعة في تأديبه ظاهرياً ، وفي تدريبه على تقاليد المجتمع ، وقد يكون فيه إرضاء لضمائرنا حينما نقسو عليه . ولكن علاج الطفل بالسخرية كعلاج الرمضاء بالنار ، أو الحصبة بالماء البارد ، فإنك بذلك قد تتخلص من الأعراض ولكن المرض يبقى - بل قد يزيد - ثم يعود أشد مما كان . كلنا يعرف أولئك الأطفال الذين يكونون عادة سيئة كلما عالجنا فيهم عادة سيئة . وإذا لم تعد الأعراض بينة فالراجع أننا أفسدنا الطفل فساداً لا رجاء في إصلاحه ، وذلك بإبعاد الشر من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور . والخلاصة أن ليس هناك ما يدعو إلى السخرية من الطفل ، وأن هذا عمل جد خطير .

٤ - خوف الاستهجان : هناك من الأطفال من يحبون الموافقة على ما يفعلون حباً يجعل الخوف من ارتكاب الخطأ عاملاً نفسياً هاماً في حياتهم . والأطفال يميزون في سن باكراً جداً بين الخبث ( العفرتة ) والخطيئة فهم يعلمون أن من الخبث أن يوقظوا صغار الأطفال ، أو أن يحطموا أدوات أمهاتهم ، أو ينهروا الخدم ؛ وأن



من الخطيئة أن يكذبوا أو يسرقوا أو يغشوا. أما الخبث فيمكفيه العقوبة، وأما الخطيئة فتترك أثراً عميقاً وخزياً شديداً. وهذا الخزي هو الذي يسبب الخوف وينجم عنه الشعور بالحطة. والإحساس بالكذب، والنزاع بين خشية العواقب والرغبة في الاعتراف، قد يسبب مجهوداً عصبياً شديداً وعجزاً عن مجابهة شئون الحياة اليومية. ومن الواجبات الدقيقة على المربي أن يستبعد من نفس الطفل الخوف الذي يؤدي إلى الكبت ووخز الضمير، وذلك دون أن يفيل من رقة الإحساس الخلق الذي يحدو بالأطفال عادة إلى المبالغة في الإثم فلا يفرقون بين سرقة الحلوى وسرقة المال، فغريزة الأطفال صائبة، ومن الخطأ أن تقول لسارق الحلوى « لا بأس، إنه شيء تافه » كما أنه من الخطأ أن تقول له « أنت لص، وإن يغفر الله لك ما ارتكبت من إثم، فإن الطفل إذا أدرك أن الكبار يضحكون من الجرم الذي كان يحس بشناعته تزعزت في نفسه القيم الخلقية للأعمال دون أن يصل إلى فكرة صائبة.

وهناك غير هذه الأسباب الأربعة للخوف عند الأطفال سبب آخر شائع كثيراً ما يتجاهله الباحثون، وهو الخوف من النمو والكبر. هذا الخوف من تقدم السن يلزمنا من الطفولة حتى الموت، فالطفل يتحاشى لاشعورياً ويحجم عن تقدمه نحو الصبا، والصبي يخشى بدء حياة البلوغ، والشاب يخشى الكهولة، والكهل يخشى الشيخوخة، والشيخ - ونحن جميعاً في كل مرحلة من مراحل



الحياة - نخشى الموت . وإننا نتساءل مم هذا الخوف ؟ أما إننا نخشى الموت - حتى وإن يكن غير مصحوب بالمرض والالأم - فأمر معروف لا شك فيه ، إذ أن الموت باب يؤدي إلى مجاهل لم تكتشف بعد ، ونحن لا نستطيع أن نعرف ماذا يجري بعد الموت . والطفل الذى يقاوم النمو إلى ما بعد الطفولة مقاومة لاشعورية ، والصبي الذى يتعلق بالصبا سواء ، كلاهما يعلم بغريزته وبالملاحظة أن الحياة سوف تتطلب منهما التنازل عن المسرات والميزات التى يتمتعان بها فى هذه المرحلة أو تلك من العمر . ولكنهما فى الواقع يجهلان مسرات المرحلة التالية من العمر ومزاياها . يعرف الطفل معرفة غامضة أنه يجب أن يتخلى عن كثير من العناية به ، وعن تدليله الذى يتمتع به ، ولكنه لا يدرك ما يجنيه من لذة من اتساع مداركه العقلية وزيادة قواه البدنية ، وعلى ذلك كثيراً ما نرى الطفل وهو فى نحو العاشرة أو الحادية عشرة من عمره يجاهد جهاد المستميت بحيله الصبائية ، وبالخداع ، كى يقنع من هم أكبر منه سناً - وهم عادة على استعداد لقبول الإقناع - بأنه لا يزال طفلاً ، بحاجة إلى العناية والتدليل والحماية . وما هذا إلا مظهر من مظاهر الخوف من تقدم السن .

وكذلك المراهق يرى التبعات والتضحيات جسيمة أمامه ، ويدرك أنها سوف تلاقيه عند نضوج السن والزواج ، وليس لديه فكرة ما عن المسرات التى تعين على تحمل هذه المشاق . وكلما كانت الطفولة سعيدة صحية مملآى بأسباب التنفيس عن القوى النامية ، كان



الطفل عرضة لخطر الخوف من الخروج عن عهد الصغر . ولو أنك  
قلت لفتاة في العاشرة من عمرها إنها عما قريب سوف تضطر إلى  
أن تترك اللعب بالدمى لما لقيت منها أذناً مصغية . فيجب علينا عند  
تربية الأطفال أن نلاحظ أننا إن جعلنا طفولتهم كلها سعادة وحمولا  
وحرية ولذة فإننا بذلك نجر عليهم خطر حب الطفولة وعدم الرضا  
بمفارقتها ، وكما نهيء للطفل الاستمتاع بمرح الصبا ينبغي لنا كذلك  
أن نضحى بلدتنا في اعتماده علينا ، وأن نعلمه قصداً أن يواجه سن  
الرشد بالثقة والشجاعة ، وأن نهدي المراهق - إيماء - إلى علامات  
البلوغ حتى لا يرتاع لها . ففي هذه السن تنتاب الشباب طائفة من  
الإحساسات الجثمانية والعقلية التي لم يسبق له ممارستها ، فهي مجهولة  
له يخشها كما يخشى كل مجهول ، كما أنه يخشى إن هو أفصح عنها لغيره  
من الكبار أن يصبح مشار الضحك والسخرية . وكل ما يقول الولد  
أو البنت في هذه السن العصيبة يحتتمل أن يكون سؤالا خفياً أو تحديا  
للكبار ، فإن قال : أنا أمقت أختي ، وأكره بيتي ، ولا أو من بما  
تؤمنون ، ولا أقدم الواجب كما تقدسون ، فإنه لا يقصد بهذه  
الألفاظ ظاهر معناها ، وإنما هو يعبر عن خوفه ورغبته في المعرفة ،  
ويسألك رأيك في هذه الخواطر الشائرة ؛ يريد أن يعرف إن كانت  
هذه الآراء الثورية وهذه الدوافع التي تضطرم في عقله مشوبة فعلا  
بالإثم كما تعود أن يعتقد أيام الطفولة أم لا . والطفل البالغ الذي  
يكتب قصصاً فاحشة بذئمة أو يرسم رسوماً قبيحة إنما يسأل الجمهور



هذا السؤال عينه ، وكأنه يقول متحديا ، هذه خواطري ، فهل هي تثير مشاعركم فعلا ، أم هل أنتم تزعمون ذلك ؟ ، والشخص الراشد الذي مر بهذا الدور ، ثم عاد إلى اتزانه ، عليه تبعة كبرى إزاء هذه الأسئلة المروعة ، فإنه إن عبر عن فزعه واشتمزازه ، وإن أخرج السائل ، وإن حظر القصص ، فهو إنما يستجيب لهذه الأسئلة على الطريقة العتيقة ، وعاقبتها تفاقم المخاوف عند الطفل ، ودفعه إلى الثورة وإلى التحدى وإلى الانفجار أو الاستهتار . أما الطريقة الحديثة فهي أن تزعم مشاطرتك لإحساس المراهق وملذاته ، وأن تتساح معه وتعامله معاملة الزميل . كانت الطريقة القديمة عقيمة رغم إخلاصها ، وأما الطريقة الحديثة فمجدية رغم رباؤها ودهانها . ومن الشبان من لا يتقدمون بالأسئلة لأنهم - في حقيقة الأمر - يرغبون في الإجابة الصحيحة ولا يقنعون بالكلام المعسول . وإنهم لمحققون في موقفهم هذا ، ولقد مرت علينا جميعا هذه المرحلة . وكان من الواجب أن نستفيد بالتجارب ، إلا أنا في كثير من الأحيان ما نزال صرعى لمخاوفنا الشخصية ، ولذا فإننا لا نستطيع أن نخفف عن غيرنا مخاوفه .

ينبغي إذن أن يواجه الطفل سن الرشد بالثقة والشجاعة ، ولكن إلف متاعب الكبار في سن باكورة من ناحية أخرى قد يمد الطفل بسبب للخوف قوى ، والطفل الذي يعيش في بيت يقاسى أهله بعض الشقاء قد يحس بهذا الخوف شديداً على نفسه ، دون أن يكون لديه



أدنى علم بالسبب في اكتسابه وبؤسه .

كانت هناك فتاة متينة الخلق ، قوية العقل ، شديدة العطف ،  
بلغت الخامسة عشرة من عمرها فانتابها الكآبة والحزن والهم ،  
ولازمت العزلة والانفراد ، وأخذت تفكر في الموت ، وحل بها  
وهم أن حياتها ستنتهي بخروجها من المدرسة . ولما كانت صحيحة  
البدن ، وافرة الحيوية ، فقد أدركت أن موتها لن يأتي عن طريق  
طبيعية ، ولذا أخذت تفكر في الانتحار . ولما تركت المدرسة في  
سن الثامنة عشرة أصابتها النورستانيا ، ولم يخفف عنها ما أصابت من  
حرية بعد ترك المدرسة ، فلم تجد لذة فيما كانت تجمع من تجارب  
وأخذت تعتقد أن سعادتها في الحياة قد انتهت بانتهاء مدة الدراسة .  
وهذا مثل من أمثلة أوهام الخوف . وفي مثل هذه الحالات ينبغي  
أن نرجع إلى الظروف المنزلية . كي نتلمس الأسباب . وقد هدى  
البحث مع هذه الفتاة إلى أنها كانت أصغر أخواتها ، وأن أمها كانت  
تدللها كثيراً وأنها كانت تحب أمها حباً جماً ، وتتصل بها اتصالاً وثيقاً ،  
ولا تستطيع أن تتصور نفسها شخصية منفصلة عنها ، أي أنها كانت  
تتمثل تجارب أمها لاشعورياً . وقد عاد الزواج والحياة العائلية على  
الأم بالحزن والهم والقلق الشديد ، وبدهى أن الفتاة كانت تنظر إلى  
الزواج كأنه ضروري للفتاة التي تبلغ سن الرشد ، وأنها كانت  
تعتقد أن أمها ربما كانت خيراً في صحتها وفي حياتها لو لا الزواج .  
وقد استطاعت الفتاة أن ترى المساوىء التي لا بد منها للحياة الزوجية ،



ولكن لا شك أن إدراك المسرات الزوجية والامومة كانت تعوزها،  
حياة أمها المحبوبة قد أفسدها الزواج - فيما كانت ترى . ثم علم  
الطبيب النفسى الذى كان يعالجها أن زواج الأم قد تم بعد خروجها  
من المدرسة ، فاتضح له السبب اللاشعورى للخوف عند الفتاة : وهو  
أن سعادة الأم قد انتهت بانتهاى أيام الدرس ، فكانت الفتاة تؤثر  
الموت وهى فى سن الطلب على الزواج وما يستتبعه من بؤس ومشقة  
وهذا « التطابق » (١) النفسى بين البنات وأمهاتهن شائع بين المراهقين ،  
وكثيراً ما يكون سبباً فى تمنع الفتيات عن الزواج ، وهو سبب لا بد  
من إزالته وإلا كان له تأثير سىء على الحياة فيما بعد .

(١) « التطابق » Identification هو ارتباط الفرد بتجارب  
الآخرين وأعمالهم ، حتى أنه ليساهم فى العواطف والإحساسات التى  
يتوهم أنهم يشعرون بها . فإن الإنسان الذى يصادف حادثه ما ، ويحس  
إحساساً قوياً بما يرى ، حتى أنه ليسقط مغشياً عليه ، إنما يتخيل  
لاشعورياً أنه هو الفريسة فى هذا الحادث . إنه حينئذ يطابق نفسه  
على نفس المصاب . هذا النوع من الإحساس كثيراً ما يخطئ الناس  
فهمه ويحسبونه مشاركة الغير فى الشعور ، ولكنه فى الواقع ضرب  
من ضروب « الوهم » ومثل هذا التطابق يحدث حينما نحمر خجلاً  
عند ما نرى شخصاً آخر يرتكب مهزلة أو يظهر عاطفة تدعو إلى  
السخريه ، فالرجل المصرى حينما يرى رجلاً إنجليزياً يقبل زوجه  
عند وداعها على قارعة الطريق يشعر بشيء من القلق ، رغم أنه =



وبعد ، هل نحن نستطيع أن نعالج هذه المخاوف عند الأطفال ؟  
أحسب أن هذا ممكن إذا دربنا أنفسنا على تعرف كل ما يشير إلى  
الإحساس بالخوف ، وعالجناه برقة وبعطف ، واضعين نصب  
أعيننا أن تعليقاً يسيراً يسمعه الطفل ولا يدركه ، أو عبارة دينية  
يسىء فهمها ، أو تأنيباً خفيفاً ينساه قائله بعد قليل ، أو منظرًا يراه  
الطفل عفواً في الطريق ، قد تولد لديه عقدة خوف تلبث سنوات  
عدة ، وربما بقيت مدى الحياة . ولا ينبغي أن نلجأ إلى عقوبة على  
الطفل حين يكذب من الخوف ، فإن العقوبة قد لا ينجم عنها سوى  
تقوية مخاوفه ، بينما قد نستطيع علاج الموقف في لحظة إذا توخينا  
الأنانة في الكشف عن سبب الخوف .

وفي تعرف عامل الخوف ، أو التغاضي عنه في معاملة من هم

---

== يعلم حق العلم أن ذلك شيء طبيعي عند الإنجليز .

« والانعكاس ، Projection ، نقيض « التطابق » فهو نسبة  
أفكارنا ومشاعرنا وعواطفنا إلى غيرنا لا شعورياً . فالسارق يتهم  
غيره بالسرقة ، والعاشق يصم غيره بالعشق وهكذا . وإنا لنشاهد  
أحياناً أن الخلاف يقع بين اثنين فيتفاقم ويشتد شيئاً فشيئاً ، وقد  
يرجع ذلك في كثير من الأحيان إلى أن كلا منهما ينسب إلى الآخر  
أقواله هو وفعاله . وفي كثير من حوادث الطلاق تسمع كلا من  
الرجل والمرأة يشكو في الآخر القسوة والإهمال وسوء معاملة  
الأطفال والبذخ الخ . . .



دوننا وفي معاملة زملائنا ، عون لنا على تجنب كثير من  
الجدل ، وعلى تحاشي الظلم ، والشعور الخبيث الذي يندشأ حينما يشترك  
الناس في عمل واحد . وإن ما قد يرد به عليك من هو دونك من  
لفظ وقبح ليس في غالب الأحيان سوى رد على مهاجمتك إياه مهاجمة  
أثارت فيه الخوف . وكما أن الحيوان الخائف يستجيب للخوف  
أولاً بالهروب خفية ، فإن لم يفلح فبمقابلة عدوه وقتاله ، فكذلك  
الرجل الجبان العاجز أو الحامل ، يحاول التخفي أول الأمر ، فإن  
أدركته لجأ إلى السباب الذي لا معنى له ولا أثر . وكلنا يعلم شجاعة  
اليائس في الحياة ، ولكننا لا نلاحظ ظاهرة الخوف هذه في مضايقات  
الحياة اليومية .

وإذا ما عرفنا فروع الخوف الكثيرة في حياة الآخرين  
استطعنا أن نمحوه أو أن نتحاشاه ، وبخاصة حينما نعامل الأطفال  
والشبان . ومن أسوأ ما تقع فيه المرأة الحريصة على تربية أطفالها أن  
تشير فيهم المخاوف الهينة . والواقع أنه خير للطفل أن يخر على  
الأرض وأن يصيبه الأذى من أن يندشأ على تشجيع ألوف المخاوف .  
ثم إنك إن هددت الطفل وأفزعته كي يحترمك ، أو توعدته كي  
لا يقع في خطأ ما ، فإنك بذلك تلقى البذور لعجز يدوم معه حياته .  
إن الحكمة واللين والعدل لا تضر بالأطفال ؛ ولكن التعنيف الشديد  
وثورات الغضب والسباب الصاخب قد تهدم كل أمل للطفل الحساس  
في النجاح في الحياة ، وذلك بتكوين مراكز لعقد الخوف في اللاشعور ،



تكون للطفل دائماً عائقاً عن التقدم فيما بعد . والمشروعات العظيمة في الحياة تحتاج إلى ثقة في النفس لا تعرف الخوف ، والشباب الذي جمع في طفولته مجموعة كبيرة من المخاوف اللاشعورية والجهن في خطر شديد في نضاله للبقاء .

ولنا في التربية الحديثة بعض العزاء ، فليس لأطفال اليوم من أسباب الخوف إلا القليل مما يستحق النظر ، فلقد زاد الخوف من النمو في هذه الأيام وهو ، أنا أسف له كثيراً . حقاً إن الخوف من التقدم إلى مرحلة جديدة ورائي فينا ، وبما لا شك فيه أن أطفالاً كثيرين فيما مضى تمسكوا في أنفسهم بأهداب الطفولة وحاولوا الفرار من سن الرشد ، ولكن رغم هذا كله ، فما لاجدال فيه أن آباءنا وأسلافنا لم يعانون من هذا الضرب من الخوف مانعاً ، فقد كانوا يعلمون منذ بداية حياتهم أن الحياة مدرسة شاقة ، وأن دروسها إجبارية . كانوا لا ينغمسون في الملبس ، ولا يتمتعون إلا بقليل من الحرية ، وقليل من الملاهي ، وكانوا يعتقدون أن المسرات تنتظرهم بعد أن تتقدم بهم السن ولو قليلاً ، ولذا فقد تعلموا أن يترقبوا بنفوس متشوقة هذه الملذات المحبوسة عنهم ؛ وعلى ذلك فإن مثل هذه الحياة إن كان فيها كثير من الكبت إلا أن الأطفال فيها قلباً كانوا يميلون إلى ملازمة الطفولة . كان الأطفال فيما مضى يحبون تقدم السن كي يتمتعوا بما يتمتع به الكبار ، فحياتهم النفسية من هذه الناحية كانت أصح من الحياة النفسية التي يحياها أطفال اليوم الذين



يميل بهم خوف المستقبل إلى المحافظة على حياة الطفولة لما فيها من  
قلة التبعات فيصابون بما يعرف في علم النفس التحليلي « بالجمود » .  
والجمود هو تلك الحال التي تنتاب الفرد حينما يرفض أن يتقدم  
إلى أمام في الحياة ، ذلك التقدم الذي يتطلبه تطوره الطبيعي .  
وأكثر صور الجمود شيوعا اعتماد الطفل على والديه ، فكما أن  
الطفل يميل إلى مقاومة الفطام والانقطاع عن الرضاعة ، فكذلك  
يميل الصبي أو المراهق إلى قبول المعونة المادية والروحية من  
والديه بعد ما تتقدم به السن عن هذه المرحلة بكثير . وقد اتخذ  
هذا التواكل منذ عهد قديم صورة احترام الأبناء للآباء وخضوعهم  
لهم . وهذا الضرب من الجمود يظهر كذلك بصورة أخرى غير  
واضحة بين أولئك الراشدين الذين يتركون منازل والديهم ويعتمدون  
على أنفسهم ولو في ظاهر الأمر ، ومن أمثال هؤلاء ذلك الرجل  
الذي ينتظر من زوجه أن تكون له أما ، أو الذي يتخذ أمه مثالا  
للرأة التي يريد أن يتزوج . هذا الرجل أو ذلك لا يزال طفلا في  
عقله الباطن . و « الجمود » في كثير من الأحيان نتيجة لإطالة مدة  
الحبة الأبوية ، ولاختلاط هذه الصلات الأبوية بالخوف في اللا شعور .  
وعلى ذلك فموقف المرأة إزاء الرجل عامة قد يتلون بخوف مكبوت  
من أبيها يرجع إلى عهد الطفولة . وإذا استطعنا أن نخرج هذا الخوف  
إلى حيز الشعور ، وتتبعنا نشأته ، فقد نجد أنه نجم قديماً عن دعر  
شديد أيام الصبا ؛ ومتى علمت المرأة بذلك زال خوفها من الرجل ،



وحل محله انسجام تدريجي بينها وبينه . والمجود بوجه عام نقيض  
التقدم ، فهو محاولة فاشلة لمقاومة القانون الشامل قانون التغير والتبدل .

### مخاوف الكبار

قد لا تختلف مخاوف الكبار عن مخاوف الصغار في شيء ، إلا  
أنها أكثر تنوعاً وأشد تعقيداً لزيادة خبرة الراشدين وتجاربهم ،  
وهي لذلك أشد عسراً في اقتلاعها من أذهانهم ، لأنها من ناحية شديدة  
التأصل طويلة العمر ، ولأنها من ناحية أخرى أشد اختفاءً في نفوسهم .  
الطفل يريك مخاوفه ويثق فيك حين تقول له إن هذه المخاوف وهم  
باطل ، ولكن الراشد غالباً ما يعتقد أنه أعلم من أي فرد آخر  
بحقيقة همومه .

ومخوف المرض من أكثر الدواعي شيوعاً لأسباب النورستانيا  
عند الراشدين . فالفرد العادي الذي لم يصب شيئاً من علم الطب على  
جهل شديد — بل وكثيراً ما يعتقد في الخرافة — فيما يتعلق بالوراثة  
والعدوى في الأمراض . وقد تكون هناك أسباب خاصة يمتنع  
المريض من أجلها عن الإباحة للطبيب بموطن دائه أو سبب شكواه .  
فهناك مثلاً من الناس ممن لا يتصلون بمهنة الطب من يعتقد أن السل  
والصرع والجنون والسرطان من الأمراض التي تسرى في أسر خاصة ،  
وقد يضمّر المريض عدة سنوات خوفه من وراثته مرض من هذه



الأمراض الخبيثة ، ويقمع الفكرة قمعاً تاماً ، ولكنه قد يضعف يوماً فتضعف فيه قوة المقاومة وقوة القمع ويخر فريسة إما للمرض الذي كان يخشاه أو لنورستانيا مضنية لا يعلم لها سبباً . وكثيراً ما يصاب أحد أفراد الأسرة بمرض غير معد ، ولكن فرداً آخر ممن يتصلون به يخشى العدوى ويكتم خشيته ، ويحبس الوهم في عقله الباطن ، فيمكن هناك حيث يقيم نزاعاً نفسياً يضعف الصحة ويوهن الجهاز العصبي ، ولو أنه صارح بمخاوفه منذ نشأتها خبيراً بالامر لربما تبددت أوهامه ولم يصبه أذى . ولا شك أن الكثيرين من المعتوهين في مستشفيات المجاذيب صرعى لأوهام صيدانية ما كان أيسر من تبديدها قبل أن تتأصل في العقل الباطن . وهناك الكثير من الأمثلة لضحايا مخاوف المرض هذه نشاهدها جميعاً كل يوم ، فهناك من يعيش العمر في خوف دائم من أن كل ما يؤكل يعسر هضمه ، ومن يعتقد أن كل تيار من الهواء البارد وكل قطرة من مطر أو رطوبة تصيبه بالبرد . وعقدة المرض هذه شائعة عامة بين الناس ، وسبب الكثير من الآلام الشديدة . ولا عجب أن تنجح طريقة المسيو كوى Coué في العالم المتمدن في تبديد المخاوف بالإقناع والايان ، وإحلال الثقة محلها . وكمن مرض عولج بهذه الوسيلة .

هذا العلاج بالإيمان انتشر في العالم الغربي انتشاراً عظيماً ، وكمن مريض ذهب لطبيبه أول مذهب وهو قليل الثقة بالشفاء ، بل



أن منهم من كان يحتج بعنف ويقول إنه لا يثق في هذا الهراء ، ولما أغلظ عليه صحابه ذهب وعاد بالشفاء . ومن أطباء النفس من يعتقد أنه كلما اشتدت بالمرء قلة الثقة زاد الأمل في شفائه ، وذلك لأن هؤلاء المرضى قليلو الثقة في الطب النفسى أحد ثلاثة .

- ا - إما شخص لديه أسباب لا شعورية لعدم رغبته في العلاج ، أسباب تصطرع مع عقيدة أخرى شبه شعورية بأنه ربما تم له الشفاء .
- ب - أو شخص له رغبة ملحة في الشفاء ، حتى إنه ليخشى أشد ما يخشى أن يفشل في العلاج بعد ما يتمسكه الأمل فيه .
- ج - أو شخص يخشى أن يسخر منه الناس لأنه يعتقد في هذا العلاج الخرافى ، أو لأنه شديد التدين .

والاحتجاج القوى في العقل الواعى علامة لا تخطيء تدل على عقيدة مضادة محبوسة في اللا شعور . والمسيو كوى Coué يزعم أن عمل الطبيب هو إقناع العقل الباطن . وربما كان أقرب المرضى إلى الفشل في العلاج أولئك الذين تبدو عليهم علامات الثقة في العلاج النفسى ، فإن هذه الثقة كثيراً ما تكون حججاً يستر وراءه عدم الثقة المحبوسة في اللا شعور ، ولكن هذا الرأى ما يزال يفتقر إلى الإثبات والتأييد .

وليس الخوف من الانتقال إلى الدور الثانى من العمر — سواء فى ذلك الطفل أو الشاب أو الكهل — سوى الخوف من فقدان الملذات ، وهو سبب هام من أسباب النورستانيا ، وقد شرحنا هذا



الموضوع شرحاً وافياً عند الكلام على مخاوف الأطفال ، فليس ممة ما يدعو إلى زيادة التعليق عليه .

والخوف من العمل سبب آخر ذائع من أسباب الهم وكثيراً ما يكون لاشعورياً . نشأنا منذ نعومة أظفارنا نفرق تفريقاً كبيراً بين العمل واللعب ، فنحن نتعلم أن العمل جاف ممل ، وأنه ضرورة شاقة ، مضم ، شديد الأثر على الأعصاب ، وقد يؤدي إلى انحلال عصبي إذا لم نحذر الإرهاق ؛ وأما اللعب وهو ما نعمل به غير اضطرار - فيجلب اللذة والسرور ، ويجدد النشاط والصحة ، ومهما أكثر منه المرء فهو أبداً يطلب المزيد . ولكن الأطفال لا يفرقون بين العمل واللعب ، فالبيع والشراء ، وتنظيف البيت ، والغسل والسكى ، من الملذات للطفل ، بل وتعلم القراءة والكتابة كلها من ضروب اللهو واللعب . ويبقى الأطفال هكذا إلى أن يتدخل الكبار في أمرهم ، فيتلقون عنهم تقاليد المجتمع ، ويأخذون عنهم التفرقة بين العمل واللعب ، وبين الجد والهزل . ونظرة الطفل في الواقع أصدق من نظرة الرجل ، فليس هناك في حقيقة الأمر فارق بين رجل يسير على قدميه للرياضة ، وآخر يقطع طرقات المدينة للبيع أو لتوزيع الخطابات مثلاً ، ولكننا نغبط الأول ونشفق على الثاني . وأى فرق هناك بين من يضرب الكرة بالمضرب ، ومن يضرب الحديد بالمطرقة ؟ ولكن الإنسان تواضع على أن يسمى العملية الأولى لعباً ، والثانية عملاً . وكلنا يخاف العمل خوفاً تقليدياً ، ويخشى الملل منه . فلو



استطعنا التغلب على هذه المخاوف قضينا على كثير من أسباب الصراع النفسى والنورسستانيا .

وهناك إلى هذه المخاوف خوف المجهول الذى تكلمنا عنه عند دراستنا للخوف عند الأطفال . فإن الأغلبية الساحقة من الناس تشوق إلى الجديد وتخشاه فى آن واحد ، وذلك لأن حب التجارب الجديدة مظهر طبيعى لإرادة الحياة ، فالطاقة الحيوية تحفزنا إلى النشاط العقلى والعاطفى والجثمانى . وإذا كانت هذه الرغبة فى الجديد لا تجد منفذاً صحيحاً عادت على المرء بالاكتماب ، ولكن هذا الدافع الحيوى يتأثر بالخوف مما عساه قد يحدث . وقد تكلمنا فيما سبق عن عمل هذا النوع من الخوف فيما يتعلق بانتقال المرء من مرحلة من مراحل حياته إلى مرحلة أخرى ، وبخاصة من الحياة إلى الموت . وأقوى تعبير عن هذا النزاع النفسى ما جاء فى « هاملت » مسرحية شيكسبير ، حيث يتشوق بطل الرواية إلى الهروب بإزهاق روحه من الكارثة التى حلت به ، ويقابل هذا التشوق خوف وهمى مما قد ينتابه من أحلام . والآن دعنا نغض الطرف عن هذه المنازعات النفسية الكبرى التى ترتبط بالحياة نفسها ، ولنفكر لحظة فى المخاوف الهينة من الأفكار الجديدة ، والحقائق الجديدة ، والعادات الجديدة التى تقض مضاجع الكثير من الناس .

كلنا يعرف أن هذه الظاهرة من الخوف تصيب الشيوخ ومتوسطى العمر ، ومع أن للكبار تجارب عن احتمالات الحياة أكثر مما



للشباب ، والواجب — بحكم السن — ألا يخشوا المجهول كما يخشاه  
أبناؤهم ، إلا أن أكثرهم — مع ذلك — يتميزون بالتحيز وحب  
المحافظة على القديم ، ويجزعون من كل جديد كلما تقدمت بهم الحياة  
فإلام يرجع ذلك ؟

يحس الإنسان — كلما تقدمت به السن وأحاطت به معميات  
الحياة وأسباب شقتها — بأنه مدفوع لأن يحتفظ لنفسه ببعض  
الحماية من شرور الحياة ، وهو غالباً ما يفعل ذلك باتخاذ فلسفة ما  
صاغها غيره من قبله ، وبالاعتقاد فيها كي تحميه شديد النكبات .  
يشاهد المرء في شبابه مثلاً كثيراً من أسباب البؤس والشقاء فيمتطلع  
حواليه كي يبحث عن شيء يستر به موضع الألم ، فيقع بصره مثلاً  
على أمثال هذه العبارات « العمال العاطلون هم أولئك الذين لا يصلحون  
للعمل ، أو « الشحاذون يحيون حياة طيبة ، وإلا ما لجأوا إلى التسول ،  
أو « وما يصيبك من خير في نفسك ، أو « هذا حكم الله ، فيتسلح  
بأمثال هذه العبارات ضد نكبات الحياة وآلامها . والديانات  
السماوية تقدم لنا الكثير من أمثال هذه العبارات الواقية ، كما أن لدينا  
منها قدر كبير تحدر إلينا من الأجيال السالفة .

وكل أمة تحفظ عبارات السلف في صورة الحكم والأمثال ،  
والأسرة تحتفظ بها في أحاديثها العائلية ، فيقول الفرد منها مثلاً :  
كان أبي رحمه الله دائماً يقول . . . . . أو « أذكر أن جدى كان  
ينصحنى ويقول . . . . . ، وكلنا يشعر بشيء من الفخر في أمثال



هذه الأقوال . والحكمة أو الاقتباس سبب كبير من أسباب الظمأنينة  
النفسية والأمن . ومن الأمثلة السائدة مثلاً « الصدق منجاة والكذب  
مهوأة » ، و « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » ، و « يكفيك من الزاد  
ما بلغك المحل » ، وليست هذه الأمثال وأشباهها حقاً وصواباً على  
إطلاقها ، ولكن فيها النزر اليسير من الصدق ، وتعطينا إحساساً  
بالتأييد الخلق حينما يحدث النزاع بين الحق والباطل ولا نستطيع  
أن نجابه الحقيقة صراحة . والديانات التقليدية أشد وقعاً من هذه  
الأمثال ، لأن المثل الأعلى كلما سما اشتد أثره في عقول البشر ،  
ففي الهندية والبوذية مثلاً أن ما تزرع من خير أو شر تجني ثماره ،  
ولا مناص من ذلك فإن فاتك الجزاء في هذه الدنيا فأنت لا بد  
ملاقية في الآخرة . والهندي الذي لا يهتم بنعيم الدنيا كما نهتم ، ويكره  
الجهد والكفاح ، يقوم في نفسه الشك والنزاع ، ولكنه يخلص  
من هذا الصراع الباطني بقبول الفكرة القائلة بأن كل ما يقع للإنسان  
نتيجة حتمية لأعماله الماضية التي لا يمكن محوها ، فلا داعي للجهد  
والمشقة . لا بد مما ليس منه بد . ومن ثم كان الخمول وقلة الكدح  
وعدم القدرة على التنفيذ التي يعير بها الغربيون أبناء الشرق . والجمهير  
الهندية تجهل هذه الحقيقة : وهي أن الحاضر لا يغير الماضي  
ولكنه يؤثر في المستقبل . إنهم إن واجهوا هذه الحقيقة احتدم لديهم  
النزاع بين الخمول والنشاط . ولكن الرجل الذي لا يكره الجد  
والنشاط هذه الكراهية كلها ، والذي يقدر النجاح في الدنيا قدراً



كبيراً ، والذي يثور ثورة شديدة في وجه الألم والخسارة ، يحاول أن يخلق لنفسه كثيراً من المخففات فيقول مثلاً : إن الخطيئة لا بد أن تلقى جزاءها ، ولكن الله غفور رحيم ، والأنبياء لنا شفيعون ، ويقول :

من يصنع المعروف لا يعدم جوازية

لا يذهب العرف بين الله والناس

والرجل الذي يحمي نفسه بنسيج من الدين والفلسفة لديه خوف لا شعوري عميق من أن يسقط هذا النسيج ويبقى هو عرضة للهجوم . وإذا أثرت عقيدة الخوف هذه في شخص ما ، قابلك بالاستياء والغضب والرغبة في الإيذاء بشكل ما . ويمكنك أن تشير ألطف الناس وأكثرهم وداعة وتبعث في قلبه الغلظة إن أنت هاجمت معتقداته أو أهواه . وإذا مس المصلح أمته في أمانها وعمائدها - والمصالح رجل عود نفسه أن يجابه الحقيقة بكل صراحة - استجابات الأمة بالغضب والاستياء والثورة ، وقد تنفي هذا المصلح - والحق على لسانه - أو تجد وسيلة شرعية لقتله والتخلص منه . لما ظهر المسيح ثار اليهود لا لأن عيسى عليه السلام كان يقود ثورة ما ، ولكن لأنه كان يعكر صفو نفوسهم وهدوئهم ، ويتدخل في فهمهم لحقائق الأشياء . وقد لاقى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أذى شديداً على أيدي الجاهليين لأنه أراد أن يحطم أصنامهم ويهديهم إلى عبادة الله . لهذه الأسباب كان كبار المصالحين يلاقون -



خلال الأجيال التاريخية جميعاً - شديد الاضطهاد . وفي حياتنا  
اليومية قد يشكو الرجل الخوف من أن يصطدم بحقيقة مريرة  
تقلب له ما تعود من نظم الحياة ، وتحتم عليه أن يحسيك فلسفة جديدة .  
وما أسرعنا إلى اتهام أمثال هؤلاء الناس بالتعصب الديني أو بالتمسك  
بالتقاليد وضيق الفكر لأننا لا ندرك مقدار الشلل الذي يصيب  
الفكر من الخوف . ولكننا نكرر ثانية أنه بينما يلعب الخوف  
الشعورى دوراً صغيراً في حياة المرء المتمدن ، فإن المخاوف  
اللاشعورية هي التي تتعقبنا بغير انقطاع حتى نأقن بها إلى دائرة  
الشعور ونجابهها .

ومن الناس من يخشى أن يواجه شخصيته وأخلاقه ، ويعيش في خوف  
لا شعورى لأنه لا يريد أن يعترف بأن الباعث الأعلى له في الحياة  
ثانوى أو تافه ، ولا يقر بأنه يحيا حياة الاثانية وحب الذات .  
ونحن نظن - ونحن مخطئون - أن خير الرجال في هذه الدنيا أكثرهم  
إحساساً بهذا الخوف . والواقع أن حب الإنسانية المجرى لا وجود  
له البتة ، وبخاصة في هذا العصر الذى نعيش فيه . ولذا ينبغى أن  
نجاهبه الحقيقة وأن نعترف بالاثانية وحب النفس . أجل إنك قد  
تجد رجلاً شقيقاً كريماً غير محب لذاته ، عطوفاً ، يحب غيره . ولكن  
إن يكون ذلك إلا إن كان له فيه مصلحة ونفع ، وربما كان يرمى  
إلى إشباع شهواته الخاصة ورغبته فى أن يصفه الناس بهذه الصفات .  
ومن الحقائق الثابتة أن أكثرنا يبذل حياته إما فى قضاء ما تدفعه



إليه ضرورة العيش ، أو في أداء ما تدفعه إليه ميوله ، وواجبنا أن ندرب النفس على أن تريد أو تشتهي خير الطرق وأجداها ، ولما كنا إذ نفعل ذلك لسنا في الواقع محبين لغيرنا غير أنانيين ، وإنما تلك صورة أخرى رفيعة لإرضاء النفس . وقد نجح الرهبان والمتصوفون في إنكار الذات ، غير أن عامة الناس ما زالت أبعد ما تكون عن الإيثار . ولذا فإن من المخاوف التي تحتاج إلى المجابهة الصريحة الخوف من ادراك هذه الحقيقة : وهي أن البواعث التي توحى خير فعالنا أنانية في طبيعتها لا يرمى بها الإنسان إلا إلى إرضاء ذاته .

وإن أردنا أن نتحرر من المخاوف فينبغي أولاً أن نتشجع ولا نجبن ، فإن الشخص الذي يأبى أن يواجه مخاوفه الباطنية أشبه ما يكون برجل انقض عليه اللصوص ويهددوه وتوعده ؛ فإن لاقاهم بالبسالة والشجاعة نجا منهم ، وإن وهن أمامهم وخارت عزيمته وقع فريسة لهم . والخوف تهديد مستمر من اللا شعور للشعور . والآلام التي تتجم عن مواجهة الظالم مرة واحدة لا تقاس بالشقاء الأبدى الذي يلازمك إن كنت دائماً تعيش تحت رحمته . ولا يكون الرجل حراً في حياته حتى يمكنه أن يواجه كل حادثة تقع له في حياته . ولما كنا نسكبه ذلك ونؤثر أن ندفع الثمن غالياً !

ويجب ألا نخشى مجابهة الحقيقة ، فهذا أيسر من تجاهها ، كما يجب أن نعلم أننا إن كنا نحب شيئاً ما حباً يجعلنا في قلق دائم عليه وفي خوف لا ينقطع على فقدانه ، فإننا لسنا خيراً حالاً منا لو فقدنا



ذلك الشيء فعلا ، ( والناس من خوف الفقر في فقر ) .  
ولكننا يجب كذلك أن نذكر أن المخاوف اللاشعورية عند  
الكثير منا قد غاصت في هوة سحيقة ، حتى أننا قد لانستطيع أن نخرجها  
إلى الشعور بأنفسنا ، ولذا فواجبنا أن نستترشد بأطباء النفس ، فهم  
في هذا أكثر منا علما وتجربة ، وقد يستطيعون بخبرتهم وعلاجهم  
أن يخففوا عنا كثيرا من أعباء الحياة .



## غريزة السيطرة

### ١ — عن الأطفال

قل من يدرك أهمية الخوف اللاشعوري وانتشاره بين الناس  
كعامل فعال في حياة المدنية في هذا العصر . ومن الجلي أنا لو  
أدركناه ، لانتقل من اللاشعور إلى الشعور ، وأمكن علاجه  
بطريقة ما .

وما يصدق على الخوف يصدق على حب السيطرة . هناك مخاوف  
شعورية نعرفها جميعاً ، وهناك حب للسيطرة كلنا يدركه . فنحن نعلم أن  
نابليون والاسكندر الأكبر وصلاح الدين كانوا يحبون السيطرة ، بل  
أنا لنستطيع أن نحصى كثيراً من معارفنا الذين يصح أن نطلق عليهم  
وصف الطغاة ، تلتهمهم الرغبة في حب السيطرة . ولكن كلا منا  
يبرئ نفسه منها . وقد يستمتع أحدنا بمركز من مراكز السيطرة  
والتبعية يلقي عليه إلقاء ، فيقول لنفسه رياء إنه يؤثر — لو كان له أن  
يختار — أن يعيش عيشة هادئة لا تتطلب منه جهداً في الحكم والإدارة  
وتحمل التبعات . وقل أن تجد فرداً عادياً يعترف ويقر بغريزة حب  
إظهار السيطرة .

وهناك بطبيعة الحال أسباب عدة لهذه الظاهرة ، فإن العرف



العام الذي يجرى عليه المجتمع يقاوم الخضوع للآخرين كما يفرض على الرجل المهذب ألا لا يبدي سلطانه على غيره إن كان له سلطان . نرى الطفل ينازع ويجاهد كي يتخذ مكانة القائد ، ويظهر صراحة بطرق عدة رغبته في التفوق والتصدر ، ولكن حياة الجماعة سرعان ما تقف في وجه هذه الرغبة الصريحة ، وسرعان ما يتحول القمع الإرادي لهذه الرغبة التي لا تقرها الجماعة إلى كبت لاشعوري ، فتختفي حتى عن صاحبها ، وذلك لأننا لانحب أن نخرج على قواعد الرأي العام . وكلما تقدمت بنا الحياة غاصت هذه الرغبات المكبوحة في وهدة اللاشعور ، وبات من العسير إعادتها إلى دائرة الشعور ، ولكن التجربة قد دلت - رغم ذلك - على أن رغبة السيطرة من الغرائز الأساسية لدى كل إنسان عادي .

وكما أن الخوف وإرادة الحياة تقيضان يفل أحدهما من حدة الآخر ، فكذلك إرادة السيطرة والإحساس بالحطة ، كلاهما يعمل على الفت من شدة الآخر . ومن الضروري أن توازن بين الرغبة في السيطرة والإحساس بالتقييد ، فإن الرجل الذي لا يحس بحدود سلطانه متهوس مخبول ، والرجل الذي يسلم قياده لإحساسه بالحطة ينمى في نفسه المناخوليا *melancholia* أو جنون الاكتئاب وبين هذين الحدين المتطرفين درجات متعددة من التوازن

والرغبة في السيطرة - حينما تشتد بالمرء وتصبح لديه شهوة قوية - مظهر كرهه ذميم لتدفق الطاقة الحيوية ، يدل على أنها لم تجرف في مجراها



الصحيح . ولكن أعمال الإنسان جميعاً ، في دوائر التجارة والعلم  
والفن والنشاط الروحي ، إنما هي إلى حد ما نتيجة مباشرة لهذه  
الرغبة ، ولولاها لبقينا على حالة التوحش والهمجية . وتاريخ  
الإنسانية وتقدمها كله نتيجة لهذه السيطرة . فقد خرج الإنسان من  
طور الخضوع لموامل الطبيعة إلى طور السيطرة عليها وتسخيرها .  
يبدأ الفرد في طفولته كفاحاً طويلاً في إبراز هذه الرغبة وحب  
السيطرة على البيئة المحيطة به ، فيجاهد أولاً للسيطرة على أعضائه ،  
ثم يكافح كي يقر والديه وما يحيط به من أشياء على إرادته ، ويجد  
أن البكاء يكسبه نفوذاً على أمه فيستخدم هذا السلاح حتى يبيت  
عديم الأثر ، ولما تفشل حيلة البكاء يحاول استخدام المداهنة فيمرن  
على شارات خاصة ونغم خاص في الحديث ، فإن وجد هذه الوسائل  
ناجحة دأب عليها حتى آخر عهده بالطفولة . ومنهم من يبقى على عادة  
البكاء حتى سن متأخرة ، وقد شوهد في رياض الأطفال عدد كبير  
من الصغار تأخرت عادة البكاء لديهم طويلاً وشق على المعلميات  
العلاج . وإن فشلت هذه الوسائل جميعاً في التغلب على الظروف  
لجأ الطفل إلى وسائل أخرى كثيرة ، فينصرف عن رغبته  
في استعباد الناس - تلك الرغبة التي لا يقره عليها أحد - إلى  
اخضاع الأشياء الجامدة التي لا حياة فيها ؛ وقد أدركت  
مدام منتسوري في تجاربها مع الأطفال الإيطاليين الشواذ ما أدرك  
الكثير من الأمهات من طبقة العاملات من عهد قديم ، وهو أن



الطفل أسعد بالسيطرة على الأشياء الحقيقية منه باللعب وبحل جميع المشاكل له ، وأن في إعطاء الطفل فرصة لبسط نفوذه وقوته ونبوغه على ما حوله تحريراً لطاقته الحيوية المشحونة ، وخير تمهيد لتربيته وتدريبه .

إن أبناء الطبقة الفقيرة الذين يحملون المكناس وينظفون حجرات بيوتهم أسعد حظاً من زملائهم الأغنياء الذين يذهبون إلى الحدائق مع مربياتهم . والأطفال يحبون من اللعب ما كان كثير الضجيج ، إذ لم يبق لأبناء الطبقة الرفيعة من أسباب التنفيس عن هذه الغريزة إلا القدرة على إثارة الصخب ، فإذا حرمت الطفل هذه اللذة يشبع بها غريزته ، فقد يؤدي من الأعمال ما نستاء له أكثر من ذلك ، كأن يلعب بالطيور ويؤذيها ، أو أثاث المنزل فيضر به . يحلم الطفل أنه قائد جيش أو قبطان سفينة أو صاحب سيارة ، أي أنه يحلم أنه سيد على شيء كبير قوى نافع للمجتمع .

وكم من والد ومعلم في هذه الأيام قد أدرك الحقائق التي أذاعتها مدام منتسوري بين الناس بشأن تربية الأطفال ، ولكن كثيراً ما يفقد الطفل إحساسه بالسيادة والاعتماد على النفس الذي تغرسه فيه روضة الأطفال ، وذلك حينما يخرج من هذا الدور إلى دور المدارس الابتدائية والثانوية .

والنتائج التي تترتب على التعليم ، الذي لا يعطى الطفل إلا النزر اليسير من إرادة القوة ، عديدة متنوعة ، لا نستطيع أن نحصيها هنا



جميعاً . ومن الحقائق التي أثبتتها التجربة أننا كلما عنيينا بالطفل وشددنا عليه الرقابة ساءت النتائج ، فإن الأم التي تتركس حياتها لابنها ، وتتحرق شوقاً لأن ينمو طفلها نمواً كاملاً ، إنما تسيء إلى هذا الطفل ، والإساءة أشد إن كانت طفلة لا طفلاً ذكراً . فإن الطفلة التي تجرد من ينظفها ويلبسها ، والتي تجرد دائماً من يرشدها ، والتي يحاول كل من هم أكبر منها سناً أن يدخلوا إلى قلبها السرور طيلة اليوم ، والتي لا تجرد مجالا لإظهار إرادتها وعزيمتها ، والتي لا تبرحها عين الرقابة في كل ما تعمل والتي يتحدث الجميع بشأنها ، والتي تلفها أمها جيداً قبل أن تخرج إلى الجو البارد ، وتخلع عنها لباسها كلما عادت ، والتي يبين لها أولو أمرها كيف تتصرف في مالها الخاص ، وماذا ينبغي لها أن تقرأ وما لا تقرأ ، والتي لا تؤدى عملاً شاقاً ، ولا تعاني ألبته الماء جثانياً ، والتي تجرد دائماً من يسألها ما يدور بخلدتها ، مثل هذه الطفلة المسكينة إما تفقد وهي في سن التاسعة أو العاشرة كل إحساس بالاعتماد على النفس وقوة الإرادة ، وتصبح لا عزيمة لها ، وإما تتبادى في سوء سلوكها ، وتدهش بتصرفها أولى أمرها ، وتصبح في هذه الحال الأخيرة عنيدة صلبة الرأي ، لا يرضى عنها والداها ولا من تتصل بها . أمثال هؤلاء الأطفال يبدأون حياتهم الدراسية عنيدون متعبين للمعلمين والمعلمات . إذا تدخل في رغباتهم أحد ، أو أراد إصلاح خطأ فيهم ، لاذوا بالعويل والصياح ، أو بالتعجهم والعبوس . ولكن إذا كانت المدرسة تهيم الفرصة للاستقلال والتعبير عن



النفس أمكن إصلاح الطفلة أو الطفل ، فيستمد السرور من إطلاق نشاطه المكبوت ، ويحب المدرسة ؛ ويرى فيها منجاة له من البيت البغيض . وحينئذ قد تشور الغيرة في قلب الأم ، التي يسيئها أن ترى ابنها يبدى مثل هذا النكران للجميل ، ولا يظهر لها محبة كافية .

وفي خلال سنى المراهقة كثيراً ما يصبح هذا النضال بين البيت والمدرسة شديداً حاداً ، لأن حب القوة والرغبة في الاستقلال يشتدان بتيقظ الغريزة الجنسية . هذا إلى أن حدة المزاج التي تنجم عن الحالة الجثمانية كثيراً ما تخرج عن طوق الفرد في هذه السن ، فيصبح المراهق بشورته ، وقبحته ، أو اكتسابه ، فرداً شديداً المراس في البيت . وفي هذه المرحلة قد يجد الطفل أن الحياة المدرسية المنظمة - بل والترتية التي لا تتغير - هيمنة على نفسه ، وأن مضايقات المنزل وشدوذه مثيرة له . يحب الطفل في سن المراهقة أن يضرب في أرجاء المكان على غير هدى ، وألا يعمل شيئاً بعينه ، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أسباب صحية . وفي العمل المدرسي اليومي المنظم المتنوع ملاذ وعون للعقل القلق الحائر . ويا حبذا لو علم الآباء بذلك وتسامحوا وصبروا مع الأطفال الذين تبدو عليهم كراهية البيت .

ولنعد الآن إلى الطفل بعد ما يخرج من سنه الأولى : إنه كلما زاد علمه بحدود مقدرته ، واشتد نقدة لنفسه ، نمت فيه مجموعة من عقد النقص بسبب توجيه إرادته توجيهها غير صحيح . وأكثر أسباب هذه العقد ذيوعا عند صغار الأطفال هي الأسباب الجثمانية ، فالبنات



مثلاً تحس بخطتها عن الولد . وكثير من علماء التحليل النفسى يقولون إن ذلك يرجع إلى الغيرة من مميزات جسم الطفل الذكر ، ولكن الواقع أن إحساس البنات بالحطة يبدأ لديها وهى لما تزل طفلة لا تدرك الفارق بين جسمها وجسم الذكر . وقد يكون هذا الإحساس أعمس بغزيرة السيطرة منه بالغريزة الجنسية . فالبنات تدرك وهى فى سن باكرة أن الولد أكثر منها حرية وأقوى جسماً . وأن الفرص أكثر له سنوحاً ، فهى مثلاً لا تتمتع كما يتمتع الولد بتسلق الأشجار والركض والركوب .

ومن الأسباب الذائعة لعقد النقص حجم الجسم ، فإذا كان الطفل أصغر فى حجمه أو أكبر من متوسط زملائه بقدر كبير كان ذلك سبباً لشعوره بالنقص والخجل والحياء . وكثيراً ما يعرض صغار الجسوم أنفسهم بتوهمهم القيام بأعمال جليلة . وفى غالب الأحيان يحققون أحلامهم بالتفاخر والتظاهر . أما الأطفال كبار الجسوم فيجدون هذا التعويض شاقاً عليهم ، لأنهم لا ينالون من التذليل والتساح ما ينال صغار الجسوم ، وكثيراً ما يسمعون قارص الحكم على قراءتهم أو سوء سلوكهم بالنسبة إلى أجسامهم ، أو يعانون من تنبه أهليهم - وإن حسنت طويتهم - إلى سرعة نموهم . يعلم أمثال هؤلاء أنهم غير محبين ، وإن أرادوا التظاهر بقواهم أنهم أهلوهم وذووهم ، ووصموهم بتهديد غيرهم أو بسوء التصريف . وعلى ذلك فإن نشاطهم قد يتوقف عن التدفق ، فيصيبهم التجهم ، ويصبحون من ذلك النوع « الفردى » ، وفى هذا



خطر كبير . فإن كان الطفل من ذوى العقول الضعيفة ، غير متفوق في الألعاب ، انقلب إلى ذلك النوع البدين المشاغب المعروف في المدارس . هذا إلى أن النشاط المحبوس ، الذى لا يجد منفذاً طبيعياً قد يندفع قبل النضوج ويتدفق فى المجرى الجنسى ، فيكون الطفل من أسوأ أنواع التلاميذ .

والفتاة الكبيرة الجسم تعاني الشعور بالحطة كأخيها البدين سواء بسواء ، ولكنها تعوض النقص بطريقة أخرى ، فهى تعاني من القماء وقلة التودد إليها أكثر مما يعاني الذكر ، ولا نستطيع أن نقول متى تدرك أنها بجسمها هذا غير جذابة من الوجهة الجنسية ، والعادة أن الذكور ممن تخالط فى الأسرة لا يولونها من الالتفات ما يولون من هن أصغر منها جسماً . وإن كانت موهوبة فى الفنون أو الموسيقى أو قوة الفكر وأتيحت لها الفرصة لأن تنمى هذه المواهب أمنت شر العواقب ، ولكنها إن حرمت هذا التفوق أصيبت بالنورستانيا . الفتاة الكبيرة الجسم كثيراً ما تكون ضعيفة فى بنيتها وصحتها ، وهى وسيلة لا شعورية لاجتذاب الالتفات إليها كعملية تستحق الإشفاق ، وإذا ما ظفرت بذلك أحست بشيء من العلو والأهمية .

ونحن نؤكد للقارىء ثانياً أن الولد المشاغب والفتاة المصابة بالنورستانيا كليهما لا يبذل الجهد للتعويض عن النقص وهو فى وعيه الشعورى . إن الإحساس بالحطة قد يكون شعورياً إلى حد ما ، ولكنه قلما يكون كذلك إلى كل حد ، وأما الحطة التى يرسمها المصاب للتخلص



من هذا الاحساس فهي لا شعورية دائماً ؛ ولا فائدة البتة من تنبيه  
مثل هذا الشخص إلى ما يفعل ، وإلى سبب ما يفعل . ولكن طبيب  
التحليل المدرب يستطيع أن يأتي بمعرفة السبب إلى حيز الشعور . أما  
التهم التي يكيلها الآباء والمعلمون جزافاً فلا تجدى ولا تغير ، لأن  
الطفل يرفض التهمة التي توجه إليه بشدة وباستياء ، وتزداد المشكلة  
تعقيداً بمثل هذا التدخل .

والعلاج الوحيد في أيدي المعلمين والآباء هو إيجاد منفذ مشروع  
للطاقة المحبوسة ، وتعويض معقول للإحساس بالحطة ، ومن أمثلة  
ذلك إعطاء الطفل شيئاً من النفوذ والمسئولية ومن أمثلة ذلك  
أيضاً إبعاد الطفل عن البيئة التي يشعر فيها بالحطة . وينبغي كذلك  
أن تعطى الطفل شيئاً يتسلط عليه ويسأل عنه فيما بعد . إنا بذلك لا  
نمهد له — كما يتوهم بعضنا — سبيل التماهي في قسوته أو تهديده  
ومشاغبته ، وعلى أية حال فالمسئولية عن الأشياء الجامدة التي لا حياة  
فيها وعن الحيوانات آمن من المسئولية عن الأطفال الآخرين . وكثيراً  
ما يقترح الطفل نفسه طريقة علاجه ، ولكن أولى أمره يرفضونها  
لأنها قد لا تريح أو تسر بعض أفراد الأسرة الآخرين ، لا لأنهم  
لا يشفقون على الطفل ، أو لأنهم يحبون أنفسهم ، ولكن لأنهم  
لا يفهمون ما يترتب على أمثال هذه الرغبات التي قد تبدو لهم تافهة  
زهيدة . ومن الحوادث التي تذكر تأييداً لذلك أن فتاة لا تتميز  
بالذكاء المفرط أو بالجمال البارع ، كان لها أخوة متفوقون يتميزون  
بالجمال ، فأرادت أن تعوض هذا النقص باقتناء كلب تنفس به عن



غريزة السيطرة ، ولكن الظروف العائلية لم تسمح لها باقتناء الكلب  
فاندست الخيبة والفشل في عقلها الباطن ، ولما حاولت الدراسة العليا  
والحصول على درجات عالية لم تنجح فيما أرادت ، وأصبحت بمرض  
عصبي شديد .

ويقول بعضهم إنه من الميسور أن نطلق طاقة الطفل المحبوسة  
بتعليمه عملاً يدوياً أو تهئية الفرصة له لأن يعشق عملاً بذاته ويهواه ،  
ولكن التجارب لم تدل على ذلك ، فإن الأطفال قد يعطون كل  
أدوات اللعب ، ولكنهم سرعان ما يملونها ، ولن تشغل الهوية خاطر  
صاحبها إلا في فترتين اثنتين : ( أولاهما ) حينما تكون جديدة عليه  
( وثانيتهما ) حينما يمهز فيها صاحبها . ولكن بين الفترة الأولى والفترة  
الثانية ، مدة يسود فيها الملل والضجر ، وقد لا يستطيع الطفل تخطيها  
بغير عون ، فيجب علينا أن نحفزه بكل الوسائل ، فإما أن تصبح  
الهوية جزءاً من حياته المدرسية اليومية ، كما هي الحال الآن في كثير  
من المدارس الحديثة ، وإما أن يشاركه فيها رفاقه وأصحابه ، ويتشجع  
بالمنافسة الودية . كما هي الحال بين فرق الكشافة والمرشديات . وهناك  
بطبيعة الحال أطفال لا يحتاجون إلى هذا الحافز ، ولكننا هنا نتكلم  
عن متوسطي الأطفال لا عن شواذهم .

ومن الأطفال من يعيش في بيوت أو مدارس يخضعون فيها  
لنظام صارم شديد ، فيحسون بالضعف والنقص لأن الطفل الطبيعي  
الصحيح البدن يكره أشد ما يكره أن يكون مرءوساً ، وهو لا يحب



من يريد إخضاعه ، وقد يشور ويهتاج في وجهه . فإن وجدت مدرسة الأطفال فيها يحاولون أن يكون لهم نفوذ على واحد أو أكثر من المتعلمين ، فاعلم أن بهذه المدرسة بعض المدرسين ممن يرون أن حفظ النظام والاحترام هو بالصياح أو بإلقاء الأوامر في عنف وشدة ، وبعدم الاعتراف بالخطأ مطلقاً . وفي مدارسنا الثانوية المصرية كثيراً ما نرى العصيان من جانب الأطفال ، ويرجع السبب في معظم الأحيان إلى القسوة التي يريد بعض المعلمين أن يعاملوهم بها ، ولا يخفى أثر ذلك في مستقبل الأطفال ، ولا شك أن الوسيلة الوحيدة للحصول على العطف - في التربية كما في غيرها من شؤون الحياة - هي إبداء العطف .

وقليل من الناس من يدرك ، حتى في هذه الأيام التي نقدر فيها الطفولة ، مقدار ما يصيب الطفل من الأذى بسبب الإهمال الأبوي في بعض النواحي ما دام الطفل يحسن أن والديه يعنيان به ويحبانه ، وأن مثله في ذلك مثل من يعرفهم من الأطفال الآخرين فلا ضرر عليه . ولما كنت إن شك في أن والديه لا يأبهان له ، فإن الإحساس بالحطة قد يضر به ضرراً بليغاً ، ويبدو عليه بشكل قوي ، والأمثلة الآتية توضح ما نقول .

كانت فاطمة فتاة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها ، وكان والداها لا يعنيان بها كثيراً ، وكثيراً ما يدفعان بها إلى أقاربها وأهلها تخلصاً منها ، وكانت الفتاة ذكية أنيقة جميلة ، ولكنها شديدة



المراس لا يسلس قيادها ، وقضت بالمدرسة سنوات وخرجت منها  
لا تعرف القراءة أو الكتابة ، وكانت لها عادة غير مستحبة . وتلك  
أنها كانت دائماً تتطلب التفات الكبار إليها ، وتسعى إلى ذلك إما  
بالثرثرة في الحديث أو كثرة الأسئلة التي لا معنى لها أو بالتظاهر  
والضجيج ، كما كانت تجذب التفات من هم أصغر منها بتهديدهم  
ومضايقتهم ، وبعد البحث ثبت أن فاطمة كانت تفكر وكانت تشك  
في حب أمها لها ، كانت تسأل نفسها « هل هناك من يحبني أكثر من  
أمي ؟ هذا مستحيل ، ثم تقول « ولكن أمي لا تحبني ، ولذا فأنا  
أختلف عن غيري من الأطفال ويعوزني شيء في حياتهم جميعاً »  
وكانت طريقتهما اللاشعورية للتعويض عن محبة أمها أن تحصل بالقوة  
- كلما سنحت لها الفرصة - على التفات الناس إليها ، وتفوقها عليهم ،  
وعلى المحبة التي حرمتها من مصدرها الطبيعي .

وإليك مثال آخر : كان زكي غلاماً في الرابعة عشرة من عمره  
ببناه منذ طفولته زوجان غنيان لا ولد لهما ، وكان هذان الزوجان ،  
يأتيان له بكل ما وسعهما شراؤه بالمال ، ويفيضان عليه عطفاً ومحبة ،  
ولكنهما لم يذكر له حقيقة والديه ، وقد عرف يوماً صديقاً سيئ  
السريرة ، غيوراً ، فألح له هذا الصديق عن حقيقة الأمر فاعتقد أن  
أمه هجرتة في طفولته ، ولكنه لم يستطع أن يقطع بصحة ما أُلح إليه  
صاحبه ، ففضى عهداً من صباه مكتئباً حزينا ، لا يستطيع أن يستقر  
على عمل أو لعب ، ينعزل في غرفة خاصة ويفكر في هذه الحقيقة



المرّة: وهى أن أمه قد نبذته . فتميز هذا الطفل البائس بعدم  
الاكتراث ، وبالقلق الشديد ، وحب الانتقال من حال إلى حال ،  
وبالافتقار ، وحب النفس ، ووحدة المزاج ، والانفعال الشديد ،  
والتفاخر بأموال أبيه ومكانته الاجتماعية .

( وهذه الصفة الأخيرة وهم باطل ، فإن الأب الذى تبناه لم  
يكن من ذوى المسكينة ) ، ولما بلغ زكى السادسة عشرة ، اضطر الرجل  
الذى تبناه أن يخبره صراحة بحقيقة مولده ، فلما عرف الطفل حقيقة  
استقام سلوكه تدريجاً بعد ذلك ، فلم يعد - كما كان - عديم الاكتراث ،  
شديد الانفعال ، وشرع يصلح من أمر نفسه ، وجد فى الدرس ،  
ونال الدرجة الجامعية بامتياز ، وبدأ حياة عملية نافعة .

وهناك أمثلة أخرى من إهمال الوالدين أو جهل الأبناء بهم ،  
ولكن ليس لها من الأثر ما للأمثلة التى ذكرنا . ومن النتائج الشائعة  
بين الأطفال من إهمال الآباء لهم ، شرود الذهن ، الذى كثيراً ما نسيء  
فهمه ونظنه كسلاً أو خمولا . فى هذه الأحوال يصرف الطفل طاقته  
الحيوية - وهى دائبة النشاط فى ناحية ما - فى التعويض عن حطه  
الموهومة بأحلام اليقظة الشاردة التى يرى نفسه فيها بطلاً محاطاً بكل  
مظاهر الحب والإعجاب . هذا الضرب من الوهم شائع بين الأطفال ،  
وهو وسيلة للتعويض عن ضروب مختلفة من الحطه قد لا تتصل  
البتة بالوالدين .

ومجب أن نفهم أن هذه الملاحظات عن الإحساس بالحطه ، الذى



ينشأ عن نقص العناية الأبوية ، لا تنطبق على الأطفال الذين يفصلون  
عن والديهم إما بموت الآباء أو بمقتضيات الظروف القاسية ، كأن  
يتربى الولد في القاهرة بعيداً عن والديه اللذين يقطنان الريف ، فإنه  
في هذه الأحوال قد يعوزه العطف وحسن التوجيه ، ولكن هذه  
المشاكل تختلف عن تلك التي تنجم عن إهمال الوالدين لأبنائهم عمداً ،  
أو عدم محبتهم لهم ، أو عن ظروف مخزية مشينة ترجع إلى أسباب  
غامضة لا يعرف مداها . وفي حوادث الطلاق كثير مما يؤدي إلى ذلك .  
ومركز الرجال أو النساء الذين يتبنون الأبناء شاق عسير ، لأنهم  
ينبغي لهم أن يفكروا دائماً في ما يجب أن يقال وما لا يجب أن يقال .  
وأما ما يجب تحاشيه على أية حال فهو السكوت والكذب ، فالسكوت  
غير مستحب حتى وإن كان الطفل يعلم حقيقة الأمر ، وذلك لأنه  
- لاشك - ينسج حول الموضوع نسيجاً من الوهم والكآبة إذا لم  
يذكر أمامه الموضوع بصورة ما . والكذب ضار لأن الحقيقة  
سوف تظهر ولا مندوحة ، وحينما تظهر قد تكون الصدمة شديدة  
الوقع لأنها تكون حينئذ مضاعفة ، فهي ترجع إلى فقد احترام  
والديه (بالتبني) كما ترجع إلى أثر علمه الجديد بحقيقة الأمر . والكارثة  
أشد وقعاً إن اتضحت الحقيقة في سني المراهقة العصبية ، حينما تكون  
الشخصية لدنة مرنة وفي دور التكوين . ولذا فهذه الحقائق المرة  
ينبغي أن تعرض صراحة على الطفل في سن باكورة ما أمكن ذلك ،  
أي حينما تبدو أدنى إشارة إلى حب الاستطلاع . فكلمها بكر بمعرفة



هذه الحقائق خف وقع الصدمة ، لأن الحقائق البغيضة ، إن وصلت إلى النفس بصراحة ويسر ، لا تصل إلى الأعماق ، ولا تسبب الأوهام الكئيبة . وإنما الأمور التي يظن الراشدون أنها غير سارة ، ولا ينبغي ذكرها ، هي التي تسيطر على أذهان الأطفال .

ورغم ذلك فإنه إن كان لابد من إخبار الطفل ببعض الحقائق التي تسمى إلى والديه ، فإنها يجب أن تعرض بكل رفق ، فإنك إن أغلظت في القول ، وذكرت له أن أباه كان رجلاً شريراً غير رحيم بأمه ، أخطأت خطأ كبيراً ، وربما لو ثت أحكامه عن الرجال والنساء جميعاً في حياته المقبلة . لأن من الحقائق النفسية الثابتة - التي سوف نعالجها بشيء من الإسهاب فيما بعد - أن الأم تبقى طوال الحياة في العقل الباطن المثل الأعلى للأنوثة كما يبقى الأب المثل الأعلى للرجولة . وإن أردنا أن نعلم الطفل الصغير العطف والتسامح والإشفاق ، ويجب أن نستغل هذه العواطف حينما نمده بالحقائق المرة . وينبغي أن نعلم كذلك أننا لا نستطيع أن نقول للطفل الخبر مرة ثم نعتقد أننا بذلك قد انتهينا منه ، بل يجب ألا نغفل عن ما نذكره للطفل وهو في الخامسة أو السادسة قد يغوص في أعماق عقله الباطن ، حتى إذا ما بلغ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أكد مخلصاً أنه لم يسمع بالخبر قط ، ولذا يجب أن نعاوده الحديث حين بعد الآخر . حدث مرة أن فتاة في التاسعة عشرة من عمرها وقعت في مشاكل عقلية ونفسية بسبب ما قرأت من أدب الحب وقليلاً من نظريات



بونج وفرويد ، وقد أقرت بأنها نشأت تجهل كل الجهل كل ما يتعلق  
بالشئون الجنسية من الوجهة الجثمانية . ولكن بعد التحليل ثبت أنها  
تعلمت ما فيه الكفاية في طفولتها عن طريق الصور والرسوم فيما  
يتعلق بالشئون الجنسية عن الحيوان والإنسان على قدر ما يدرك  
الطفل . هذه الدروس الباكورة تلقتها الفتاة في وقت لم تشوق فيه  
لمعرفة هذه الأمور ، ولذا فقد نسيت كل ما يتصل بها كما ننسى السنين  
في علم التاريخ ؛ أو ربما كان العلم بهذه الأمور بغيضاً على نفسها  
فكبتته عامدة : ومهما تكن الحقيقة ، فمما لا شك فيه أن الأطفال  
لا يتذكرون كل ما يسمعون ، ومن الضروري أن نذكرهم ببعضه  
بين الحين والآخر ، وأن نجعلهم يحسون بأنا على أهمية لأن نناقش  
هذه الموضوعات معهم في أي وقت من الأوقات ؛ ولا أقل من  
أن نذكر الأطفال اليتامى بأبائهم بالصور أو بإحياء أعياد ميلادهم  
أو ما إلى ذلك ، فإن الطفل - حتى إن كان لا يدين لأبيه بالشيء  
الكثير - أقرب إلى محبته إذا كان عيد ميلاد الوالد يرتبط في ذهنه  
بالعطلة أو الوليمة .

وفي هذه الأيام التي يدعو فيها الكثير من الخبراء إلى التعليم  
المشترك بين الجنسين ، يجدر بنا في هذا المقام أن ننبه الأذهان إلى  
بعض المشاكل التي تنشأ من اختلاط الجنسين أثناء التعلم . هذا التعليم  
لم ينتشر بعد في مصر ، بل ولا يزال قليلاً في إنجلترا ذاتها . وهناك  
من المدارس الأجنبية ما يشارك الجنسين في التعليم إلى سن معينة .



وهناك مدارس يكثر فيها البنين ، وأخرى - على النقيض من ذلك - يغلب فيها البنات .

وهذا الموضوع واسع الأطراف ، متشعب النواحي ، ولا نستطيع أن نمسه في هذه العجالة القصيرة إلا مسأ خفيفاً . ولكن لامراء في أن تطبيق هذا النوع من التعليم تطبيقاً ناقصاً ( بأن لا يتعادل الجنسان في المدرسة ) تترتب عليه أخطار جسيمة . ومن الجلي أن الأطفال الذكور - إن قل عددهم في مدارس البنات - شعروا بالحطة . وكذلك البنات في مدارس البنين ، فهن يختلطن طيلة النهار مع رفاق كثيراً ما يكونون أقوى منهن جسماً وأصلب عوداً ، وأكثر تفوقاً في الألعاب النظامية . وإذا لم يتوفر للبنات المزاج والجسم اللذان يعاونانها على أن تلحق بالولد ، فهي تشعر دائماً بالنقص ، وإن لم تستطع أن تقلد الأولاد ، فربما أشبعت رغبتها الغرزية في العلو والتفوق بأن تسمح لنفسها بالتدليل والاهتمام من جانب كبار الأولاد والمعلمين ، وليس هذا أو ذلك مما يستحب أو يرغب فيه ، وهناك فكرة تدور في خلد بعض الآباء بأن البنات إن توجهن إلى المدرسة مع أخوتهن الذكور تقوت الرابطة العائلية وازدادت وثوقاً ، ولكنهم يفتشون أن الأطفال ما يكادون يلجئون باب المدرسة حتى تصبح الروابط العائلية ثانوية بالنسبة للروابط المدرسية ، وأن الأخت قد لا تقابل أخاها طيلة اليوم المدرسي ، بل وربما كانت متابعة الأخت لأخيها في الطريق من المدرسة إلى البيت ومن البيت إلى المدرسة مضايقة له ،



وقد لا يسره أن يسمع من زملائه أنهم يشفقون عليه من ملازمة  
أخته له .

ومن المستحيل - كما ذكرنا من قبل - أن نعدد جميع الأسباب التي  
تبعث على عقد النقص عند الأطفال . فالطفل الذي يتلثم في الكلام ،  
والطفل البدين ، والطفل الفقير الذي لا يستطيع أن يجارى زملاءه  
في البذخ والإسراف ، والطفل المصاب بإصابة تمنعه من المساهمة في  
اللعب ، والطفل الذي لا يرتدى كما يرتدى غيره من فاخر الثياب ،  
والطفل الذي ليس له اسم جميل ( كالحمار والجحش الخ . . . ) - وغير  
ذلك كثير مما يسيء إلى الطفل ويشعره بنقصه ، ويؤدي به إلى أن يسلك  
مسلكاً شاذاً لا يتفق البتة والبواعث التي تدفع إليه . أعرف فتاة في  
الحادية عشرة من عمرها عادية في كل شيء ، ولكنها لا تعرف القراءة  
والكتابة ، وذلك لأنها أيام طفولتها الباكورة كانت تعاني كثيراً من  
سخرية الناس بها كلما أخطأت ، وكانت لا تقاوم أو تمتنع شعورياً ،  
بل ولا تذكر ما بقيت من سخرية ، ولكن المقابضة اللاشعورية  
والنضال النفسى كان شديد الوقع عليها حتى لقد فشلت تماماً رغم  
مابذلت من جهد ؛ وبقيت كذلك حتى خرج سبب التأخر من  
اللاشعور إلى الشعور . وبدهى أن الأطفال الذين نسخر من خطئهم  
لا يتأثرون كثيراً كما تأثرت هذه الفتاة ، كما أن الطفل البدين أو الهزيل  
أوصاحب الاسم المضحك قد لا يشعر بالنقص لهذا السبب ، فبعضهم  
تسكون لديه عقدة النقص ، وبعضهم ينجو منها ؛ وليس بوسع الوالد



أو المعلم إلا أن يلاحظ ويراقب ويقوم ما يرى من اعوجاج قبل أن يتأصل في النفس .

ويصح هنا أن نتساءل ماذا عسانا فاعلون كي نعين الأطفال في النضال الذي يقوم في نفوسهم بين غريزة السيطرة والشعور بالنقص؟ ينبغي أن نعتقد أولاً أن غريزة السيطرة طبيعية ونافعة، ويجب ألا نقضى عليها، وذلك رغم أن صاحبها — كغيرها من الغرائز — قد يسيء استخدامها ويقلب نفعها ضراً . ولو كبتت وحبست في العقل الباطن فلا مناص من أن يعاني الفرد عقلياً وخلقياً وبدنياً؛ وإذا انصرف في اتجاهات خاطئة كابد المجتمع وانتقم لنفسه من الفرد ومن ثم كان التنفيس عن هذه الغريزة تنفيساً صحيحاً أمراً تجب العناية به .

وهناك اليوم كثير من المدارس الحديثة التي تعطي للأطفال حرية معقولة، وتقوى فيهم العزم وتقرير الذات، ولكن هذه المدارس عينها عانت كثيراً في أول أمرها عند ما شرعت تمنح التلاميذ قسطاً من الحرية الشخصية . ولعلنا نشاهد هذه الظاهرة في مدارسنا المصرية في العهد الأخير، فقد تمتع التلاميذ بقسط وافر من الحرية في عهد الاستقلال، ولكنهم كثيراً ما أساءوا هذه الحرية وحطموا أثاث المدرسة وأجهزتها في مناسبات مختلفة . وقد خرج بعض المرابين من هذه التجربة بضرورة تقييد حرية التلاميذ وإعادةهم إلى ما كانوا يعاملون به من قسوة قبل هذا العهد، ويرى



بعضهم الآخر أن في ذلك دليلاً على ضرورة توجيه نشاط التلاميذ وحريتهم وجهة صحيحة مع الإبقاء على الحرية . ونحن نرى أن الطفل الذي يميل إلى العبث والتخريب يحتاج إلى منفذ لغريزته لا إلى العقوبة ، لأن عقل الطفل الباطن إنما هو مستودع من الطاقة الحيوية ، السيطرة عليها ميسورة ، ولكن بعد أن تجد سبيلها إلى الخارج .

يجب علينا أولاً أن نهني في المدرسة وفي المنزل بيئة صالحة للطفل ينفس فيها عن غريزة السيطرة تنفيساً نافعاً غير ضار ، ثم نذكر بعد ذلك في عقد النقص . ومن اليسير أن يتبين المربي سبب هذا الشعور بالنقص . ومن العبث أن تحاول إقناع الطفل بأن السبب في شعوره بالنقص وهمي لا وجود له ، فهو — إن حاولت ذلك معه — يصرمك بالعمى أو عدم الإخلاص . إنما ما يحتاج إليه الطفل هو الهداية نحو صورة معينة مقنعة من التعويض عن عجزه . أعرف طفلاً ابن طبيب أصيب بمرض جلدي مزمن كان يعوقه عن التنفيس الطبيعي عن نشاطه ، فبدأ يشعر بضعف العقل ، فخطر لواحد من أصدقاء أبيه أن يعلم ابنه مهنة يدوية ، فتعلم الطفل النجارة ، ووجد فيها تنفيساً قوياً عن غريزته ، ونجا بعقله وليس في هذا الحل اليوم غرابة ما ، ولكن هذا الضرب من العلاج كان غير مألوف فيما مضى .

وهناك اليوم العدد العديد من الأطفال الذين لا يبدو عليهم شذوذ ولكنهم مع ذلك يبوءون بالفشل في المدرسة أو في البيت ، ولا يفكر



أحد في أن يسوق أمثال هؤلاء إلى طبيب خاص بالأمراض العقلية .  
ويعتقد كثير من علماء التربية اليوم أن ليس هناك طفل كسلان ،  
وربما كانوا مغالين في ذلك ؛ ولكن مما لا شك فيه أن الطفل لا يولد  
بائساً أو مكتئباً أو غير راض عن حياته ؛ فإن أصيب بشيء من هذا  
فيما بعد ، فإنما يرجع ذلك إلى أن أولى أمره يجهلون الاوهام التي  
تسبب له هذا الغم ، كما يجهلون المنافذ الصحيحة التي ينبغي أن تتوفر له  
كي يرفه عن نفسه .

### ب - عقد الراشدين :

دراسة نفسية الكبار أشد تعقيداً من دراسة الصغار لأسباب  
عدة : أولها أن الهوة بين الشعور واللاشعور عند الطفل ليست  
عميقة لأن خواطره المكبوتة لم يتسع لها الوقت بعد كي تغوص  
في الأعماق . وفضلاً عن ذلك فإن دائرة تجاربه ضيقة ومن ثم  
كانت عقده النفسية لا تنطوي على عوامل متنوعة . هذا إلى أننا عند  
دراسة الأطفال عادة ما تكون لدينا دراية كافية بتجاربههم السالفة ؛  
ويساعدنا هذا كثيراً على تتبع أسباب مشاكلهم واستئصالها . ويرى  
طبيب النفس في العصر الحاضر كما يرى عالم التحليل النفسي أن كثيراً  
من أسباب النورستانيا عند الراشدين يرجع إلى حوادث هينة وقعت  
لهم أيام الطفولة ، ولكنها انحدرت بالتدريج من الشعور وبلغت  
أعماق اللاشعور في متوسط العمر ، حتى بات من العسير على الطبيب



أن يستخرجها إلا بعد أشهر عدة من التحليل النفسى ، بينما أمثال  
هذه الحوادث عند الأطفال قريبة التذكر ؛ لا يجد الطفل مشقة  
فى استذكارها . وقد يضطر الطبيب أول الأمر إلى مواجهة  
« المقاومة » من نوع ما ، ولكن المقاومة عند الطفل طفيفة ضعيفة  
إذا قورنت بها عند الراشدين . ويترتب على ذلك أن مسألة إرادة  
السيطرة وعقدة النقص تصبح أعسر علاجاً عند الكبار منها عند  
الصغار .

ولنلاحظ أولاً أن الرجل العادى يجهل الرغبة العامة فى السيطرة  
التي تتملك الناس جميعاً . وإنه لما يدعو إلى العجب أننا بعد قرون  
عدة من المدنية لانزال نجهل هذه الغريزة الأساسية . كلنا يعلم أن  
الغريزة الجنسية عامل قوى فى حياة الإنسان ، ولا ينكر أحد أثرها  
فى نفسه ، ولكن كثيراً من الناس لا يفهم حب السيطرة على معناه  
الصحيح ؛ ويصور لنفسه أننا نقصد بها إخضاع إخواننا من مواطنينا  
أو غيرهم . ولما كان حب السيطرة على هذا المعنى غريزة غير اجتماعية ،  
فليس من اليسير أن يقر المرء بأثرها فى نفسه .

وهناك صعوبة أخرى تعترضنا عند البحث فى غريزة السيطرة  
عند الكبار ، وتلك هى أن هذه الغريزة ترتبط أشد الارتباط  
بالغريزة الجنسية ، وبين الشكل الأول من هذا الكتاب أن الطاقة  
الحيوية تشبه التيار المتدفق الذى قد ينساب لوقت ما فى قناة دون  
الأخرى ، ولكن التيار واحد ، والجزيرة التي تقسم التيار إلى



مجر بين تمثل الظروف والبيئة . الجنس والقوة كلاهما عند الإنسان والحيوان شيء واحد في أساسه ، ويشاهد في البلاد المتقدمة أن أحدهما قد يقوم مقام الآخر ويسد مسده في حياة الإنسان اليومية ، وقد تقوم المهنة مقام الزوجة ، وفي التعبير الأدبي يصح أن نقول عن كتب المؤلف ورسوم الفنان إنها « أطفاله » وهذا يدل على امتزاج الغريزتين ببعضهما ، ولذا فبحثنا في هذا الفصل إنما هو البحث في جانب السيطرة من غريزة الجنس ، وسنعالج في الفصل التالي جانب الجنس من غريزة السيطرة .

وأيسر طريقة لعلاج غريزة السيطرة عند الكبار أن تبدأ أولاً بتحليل رجل — أو امرأة — هذه الغريزة تلعب في حياته دوراً عادياً صحياً غير شاذ . ولتأخذ على سبيل المثال مزارعاً ناجحاً في عمله وصانعاً ماهراً في صنعتته ، وزوجة موفقة ، فهؤلاء جميعاً يشتغلون بمهن تحتاج إلى المهارة وقوة الحكم وبعد النظر ، وينتجون أعمالاً مرضية محسوسة تراها العين المجردة ، وكلها نافع للمجتمع ، فالمزارع يبذل القوة ويستخدم المهارة في فلاحه الأرض ، ويعني بالبهائم ويديرها في العمل ، ويرأس العمال ، ويجمع المحصول ، ويحفظ أمواله وما إلى ذلك ، وكلها زادت مهارته زادت ثروته ، والثروة له مصدر جديد للقوة والسيطرة فهو بها حر يستطيع أن يتزوج وأن يجد منفذاً لغريزتي الجنس والأبوة ، ولاداعي لحجز الطاقة الحيوية عن التدفق في إتجاهها الطبيعيين . وهكذا الحال مع الصانع الماهر



والزوجة القادرة . أى أن هناك عدداً كبيراً من العالم المتمدن تتوفر لهم وسائل الحياة الطبيعية المتزنة التى تؤدى إلى الصحة ورضا النفس ولسنا نغنى بهذا أن المزارعين جميعاً والصناع والزوجات قوم سعداء حياتهم متزنة . كلا ، بل أن المزارع الذى يود لو كان موظفاً فى الحكومة ، والصانع الذى يود لو كان يشتغل بالأمور العقلية ، والزوجة التى تود لو كانت معلمة أو عاملة - أمثال هؤلاء لا يجدون منفذاً لميولهم الطبيعية ، ولكنهم يؤدون أعمالاً يرون فيها نوعاً من الذل والاسترقاق ، وربما أصيبوا بالأمراض العصبية والقسوة واختلال التوازن العقلى كغيرهم من أعضاء المجتمع . ولكن الإنسانية فى تطورها من الهمجية التى تتوفر معها المنافع الطبيعية الكافية لغرائز الإنسان الأولية ، إلى المدنية الراهنة ، أمكنها أن تحقق الغاية المرغوبة — من بعض الوجوه — بزيادة عدد المنافع الصحية وتحسينها ، بينما فشلت — من وجوه أخرى — فشلاً ذريعاً .

هناك طبقتان من الناس يتعسر عليهما إشباع الغرائز الطبيعية بطريقة بسيطة مباشرة ، وهاتان هما عمال المصانع والتجار وموظفو المكاتب فى المدن ، والمرأة العانس التى لم تتزوج . وليس من همنا هنا أن نعالج الأخطاء الاجتماعية والاقتصادية التى خلقت هاتين الطبقتين ، ويكفينا أن نعلم بوجودهما ، وأنهما لا يكونان مشكلة اجتماعية اقتصادية فحسب بل ومشكلة نفسية كذلك . والمشكلة التى نواجهها هى أن العدد الأكبر من السكان ينبغى له إما أن يتعلم طريقة عسيرة دقيقة يسمو بنفسه بها ، وإما أن يحيا حياة شقية فاشلة .



نعم إن كل امرئ — مهما كان سعيد الحظ — ينبغي له خلقياً وروحياً أن يسمو بغرائزه ، ولكن هذا العمل أيسر حينما لا تقف الظروف عقبة في تدفق الطاقة الحيوية في المجريين الطبيعيين .  
التسامى بالرغبة أو الغريزة هو أن يجد لها المرء قناة غير القناة البدائية المباشرة تتدفق فيها طاقته دون أن يلحق بالمجتمع أذى . وكل امرأة وكل رجل كريم النفس لا يجب الأذى لغيره يحقق بسلوكه شيئاً من التسامى . والرجل الزاهد المتصوف المخلص هو ذلك الذى بلغ به التسامى أعلى الدرجات .

ومميزات التسامى الكامل ثلاثة ، فهو يجب أولاً أن يكون لذيداً ساراً ، ويجب ثانياً أن يكون نافعا للمجتمع ، كما ينبغي أن يحقق للمرء مثله الأعلى . فالفتاة التى تقتنى كلباً كى تشبع غريزه الأمومة فى نفسها ، إنما تغير مجرى هذه الغريزه الطبيعى ، ولكنها لا تتسامى بها تسامياً تاماً لأنها لا تحقق سوى الشرط الأول ، فهى تجد لذه ومتعة فى مداعبة الكلب ، ولكنها تصرف نشاطها فيما لا يفيد المجتمع . وهى فى اللحظات التى تواجه فيها الحقائق تعلم أن هذا المنفذ غير جدير بالتقدير ، ولذا فهو لا يحقق مثلها الأعلى ، والرجل الذى يعتمد فى عيشه على ثروه زوجته ويصرف وقته فى اللهو بالرسم أو بالتصوير يشبه فى نفسيته هذه الفتاه صاحبة الكلب .

والفتاة التى تياس من الزواج فتكرس حياتها للخدمة الاجتماعية أو تلتحق بالدير ، إما لإحساسها بالواجب ، أو كى تفر



من الحياة المنزلية ، قد تتسامى بنفسها تسامياً يحقق الشرطين الثاني والثالث ، ولكنها إذا لم تستمد من حياتها هذه لذة ومتعة ، فإن صحتها العقلية والجثمانية قد تتعرض للمرض . وفي الحياة العادية مثال مألوف ، وهو تلك البنت التي تقضى حياتها مخصصة في العناية بوالديها وهما مايزالان متوفري النشاط . إنما هذه الفتاة كسابقتها ، ولكنها لا تحقق الشرط الثاني كما تحققه الأولى ، لأن إنكارها لذاتها قد لا يكون نافعا حقاً لوالديها

والرواية الحديثة في الأدب الإنجليزي تعالج هذا الضرب من التسامى ، ويأجبنا لو فطن أدباؤنا إلى هذا الفرع الجديد من علم النفس ، وكتبوا لنا القصص والروايات التي تبين للقارئ أثر السكبت والقمع في سلوك الناس ، وكيف يؤدي إلى الفشل حيناً وإلى التسامى حيناً آخر .

وفي رأينا أن الفتاة التي تقضى حياتها في خدمة أبيها لا تجد لغرائزها من التفتيس ما تجد غيرها ممن يخرجن إلى الحياة العامة ويشغلن بالمهن المختلفة ، بل ومن يترهبن ويقضين حياتهن في الإخلاص لله وللدين .

الفتاة التي لا تزوج وتبقى في خدمة البيت بأئسة في نفسياتها ويحق لها أن تشور في وجه المجتمع ، ولكنها قل أن تفعل ذلك لأسباب ثلاثة . أولها أن فشلها في الزواج يسبب لها الشعور بالنقص ، وهذا الشعور يجعل العصيان أمراً شاقاً من الوجهة النفسية .



وثانيها أنها لا تدري ماذا تفعل إن هي ثارت على أهلها ،  
وبخاصة إن كانت من غير المتعلبات . وثالثها تربيتها الخلقية والدينية  
وعقيدتها أن العناية بالوالدين هي المثل الأعلى لحياة العذراء ؛ وهي  
بهذه الحياة تحقق الشرط الثالث من شروط التسامى ( وهو تحقيق  
المثل الأعلى في الحياة ) ، ولكن الفتاة - رغم هذا كله - لا تجد الفرصة  
الكافية للتنفيس عن غرائزها الأساسية ، فالأم ماتزال ربة البيت  
وصاحبة النفوذ فيه . والفتاة في الطبقة الفقيرة خير حالا من زميلتها  
في الطبقة الغنية ، لأن الحياة الاقتصادية الضنكة التي تحياها تحتم عليها  
أن تؤدي بعض الخدمات . ويحسن الآباء صنعاً لو وجهوا بناتهم إلى  
الخدمة الاجتماعية العامة كي يشعروا بأنهن يؤدين عملاً نافعاً .

وأمام المرأة الحديثة غير المتزوجة طريقتان تنفس بهما عن  
غرائزها ، وهما مهنة التعليم ومهنة الطب والتمريض . فمن اليسير  
لكثير من السيدات أن يتناسين الغريزة الجنسية المباشرة في غريزة  
الأمومة ، لأن الغريزتين - الجنس والأمومة - مظهران لقوة واحدة .  
وقد تكون غريزة الأمومة أقوى من الغريزة الجنسية . وكثير من  
البنات يحببن الزواج للأمومة ، وقد يضحين براحة أزواجهن في  
سبيل سعادة أبنائهن . ومهنتا التدريس والتمريض - فضلاً عن أنهما  
يهيئان الفرصة للتنفيس عن غريزة الأمومة - كلاهما يحقق شرطى  
للذة والمنفعة . كما أن مهنة التمريض تحقق الشرط الثالث ، لأنها تفي  
بالمثل الأعلى في الحياة في نظر المرأة . والمرأة العادية ترضى بالتمريض



وتتخيل أنها تصبح به موضع الإعجاب والاحترام من الرجال . ولكن التمرّض - رغم ذلك - لا يسمو بالفتاة سمو كاملاً ، لأن العمل إن كان يدها بتجارب مختلفة من نوع معين في أول الأمر ، إلا أنها بعد ما تمرن عليه تجده لا يقتضى منها مجهوداً عقلياً ، فهي لا تحتاج إلى زيادة علمها في الطب ، وهي لا تحتاج إلى استخدام ذكائها وقوة ابتكارها . وكلما طال بها الأمد في مهنتها زادت خبرتها العملية ، ووقف تطور عقلمها ونموه . وسرعان ما تجد أنها لا تعرف من الأحاديث إلا ما يتعلق بالمهنة ، وذلك لأن العقل أثناء التدريب يمثل التجارب كما يمثل الجسم الطعام ، فهو لا يحتفظ به على صورة من العلم التفصيلي الذي يمكن روايته ، وإنما يحوله إلى قواعد وأحكام عامة . والمرضة التي يقف ذهنها عن النمو بسبب قلة استخدامه تصبح غير قادرة على تمثيل المعرفة أو الخروج بها من التفصيل إلى التعميم ، ولذا فهي لا تعرف أكثر من ترداد تفصيلات تجاربها مما يبعث على ملل السامعين .

وهناك خطر آخر في مهنة التمريض ، وهو أن جانب الأمومة والإنسانية عند الممرضة قد يخضع خضوعاً تاماً لجانب السيطرة لديها ، فتسوى إلى من هم دونها .

أما مهنة التعليم فهي أقل من التمريض في تحقيق المثل الأعلى للحياة في نظر المرأة ، لأن مهنة التعليم - رغم شرفها وعلو مكانتها - لا تزال تعاني كثيراً من قلة تقدير الناس لها تقديراً كافياً ، وما تزال



ترسّف في قيود الآراء العتيقة التي علقت بها أيام أن كان لا يتبادلها  
الأكفاء من الرجال والنساء . وليس في حياة المعلم والصورة الوهمية  
عنه — وهي النزاع القائم بين المعلم والمتعلم — ما يشجع على احترام  
هذه المهنة أو تقديرها . إن الرجل الذي يكسب عيشه بتعذيب  
الأطفال والعاجزين لن يصبح بطالا في أعين الجمهور . إنما هو موضع  
لسخريتهم ، والمرأة المتعلمة أسوأ حالا من الرجل في هذا .

ولكن مهنة التعليم — رغم هذا كله — تمد المرأة بسبب قوى  
التنفيس عن حيويتها ونشاطها ، لأنها — إن أخلصت لها المرأة —  
تناشد فيها غريزتي الأمومة والحماية ، كما تمد لها السبيل لإظهار قدرتها  
على الابتكار وبراعتها في الأعمال العقلية الإنشائية . ولكن فيها مع  
ذلك خطراً جسيماً ، فالمعلمة بحكم وظيفتها كثيراً ما تسيء استعمال  
سلطانها ، وقل من المعلمين أو المعلمات من لا ينساق لرغبته الباطنة  
في حب السيطرة . والظلم والاستبداد من الصفات الشائعة حتى في  
خير المدرسين علماً وأرقاهم خلقاً .

وربما كان السبب في ذلك هو أن التنفيس المباشر للغرائز أيسر  
على المرء من التسامى بها ، فالمعلمة عادة تحيا حياة فردية من الوجهة  
الجنسية ، وقد لا تخالط غير زميلاتهما ، وقل أن تسمو بغريزتها الجنسية  
إلى الأوج الذي تتطلبه مهنتها ، ولذا فلا مناص لها من كبت هذه  
القوة في نفسها . وحينئذ تتوقف طاقتها الحيوية عن الانصراف في  
أحد المجريين وتتدفق في مجرى واحد بقوة عظيمة ، ولذا فلا مندوحة



عن إظهار السيطرة على صورتها الهمجية ، واستعمال القسوة والشدة على أشدهما .

والتسامي بالغرائر عند الذكور المشتغلين بالصناعة أو بالوظائف الكتابية أيسر منه عند المرأة غير المتزوجة - من بعض الوجوه - وأعسر من وجوه أخرى . فهو أيسر لأن المهنة في هذه الحال لا تتطلب من الرجل أن يحيا حياة فردية ، فله أن يعيش عيشة زوجية ، وهو في الكثير من الأحيان رجل متزوج له أطفاله وله بيته . وكثير من الرجال يجدون مجالا لبذل نشاطهم الحيوي في التغيير من العمل اليومي الممل إلى ملذات البيت وما فيه من تفریح عن الهموم . ويعطينا هنرى فورد في كتابه « تاريخ حياتي » - وهو في الواقع تاريخ حياة صناعة السيارات المعروفة باسمه - حقائق مدهشة عن موقف الصانع إزاء عمله الممل . يقول فورد إن أنصار الإصلاح الاجتماعي ومحبي الإنسانية ، في صيحتهم في وجه الممل القاتل الذي ينجم عن حياة المصانع ، إنما ينسبون إلى العامل بغضهم هم أنفسهم لمثل هذا الممل ، فهو ( هنرى فورد ) يرى من تجاربه الخاصة أن الأغلبية الساحقة من الناس تؤثر العمل الآلي المتشابه الذي لا يدعو إلى إعنات الفكر والابتكار على غيره من الأعمال ، ويذكر فورد أنه كان لديه في مصنعه رجل ذكى توفر له المال ، ولكنه مع ذلك أثر أن يبقى في عمله الآلي لا يغيره ، وكان يكفيه من التغيير في حياته بيته وشعوره بالقوة والأمن لما له من ثروة .



وربما كان فورد مخطئاً فيما وصل إليه من نتائج ، لأن عماله يتقاضون أجوراً مرتفعة ، ويساهمون في العمل بسهم مالية ، ولذا فالإنتاج والأرباح تهم كل فرد منهم ، وعلى ذلك فهم يختلفون جداً الاختلاف عن غيرهم من العمال في المصانع الأخرى ، فإن لهم متعة ولذة فيما يعملون حتى إن كان العمل في ذاته غير شائق ، وهم يملكون المال وهو نوع من السلطة والنفوذ . ولكن الشركات العادية لا توفر لعمالها من أسباب الراحة ما يتوفر لعمال فورد فلا يجدون مجالاً للتنفيس عن غريزة السيطرة ، فتكثر بينهم الاضطرابات والقلاقل ، ويحبون الألعاب للتنفيس عن نشاطهم المكبوت ، ورغبة في التفوق على غيرهم . كما أن بعضهم يحب قراءة القصص كي « يطابق » بين شخصية البطل وبين شخصه .

وكثير من الطبقة المتعلمة من الموظفين ومن إليهم يحبون قراءة القصص البوليسية ، وهي لهم بمثابة القصص الخيالية عند الأطفال ، لأنها تمدهم بسيطرة موهومة يجوز تحقيقها . ولا يحتاج الرجل إلى جهود كبير كي يطابق بين نفسه وبين البطل كما يحتاج لو كان يقرأ قصصاً خيالية بحتة . وليست قراءة الروايات الخيالية من صور التسامى الرفيعة ، لأن الرجل الذي يقرأ القصة مجرد المتعة إنما ينقل نفسه إلى عالم وهمي لا ضرر منه ، ولكنه في الواقع يفر من مواجهة الحقيقة . فالقصة والمسرح والسنا ما هي في الواقع إلا وسائل مشروعة للتفريج عن النفس من نضال الحياة ، ولكنها لا تستر كل ما بنا من



نقص . ولوعرفت أى الكسب يقرأ الرجل وأى الروايات السنائية  
يجب عرفت الكثير مما يكتب فى نفسه .

وكما ذكرنا آنفاً قل من الناس من ينجح نجاحاً تاماً فى التسامى  
بجب السيطرة الغرزى ، أو كثيرون يفشلون فشلاً ذريعاً . فالغيرة ،  
والظلم ، وبعض ألوان المرض الخفيف ، والمشاجرة ، وسرعة  
الغضب ، والقسوة — كلها مظاهر لعدم توافق الفرد مع بيئته .

وكثير من الناس يفرق بين الغيرة الجنسية وغيرها من ضروب  
الغيرة ، وينسبون الأولى إلى عدم توجيه الغريزة الجنسية توجيهاً  
صحيحاً ، كما ينسبون الثانية إلى قصور فى إعلاء غريزة السيطرة .  
ومهما يكن من شىء فالغيرة فى أساسها عاطفة تنشأ عن الوقوف فى  
سبيل بسط الرجل نفوذه وسلطته . وقل من الناس من يخلو منها .  
وهناك من يظن أن الغيرة الجنسية إن هى إلا حب الرجل إظهار  
رجولته ، والمرأة إظهار أنوثتها ، ولاكننا ان تذكرنا أننا نشاطر هذه  
العاطفة مع الحيوانات الدنيا ، وأنها تسبب عدداً كبيراً من الجرائم  
بين الناس كما تسبب التنافر بين القلوب ، لم تعد لها قيمة فى أعين  
الناس . والغيبة والنميمة يرجعان فى الواقع إلى الغيرة ، لأننا نحاول  
أن نخط من شأن الفرد الذى نغتابه خشية أن يظن أحد أنه يعلونا  
بوجه ما . والغيرة فى المهنة هى الشعور الذى يدفع بنا إلى الضن  
بغيرنا أن ينجح فى عمل نحن به قائمون . ونحن نغير فى الصداقة وفى  
الحب ، لأننا كلما انفردنا بهما ظهر نفوذنا وسلطاننا . إن الرغبة فى



أن يكون الفرد هو خير الناس في نظر رجل ما شائعة بين كثير من الناس ، ومعناها أننا نحب أن نتملك هذا الرجل كي نشبع غرائزنا على وجه من الوجوه .

والمظالم البسيطة ، والمنازعات الخفيفة ، وسرعة الغضب والهياج ماهي جميعاً إلا مظاهر غير محمودة للغريزة قبل التسامى . فنحن في بيوتنا قد نهب في غيرنا لأمر تافه زعماً منا بأن التواني تنطوى على مبادئ هامة ، ولكن الدافع إلى ذلك هو في الواقع رغبتنا في بسط إرادتنا على غيرنا لمجرد السيطرة . وفي أثناء الحماسة والحرارة يمدنا الشعور بسبب معقول للنزاع لأننا لانحب أن نعترف لأنفسنا بأننا إنما نتشاجر لإثبات شخصيتنا ، وبعد ساعة أو بعض ساعة — وربما كان ذلك بعد أذى كبير وضرر بليغ — لايسعنا إلا أن ندهش لسلوكنا . وهذه هي الحال عند ما تتقابل أمتان من الأمم المتمدنة في حرب من الحروب ، فإن الدولة التي تعان الحرب ليس لديها سوى داع واحد حق وهو حب السيطرة . والآن بعد نحو ثلاثين عاماً لو رجعنا بأبصارنا إلى أسباب الحرب الكبرى أدركنا مطامع الدول ، وأنكرنا السبب المباشر وهو الاغتيال الذي وقع في الصرب . وتلشأ هبات الغضب عادة من الوقوف في سبيل إحساس الفرد بقوته ، فقد يحدث له ما يدعوه إلى الإحساس بالنقص ، فيقرر شخصيته على حساب أول فرد يلاقى ويستطيع أن يهدده دون أن يصيبه بأذى . وكثير من نسكاتنا ومن المواقف المضحكة في المسرحيات



أو في القصص الخيالية تدور حول هذه الحقيقة النفسية . فالرجل الذي يعود إلى بيته بعد عمل يوم لم يرضه كل الرضا ، يهب في وجه زوجته وأطفاله وخدمته ، والموظف الكبير الذي يتمتع بنفوذ وسلطان ، يبدي بعد إحالته على المعاش ولا نفوذ له ولا قوة ، فيصبح سريع الغضب والتهيج ، وقد يبغض الزوج حماته لأنها تحب أن تمتد نفوذها إلى ابنتها حتى بعد زواجها وخضوعها لزوجها . وجندى الشرطة في الريف مكروه لأنه يستطيع أن يسوق الفلاحين إلى السجن بتهمة العدوان والإساءة إلى النظام ، فيحاول الفلاحون أن يظهروا مساواتهم له بالسخرية منه .

ومن الضروب السخيفة للتسامي بغريزة السيطرة بين النساء ادعاء المرض أو المبالغة فيه . وكثير من النساء - وعدد غير قليل من الرجال - يمارضون لأنهم يرون في المرض وسيلة لاكتساب عطف أهلهم وتنفيذ إرادتهم بعد ذلك .

وكثير من الأمراض المستعصية التي يحار فيها الطبيب ، ما هي في الواقع إلا حيلة من اللاشعور يتخذها كي يجذب إليه النظر . ومن المعروف أن للعقل تأثيراً قوياً على الجسم ، تأثيراً يكفي لأن يظهر في الجسم فعلاً أعراض المرض . وكثير من السيدات يزعمن ضعف الصحة كي يظفرن بعطف الآخرين وخدمتهم . والإنسان عادة لا يكفيه أن يخدع نفسه ويخدع غيره بأنه « متوعك » فحسب ، بل إنه ليحب أن تظهر عليه أعراض معينة ملحوظة . وكثير من أسباب



السعال والبرد وسوء الهضم وما إليها إنما يرجع إلى أن المريض لم  
ينفس عن غريزة السيطرة تنفيساً كافياً . وفي كثير من الأحيان  
لا تكتفي المريضة بأن تظفر بالعطف والانتباه ، بل ربما كان زوجها  
متشاغلاً عنها بعمله الخاص فتريده على أن يهمل عمله ببعض الشيء .  
كي يوليها عنايته ، وربما كان أطفالها يتأهبون للرحيل فتتحايل عليهم  
بالمريض كي يعدلوا عن السفر . وقد تحاول المرأة مغالبة المرض  
شعورياً ، ولكن كلما اشتدت المقاومة اشتد النزاع في العقل الباطن ،  
وقد ينفد النشاط كله في هذا النزاع فتشتد وطأة المرض . بل لقد  
يدرك العقل الباطل أن مغالبة المرض أدعى لكسب العطف والعناية  
من المرض عينه . ومن العسير على المريض أن يعتقد أن مرضه من  
أثر الإيحاء الذاتي ، فإذا كان مصاباً بسعال أو صداع ظاهر لا يسعه  
إلا أن يرفض هذه التهمة - تهمة الادعاء - التي تصمه بسوء التصرف .  
وقد تشتد هذه الحال حتى يفقد المريض سلطانه على نفسه ويصاب  
بالحبوط العصبي الذي يحتاج إلى العلاج النفسي .

وليس المرض هو السلاح الوحيد الذي يمكننا من بسط نفوذنا  
على من نحب ، وإنما نحن نستطيع ذلك بأقل من هذا جهداً ومشقة ،  
وذلك بأن نصيب غيرنا بالعجز وأن نجعل حياتهم متوقفة علينا ،  
وأوضح مثال لذلك ما نجده في العلاقة بين الأم وولدها ، ولكنها  
كذلك ذائعة بين الزوج وزوجه وبين الأصدقاء ، فالأم تسعى  
لإطالة مدة طفولة ابنها ، وهي تحب أن تظفر بقلبه ولذا تراها تؤدي



له خدماته جميعاً ، فهي تقدم له المأكل والملبس وتعنى بنظافته وأدواته وترضعه وتمرضه وتداعبه طيلة اليوم دون أن ينافسها في ذلك أحد حتى لا ينصرف ابنها عنها بقلبه . والطفل من ناحيته قد لا يحب رفقة صغار الأطفال لأنهم لا يفسحون المجال لأنانيته أن تظهر ، وقد يتارض كي يفر من المدرسة ويبقى بالمنزل .

وليس منا من لم يصادف ذلك الصنف من الأطفال الذين فسدتهم أمهاتهم بشدة حين لهم . أعرف طالباً في مدرسة ثانوية أكره المدرسة ويسمونها « السجن » ، ولا يحب أن يرافق أحداً سوى أمه ، وهو يلازمها أيام العطلة حيث يكون في أسعد أوقاته . وهو - رغم أنه في الخامسة عشرة من عمره - يحب أن تعاونه أمه في كل شيء ، في ملبسه وفي إعداد فراشه ، وحتى في استحمامه . وهذا النوع أكثر ذيوفاً بين البنات منه بين البنين لأن الرأي العام قد يقر هذا السلوك من البنات ولا يقره من الولد .

وكل مظهر من مظاهر حب القوة يلاقى معارضة الجمهور . فالشعب يشور في وجه من يريد أن يبسط سلطانه بغير مبرر . وينعكس الرأي العام في حكم الرجل على نفسه ، ونقده لذاته ، فهو إلى حد ما يرى نفسه بأعين الجمهور ، ويجب أن يؤدي ما ينتظر منه . وإن كان يريد إشباع رغباته ويبقى على احترامه لنفسه في آن واحد فلا مناص من أن يخدع نفسه إلى حد ما ، وهو يفعل ذلك بايجاد سبب معقول تقبله النفس . إنه يدرك أنه حين يبسط نفوذه على المجتمع



يشير ضده الشعور العام ، ولذا فهو يحاول أن يبسط السلطان لا لإرضاء  
نفسه ولكن للمصالح العام . وهكذا ينشأ المصلحون من محبي الخير  
للإنسانية .

وقد أشرنا من قبل إلى حب الإنسانية . وهذا الحب إما تسام  
تام وإما « تبرير (١) » أعمى . فهو تسام لدى الرجل الغيرى ، ولكن

---

(١) « التبرير » Rationalisation ظاهرة نفسية خلاصتها أن  
العواطف التي تثيرها العقدة المكبوتة ليس لها سبب معقول في  
العقل الواعي ؛ فقد تكره مثلا جارك زيدا كرها عنيفا ، وقد  
لا يكون لديك مبرر لهذا المقت الشديد ، ولكنك قد تسمع مصادفة  
إنه عامل صديقك عمروأ معاملة جافة نوعا ، فتتميل إلى جانب عمرو  
بحماسة تدهش لها أنت نفسك أشد الدهش ، ثم تجد في هذا سببا قويا  
لكراهيتك لزيد ، فإما أنك لا تلاحظ أن انتصارك لعمرو « يتبع »  
كراهيتك لزيد كراهية لا مبرر لها ، أو أنك تعلل هذا التناقض  
بقولك إنك كنت تعلم بالغريزة أن زيدا شخصية غير محبوبة ؛ وهذه  
العملية العقلية ، عملية إيجاد سبب معقول لعاطفة غير معقولة ظاهرا  
هي « التبرير » . ولو استطعت أن تطالع عقلك الباطن فقد تكتشف  
أن صوت زيد يذكرك بصوت معلمك كنت تكرهه لسبب معقول ،  
ولكنك نسيت كل النسيان .

وإليك مثال آخر : رجل أخنى عليه الدهر ، تضطره حاله المادية  
أن يلجأ في علاجه إلى المستشفيات المجانية حيث يقف طويلا في  
وسط لا يرتاح ولا يطمئن إليه ، فإذا ما أتاه الطبيب انفجر بالشكوى =



الغيرى قل أن وجد حتى اليوم ، ولذا فهو شاذ لا ينطبق على القاعدة العامة - فالزاهد شاذ من حيث إنكاره لذاته . وهو تبرير لدى الأناى الذى يعتقد أن السلطة والملق وإعجاب الجماهير وثناء الصحف هى أعز ما يشتري بالمال ، وهذا الرجل شاذ كذلك . أما الرجل المتوسط الذى يفكر فى مصلحة الآخرين تفكيراً جدياً بتقديم خدماته الشخصية ، فالأناية والغيرية يشتبكان لديه ، ولا يمكن أن تخلص حب النفس من حب الإنسانية عنده ، ومهما تم العمل فى الخفاء ، ومهما يكن من قلة تقدير الجمهور له ، فسابق له على الأقل رضا نفسه عن نفسه ، ومن الناس من رضا النفس لديه أهم من رضى

---

= انفجاراً عنيفاً ، وشكا سوء المعاملة والشدة التى يعامل بها الممرضات ، الفقراء من الناس والأطفال ، والواقفين بباب المستشفى . فيرتاب الطبيب فى الباعث على هذه العاطفة الحادة ، وهو يعلم من تجاربه أن مرضاه يعاملون بالحسنى ، فيشك ويستنتج أن عقدة الفقر عند هذا الرجل قد أثارها اهدار الكرامة بقبوله الإحسان فى معالجته ، وبقاؤه شخصياً ينتظر طويلاً وهو غير مطمئن . نعم قد يشور الإنسان لكرامة غيره فى أمر سياسى أو اجتماعى ، أو يحتد لما يلاقى غيره من مشاق ، ولكننا حين نجد أن أمراً معيناً ، ظاهره غير شخصى ، يشير فىنا دائماً الميل إلى الجدل بجرارة وبشدة ، ويهيج عواطفنا ، فمن الخير أن ننظر ونتبين أى روابط شخصية تصل ما بيننا وبين هذا الموضوع .



الآخرين . ونحن نكرر ثانية أن الشخص الذي يتصف بالآتزان العقلي هو ذلك الذي يدرك ويواجه ما يشوب دوافعه الباطنية الخفية . والرجل الذي يحب الإنسانية مخدوع أن ظن أنه لا يجب إلى جانبها نفسه ، والرجل الذي يقول : « إنما أنا أخدم لوجه الله ، لا أرجو جزاء ولا شكورا ، وأنا أفنى في مصلحة الآخرين . وأنا لا أطمع في الشرف والألقاب ، إنما يخدمه عقله الباطن ، وهو إنما يحاول أن يبرر ما يعمل .

ويسود هذا الضرب من التبرير أثناء الحروب ، فكل فرد حتى من لا يخرج إلى ميدان القتال ، ذكورا وإناثا ، والشركات وما إليها ، تظن أنها إنما تعمل لمصلحة الأمة ، ولا يحسب منهم أحد أنه إنما يعمل لذته وفائدته . ولدينا مثال من هذه الظاهرة في الثورة المصرية الأخيرة ، فإن كثيراً من الشخصيات البارزة فيها كانت وما تزال تظن أنها إنما تسعى للمصلحة العامة ، وهم لا يخلون من المصلحة الذاتية فكثير ممن لم يكن لهم نفوذ أو سلطان حصلوا عليه ووجدوا سبيلا للتنفيس عن غرائزهم وحيويتهم ، وقد أفادت الأمة من كثير منهم ، ولكن كثيراً غيرهم تمل بالسلطة وانصرف إلى نفسه . وقد أخرجت الحرب العظمى المرأة إلى ميدان العمل فعرفت لذة النفوذ ، ولما انقضت الحرب لم تقبل المرأة أن تعود إلى ما كانت عليه ، وبقيت تناضله في سبيل حريتها .

ومن الأنواع الأخرى الذائعة لتبرير حب السلطة الاعتذار



« بالكفاءة » ، فكثيراً ما تسمع أن رئيساً ما لا يجب أن يعطى لمروسيه ولو قليلاً من النفوذ ، ظناً منه أنه وحده كفء للعمل ، وأن غيره لا يجب العمل ، ولذا فمن واجبه أن يؤديه جميعاً . كما تسمع كثيراً ممن يشكو كثرة العمل ، وهو - مع ذلك - لا يتنازل عنه خشية منه أن يفسده الآخرون . ومن الحكم الذائعة هذا المثل « ما حك جلدك مثل ظفرك ، فتول أنت جميع أمرك » وهو يؤيد هذا النوع من التبرير الذي ذكرنا ، كما أن مثل هذا القول « لا أنا في العير ولا في النفير » يساعد على الفت من حدة هذه الرغبة .

ومن المظاهر البغيضة لغريزة السيطرة التي تجد من أربابها تبريراً قوياً ، القسوة على الأطفال وعلى من هم دوننا . فالمعلم القاسي يبرر قسوته بأنه إنما يسعى لصالح الطفل ، ومثل هذا البيت :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم  
وهذا البيت :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم  
إنما هو دليل على حب القسوة والوحشية في المعاملة . وهناك وسائل أخرى كثيرة غير العقوبة البدنية يستطيع بها القوي تعذيب الضعيف . فكاننا يعرف ذلك الوالد الذي يعلم من أي الكلام يخجل ابنه ، فيستخدم نفوذه لكي يسيء إلى نفسية الولد . وكثيراً ما تنسب « السادزم » (١) (أو حب الشر للغير) إلى الأشرار من الناس

(١) « السادزم » Sadism اصطلاح في معناه لذة إيقاع الألم =



وعدم ، ولكنها في الواقع تصيب كلا منا بمقدار .  
ولقد حاولت في الصفحات السابقة أن أعالج المظاهر الأساسية  
لغريزة السيطرة ، وقد عالجتها كأنها منفصلة عن الغريزة الجنسية ،  
ولكنها في الواقع وجه آخر من وجوهها ؛ ولكن الدكتور  
آدلر يؤيد نظريته — وهي أن اعتراض الشعور بالنقص لتدفق حب  
السيطرة هو أساس أعمال الإنسان جميعاً — ويسوق الأمثلة المتنوعة  
حتى أن قارئه ليخيل له أنه وحده قد عثر على مفتاح اللا شعور . كما  
أن فرويد من ناحية أخرى يسوق الأمثلة ويؤيدها بالبرهان والدليل  
أن الغريزة الجنسية هي وحدها الحافز لنا في أعمالنا جميعاً . والواقع على  
أن آدلر يقول إن الغريزة الجنسية مظهر من مظاهر غريزة السيطرة ،  
بينما يقول فرويد إن حب السلطان ما هو إلا فرع من فروع الغريزة

---

— بالآخرين ، أو مشاهد توقيع الألم على غيرك من الناس . فإن نيرون  
حينما كان يحرق بلده وينظر إلى ذلك بعين السرور إنما كان يعبر  
بصورة قوية عن نفسية تتتاب الكثير من الناس ، ولا ينكر أحد أن  
كثيراً منا يلذ له بعض الشيء أن يرى منزلاً يتهدم أو اثنين يتشاجران .  
« والماسوشزم » Masochism نقيض « السادزم » ، ومعناه حب  
تعذيب النفس والتمتع بالآلام العقلية والبدنية . ومن هذا الصوم وما  
يفعله فقراء الهنود ، والتششف والزهد .

والماسوشزم والسادزم كلاهما في نظر علماء النفس دليل على انصراف  
الغريزة الجنسية إلى غير موضعها الطبيعي .



الجنسية . وقد تصلح الأمثلة التي يسوقها أحدهما مع قليل جداً من  
التحوير للبرهان على نظرية الآخر .

ولذلك فإن كثيراً من الأمثلة التي ذكرنا فيما سبق تصلح دليلاً  
على قوة إحدى الغريزتين . وفي الفصل التالي عن الغريزة الجنسية  
لا يمكننا أن نغض الطرف عن غريزة السيطرة . ولا نستطيع من  
الوجهة العملية أن نفصل أحد الدافعين عن الآخر ، وإن كنا لسهولة  
الدرس نوجه الانتباه حيناً لهذا وحيناً لذاك .



## الغريزة الجنسية

أول ما ينبغي معرفته في هذا الباب هو تعريف هذه الغريزة في نظر علماء التحليل النفسي، لأن استعمالهم لهذا الاصطلاح يختلف عن استعمال العامة له اختلافاً كبيراً.

إننا تعودنا حينما نفكر في الجنس أن ننظر إلى مجرد العلاقة بين الذكر والأنثى اللذين يرميان إلى تخليد النوع، وما يستتبع هذه العلاقة من عواطف ومشاعر، ولكن — كما أن حب السيطرة له معنى في علم النفس أوسع من المعنى الذائع بكثير، — فكذلك الغريزة الجنسية، عند عالم التحليل النفسي تتسع لأسباب ونتائج أبعد مدى مما يفهم منها الرجل العادي.

ويظهر أن فرويد ويونج في بحوثهما في سلوك الإنسان وبخاصة في أسباب النورستانيا قد بدأ بتعريف الطاقة الجنسية — أو النشاط الجنسي — على معناها الضيق، ولكنهما سرعان ما توسعا في مدى التعريف حتى شمل كل مظاهر الحب والعطف والجاذبية التي يعرفها الجنس البشري. ولذا فنحن اليوم نفهم من الطاقة الجنسية السبب الأساسي لكل ميل من الفرد نحو شيء معين. فاللذة الفائقة التي يحس بها المرء عند رؤية الجبال المعجمة بالثلوج، ومنظر الزهور في الحقول، والقمر يفضض الماء، والموسيقى، والشعر، والتصوير.



وما تشعر من حب حار نحو أخيك وزميلك في المدرسة ، وخدامك  
وكلبك — وحب الأم لولدها ، وحب الولد لأمه — وإعجاب الفتاة  
بجمال جسمها - واهتمام الطفل بلعبته الجديدة - وشعور النحات نحو  
الحجر ، وإخلاص الزاهد لله - هذه المظاهر كلها هي تدفق الطاقة  
الجنسية ، وليست أقل من حب الرجل للمرأة من حيث القيمة النفسية .  
وقد شرح علماء تحليل النفس وجهة نظرهم عن هذه الطاقة  
للجمهور فيما مضى ، فثار الناس في وجوههم ، واستاءوا لما سمعوا .  
وكان الموضوع لما يزل غامضاً ، والعلماء يتخبطون فيه ، كما كانوا  
يعالجون صنوفاً وضيعة دنسة من الناس ، وكان يعوزهم التعبير العلمي  
الصحيح ، فظن الجمهور أنهم يقصدون أن أعلى العواطف الإنسانية  
وأسمائها ما هي إلا مظاهر للشهوة الجنسية والنشاط الجنسي انصرفت  
في هذا السبيل محجوبة تحت ستار . ونحن نحتاج إلى أمد طويل حتى  
نصلح هذا الخطأ في أذهان الجمهور .

ولعل تحريمنا البحث في الشؤون الجنسية نفسه ، واعتبارنا أن  
مناقشتها أمر غير خالق ، ودليل على كبت الدوافع الجنسية . ونحن  
نعلم مما سبق أن الدور الذي يلعبه الجنس في اللاشعور أهم من الدور  
الذي يلعبه في الشعور . ومن العجيب أن يشور العامة إذا تكلمنا عن  
الغريزة الجنسية من الوجهة النفسية ، ولا يشورون إن نحن تحدثنا  
عنها من حيث وظائف الأعضاء أو العمل البيولوجي .  
والرسوم التي وضعناها من قبل لبيان تدفق تيار الطاقة الحيوية



تلقي بعض الضوء على هذا الموضوع المعقد . فالطاقة الحيوية ، أو  
قوة الحياة ، أو قوة الروح القدس ( كما يسميها المسيحيون ) ، تظهر  
في المخلوقات جميعاً في كل مكان . وهي تبدو في مملكة الحيوان على  
الأقل في صورة غريزتي السيطرة والجنس . وهاتان الغريزتان لدى  
الحيوانات الدنيا لا تجدان لهما منصرفاً إلا من الناحية الجثمانية ،  
فالسيطرة هنا معناها بقاء الحيوان الأقوى ، والحب هو الدافع  
الجنسي نحو الجنس الآخر ونحو الصغار . وإذا ما صعّدنا في سلم  
التطور والارتقاء بلغنا الإنسان ، حيث لا يجري تيار الطاقة الحيوية  
في مجرى ضيق ضحل ، وهو المجرى الجثامي . وحتى عند الإنسان البدائي  
ترى أن فروعاً من المعرفة والتجارب تساعد على اتساع المجرى العام ،  
فيعمق ويتسع . وإذا ما بلغنا مرتبة الزاهد أو العبقري وجدنا أن  
الطاقة قد باتت تياراً واسعاً قوياً يكاد لا يبلغ مداه البصر ، وما أشبهه  
حينئذ بالنهر الطبيعي الذي يغمر في مجراه الأدنى بفروعه الكثيرة  
مساحة واسعة ، ويكون عاملاً قوياً من عوامل التحات ؛ فكذلك  
تيار الطاقة الحيوية الذي تغذيه التجارب ، فيمتدح ويقوى حتى يؤثر  
في الحياة التي يتدفق خلالها ، فلا تعود القوة هي المقدرة على التخريب ،  
ولا يعود الحب قاصراً على اللذة الجنسية الجثمانية ، لأن التخريب  
والشهوة البهيمية البحتة لا تخلب لب الرجل المتطور . ومع ذلك ،  
فيما أن المياه التي تكون الجداول على جوانب الجبل لا تختلف  
نوعاً عن مياه النهر الكبير ، فكذلك الطاقة الحيوية التي تدفع



الحيوانات إلى اللقاح والتناسل هي بعينها التي تدفع الأبطال إلى الموت في سبيل الإنسانية .

والغريزة الجنسية في كل مظهرها ترتبط ارتباطاً قوياً بقوة الإبداع والخلق ، وهي ناقصة غير تامة ما لم تفتت بخلق شيء جديد . ومن الضروري للإنسان كي تطمئن نفسه أن يوحد - بطريقة ما - بينه وبين الطاقة الحيوية المتدفقة ، وأن يؤدي هذا التوحيد إلى الإبداع في النهاية . وعلى ذلك فاللذة التي يستمدتها المرء من التأمل في المناظر الخلابة الجميلة لا تبلغ منتهاها إلا إن استطاع الرائي أن يمثلها أو يحولها إلى صورة أخرى . ويعرف الفنان كيف يحول اللذة إلى قصيدة أو صورة أو قطعة من الموسيقى ، كما يستطيع رجال الدين أن يقاربوا بين نفوسهم وبين الله . هؤلاء الناس وأمثالهم يفهمون كيف يرتفعون بالإحساس بالجمال إلى ذروة الذشوة والسعادة . أما أولئك الذين لا يفهمون ذلك فقد يكون التأمل في الجمال لديهم مصدراً من مصادر الألم ، لأنهم لا يستطيعون تحويل الجمال إلى صورة فنية من خالقهم . هذا الألم يقوم على شعور بالخيبة غامض أليم . وقل منا ممن يحسون بجمال الطبيعة من لم يشعر بهذه الخيبة يوماً من الأيام . وفي هذا التعبير : « إنه لجمال مرعب » ما يدل على ذلك . والصدادة لن تتم حتى تجد منفذاً للإبداع والخلق . بل إن العلاقة بين الإنسان والحيوانات الأليفة لتخضع لهذا القمانون عينه ، ولا تقوى إلا إن كان للحيوان نفع مادي محسوس ، فشعور الراعي أو الصائد نحو



كلبه أعمق وأصح من شعورنا ، لأنه يرتبط في عمله بهذا الحيوان .  
ولن يستطيع الرجل أن يؤدي عمله بغير معونة الحيوان .  
ويذبغى لنا حين ندرس ميول الأطفال والمراهقين أن نلاحظ  
إلى أى حد ، وفي أى اتجاه تعبر الغريزة الجنسية عن نفسها ، فهى من  
ناحياتها الجثنائية تختلف باختلاف الأفراد . ويتبين هذا حتى عند  
الأطفال ، فكثير منهم يدركون هذه الغريزة حتى قبل أن يتعلموا  
الكلام والمشى ، وبعضهم لا يدركها إلا بعد ثلاث سنوات أو أربع ،  
ثم يفقدها كلها تقدمت به السن ، وهى عند بعضهم الآخر قوية ملححة  
من عهد الطفولة إلى ما بعدها . وكثيراً ما تظهر هذه الغريزة حيناً  
ثم تختفى حيناً آخر ، ولم يبحث هذا الموضوع حتى اليوم بحثاً كافياً  
حتى نعلم إن كانت هذه الاختلافات ترجع إلى أثر البيئة ، أم هى من  
طبيعة الأفراد . ولكن لا شك أن هذه الاختلافات موجودة  
يدركها كل من يشتغل بالتربية .

ويرى بعض المربين فى العصر الحديث ضرورة تعليم الأطفال  
فى جميع المراحل شيئاً عن هذه الغريزة ، ولكن قل من يدرك المشقة  
والصعوبة التى يلاقيها المعلم عند تلقين الطفل علماً لا يابى له البتة .  
ويقال إن التشوق إلى المعرفة الجنسية ذائع بين الأطفال جميعاً ،  
ولكن هذه مسألة ما تزال مجالاً للشك . وإن كان الطفل لا يهتم بهذا  
النوع من المعرفة فقد يكون العلم إذن مملاً غير مفهوم له ، ولذا فمن  
المحتمل أن ينسى كل ما يسمع بعد فترة وجيزة . ومن ناحية أخرى



إننا لو حسبنا تلقين هذه المعارف عن يتشوقون إليها فإننا قد نصليهم  
بالقلق النفسى . ولا شك أن هذه المعرفة ضرورية لكثير من  
الأطفال كى يصحوا عقلا وبدنا . فيستحتم أن نشرح لهم الوظائف  
الجنسية شرحا وافيا فى سن باكورة . ولا يكفى أن نعلمهم بطريقة  
غامضة عامة « من أين يأتى الصغار » ، وإنما يجب أن يفهموا - على  
قدر ما نستطيع من الدقة - وظيفة الأب وطريقة الولادة . لأن  
هناك كثيرا من الأطفال الذين وصل إليهم العلم غامضا ، والذين  
يفكرون كثيرا فى هذا الموضوع ، قد قامت فى أذهانهم أوهام  
عجيبة ، منها أن بعضهم يظن أن الأطفال تخرج من الأفواه ، ومنهم  
من يظن أنهم يخرجون من البطون أو الأدبار . هذه الأوهام غير  
مرغوب فيها . أولا لأنها لا تكفى لإقناع الطفل ، ولذا فعقله يظل  
دائما مضطربا قلقا ، وثانيا لأنها تركز انتباه الطفل إلى أجزاء خاصة  
من الجسم فتتولد لديه عادات خبيثة قد يكون أقلها خطرا وضع  
الأصابع فى الأفواه .

وهذه العادة الاخيرة ذائعة بين الأطفال ، وتقتضى منا بعض  
التفكير . إن الطفل الذى يمتص أقلام الرصاص ويمضغها كما يمتص  
مئذيله أو إبهامه أو سبابته إنما يستعمل هذه الأشياء عوضا عن  
أطراف الأثداء ؛ إنه فى الواقع يعود لاشعوريا الى مرحلة الطفولة  
الأولى ، ولا يقبل أن يواجه الحرمان من الرضاعة والعناية التى  
كان يلقاها من أمه . وما ذلك الا مثل آخر من عدم الرغبة فى تقدم



السن الذي أشرنا إليه في الفصول السابقة . ولكن - بغض النظر عن هذه العادة ، عادة الامتصاص - فإن كثيراً من الأطفال يميلون إلى وضع كل ما يصادفهم في أفواههم . بل إن بعضهم ليحاول في فترات شروذ الذهن أن يضع يده كاملة حتى الحلق . وقد رأى علماء النفس أخيراً أن هذه المحاولات جميعاً - الامتصاص والمضغ وما إليها - إنما ترتبط ارتباطاً لا شعورياً بأوهام الجنس وغريزة السيطرة . وينبغي لنا ، حين نلاحظ هذه الظاهرة عند الأطفال ، أن نتعرف إن كان الطفل يكتب في نفسه تشوقاً إلى المعرفة الجنسية .

والكنا لا ينبغي أن نوجه إليه أسئلة مباشرة ، أو نمده بعلم لم يوجه إلينا سؤالاً فيه ، فهاتان الطريقتان كلاهما قد تدفعان الطفل إلى عدم الصراحة . هناك طرق متعددة غير مباشرة نستطيع بها أن نجعل الطفل يشعر أن أمثال هذه الموضوعات ليست مما لا يصح التحدث فيه . فإن عرف ذلك انطلق بالسؤال يطلب العلم والمعرفة . والطفل الذي يتشوق إلى المعرفة كثيراً ما يبدى هذه الرغبة بعبارات صريحة مؤكدة يتحدى بها الكبار ، فلو تجاهلنا قوله كرره مرة بعد أخرى ، وقد يبدو عليه شيء من الغضب والتهيج ، ولذا فلو سمعت طفلاً يقول « أنا أعلم من أين يأتي الأطفال ، لقد هبطت إلينا بهم الملائكة ، فأعلم أنه إنما يطلب العلم ، فإذا لم تشبع فيه هذه الرغبة ، أخذ يباليغ في أوهامه ، فيقول مثلاً « لقد رأيت الملك بعيني رأسي حين هبط بالطفل وقال لي ، هذا أخوك ، ثم انصرف » . يشعر الطفل



أنه إذا ما دأب على اختراع أمثال هذه الأقاويل التي يدرك بطلانها فقد يأتي يوم يقبل فيه واحد ممن يكبرونه التحدى ، فيراجعه القول ، ويكشف له عن الحقيقة .

أما في حالة الطفل الذي يشعر شعوراً قوياً بالغريزة الجنسية ، فإن « العلم قوة » ، مثله بالمعنى الحرفي لهذا القول ، فإننا إن لم نطفيء تشوقه هذا ، انصرفت غريزته الجنسية ، كما تنصرف غريزة السيطرة لديه ، إلى وجهة غير محمودة ، وسلك للتعويض سبلاً شتى ، السرقة من أكثرها ذيوماً . فلقد أثبت علماء النفس الذين تخصصوا في دراسة الشواذ من الأطفال أن السرقات الطفيفة عند الأطفال ترجع في معظم الأحيان إلى « تروما » (١) جنسية من نوع ما . ومن العسير جداً إقناع عامة الناس بهذا الرأي . فليس من المعقول البتة للرجل العادى

(١) « التروما » Trauma حال غير صحية تنجم عن هزة جثمانية أو عقلية . ومن أمثلتها أن فتاة فشلت تعليمها لأنها كانت تقع فريسة للمرض كلما حل موعد عودة الدراسة ، وقد فشل الأطباء في علاجها ، ولاكنها لما عرضت على الطبيب النفسى ، استخرج الطبيب من عقلها الباطن أنها حينما ذهبت أول ما ذهبت إلى روضة الأطفال صحبت أختاً لها في مدرسة الطب إلى حجرة كان بها هيكل عظمى مروع المنظر ، فوقعته منه في مرض عضال وقد كبت هذا الحادث ثم نسي ، وبقيت الرابطة بين المدرسة والمرض ، ونشأت عنها مارويتنا من نتائج . ولم يكد الطبيب النفسى يكشف عن هذه الحقيقة حتى زالت الأعراض . ومثل هذا الكبت الشامل كثير الحدوث



أن سرقة الأطفال ترجع إلى نقص في معرفتهم الجنسية أو خطأ فيها،  
ولكن علماء النفس يقولون إن الغريزة الجنسية قوة ، والامتلاك  
كذلك قوة ، فمن المنطق السديد أن يحصل الطفل على القوة  
والسلطان بصورة غير مشروعة إن حرم الحصول عليهما بصورة  
أخرى ، ولكن منطق اللاشعور أيسر وأبسط وأكثر صراحة من  
منطق الشعور ، فنحن لانقد أنفسنا لاشعوريا ، ولانحس بالخطأ في  
أعمالنا ، ولانرى أن تعويض المعرفة الناقصة في ناحية ، بسرقة المال  
مثلا عبث غير معقول . فالمال والمعرفة كلاهما رمزان للقوة ، ولذا  
فن الجائز استبدال أحدهما بالآخر .

هذا المرض النفسى — مرض السرقة Kleptomania —  
كثيراً ما يتعسر اكتشافه ، لأننا حين نحول الكشف عن السارق  
غالباً ما نفكر حين التحقيق في الدوافع المعقولة ، أو في تاريخ  
الشخص وفي سلوكه . ولكن هذا النوع من السرقة الذى ألمعنا إليه  
كثيراً ما يقع بغير دافع ظاهر ، فقد يسرق الطفل المال وهو يملك  
منه الكثير ، وقد يسرقه ثم يرميه ، وقد يسرق أشياء لا فائدة له البتة  
منها . وهناك ظاهرة أخرى عجيبة تبدو في أحوال كثيرة ، وذلك أن  
العمل الذى يدفع إليه اللاشعور يبقى مجهولاً ولا يخرج العلم به إلى  
حين الشعور ، أى أن الآثم لا يدرك إثمه ، ولذا فهو لا يعترف بخطئه ،  
أى أن الفرد يرتكب جريمة السرقة وهو فى حال عقلية أشبه ما تكون  
بحال النائم الذى يهب من سباته ويقوم ببعض الأعمال دون إدراك .



وكلنا عرضة لمثل هذه الحال على صورة ما ، فنحن قد نؤدى عملا عاديا ، كالتنهوض ودق الجرس ، أو إضاءة المصباح الكهربائي ، أو إغلاق الباب ، ثم ننسى بعد دقيقة أو دقيقتين إن كنا قد فعلنا ذلك أو لم نفعل ، لأن العقل الواعى لم يتنبه إلى العمل ، إذ أنه عمل عادى لا يفكر فيه . ومرض السرقة هذا قد لا يمس العقل الواعى ، لأن الدافع إلى السرقة صراع قائم كاه في اللاشعور ، ولأن العقل الواعى يرفض النظر إليه . ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن « الامتزيا » التامة ظاهرة شديدة الارتباط بأمثال هذه السرقات التى لا تدفع إليها الضرورة .

ولكى نتحاشى أمثال هذه الأعراض ينبغى أن نشدد الرقابة على الأطفال الذين تبدو عليهم أمارات الرغبة فى المعرفة الجنسية ، وأن نعمل على إطفاء التشوق إلى المعرفة لديهم بطريقة ما . ولا يتصور القارىء أن الاهتمام بهذه الأمور فى سن باكورة ظاهرة يؤسف لها ، إنما يتعلق الأمر بمزاج الطفل ، فهناك من البنات من يملن صراحة إلى صحبة الأولاد ، ولا يجدن لذة فى رفقة البنات من جنسهن ، وما يقال عن البنات يصدق على الأولاد . وهناك من البنات من يجدن لذة فائقة فى كل ما يتعلق بالأمومة ، فإن بدت هذه الرغبة ، علمنا أن هناك تشوقا إلى المعرفة والفهم ، ووجب علينا إطفاء هذا التشوق . ومن الغباء ألا ندرك أن البنات التى تحب اللعب بالدمى حبا جما تشوق إلى معرفة ما تى الأطفال ، فإن كانت لا تشوق إلى



ذلك جازلنا أن نشك في صحة عقلها .

ولا ينكر أحد في العصر الحاضر أن الطفل قد تصيبه صدمة فجائية فيما يتعلق بالأمور الجنسية ، ولكن قل من الناس من يعرف كيف أن حادثاً بسيطاً قد يكون شديد الوقع على الطفل ، وليس من الضروري أن يكون الحادث ثورياً أو غير عادي . والصدمة كثيراً ما تنجم عن معرفه مفاجئة ، أو الارتياح في حقيقة ما . وبعض الأطفال أشد من غيرهم تأثراً في ذلك ؛ ولذا فإن صورة أو تمثالا لجسم عار أو منظر الأم ترضع وليدها ، أو حيواناً أليفاً حاملاً ، قد تسبب اضطراباً عاطفياً قوياً ، لأن الطفل لا يفهم الأمر فهماً صحيحاً ، بينما قد يقع بصره على مشهد دنس بذىء حقاً فيمر به دون التفات لأنه لا يدرك البتة خطره . وكل مسألة - أية كانت - يسكت عنها الوالدان وكبار الأخوة سكوتاً تاماً ، أو يتحاشون التحدث فيها ، تترك أثراً سيئاً في الطفل ، لأنه يعلم أن أمه لا تسكت عن شيء ولا تتحدث فيه إلا إن كان مزعجاً مخيفاً . وخطر العلم الناقص عن الشؤون الجنسية ومولد الأطفال أشد خطراً من أي موضوع آخر لسببين ، أولهما أن البنت التي تحس بغريزة الأمومة إحساساً قوياً قد يقوم في عقلها الباطن صراع لا ضرورة له بين الرغبة في إيجاد أطفال لها والخوف من الميلاد . وثانيهما أن عدداً لا حصر له من صغار الفتيات يقعن فريسة لعذاب عقلي من أجل ذلك . وتقول فتاة كاتبة وهي Dame Ethel Smythe في اعترافاتها



إنها قبلت مرة شابا فقضت عدة أشهر بعد الحادث في فزع ورعب من هذه الجريمة خشية أن تلد طفلا حراما . وبعد عدة سنوات ، زادت تجاربها وعادت تضحك من نفسها على تلك المخاوف ، ولكنها تقول إن صحتها أيام ارتكاب الإثم كادت أن تتدهور وأعصابها أوشكت أن تنحل .

وقد دلت البحوث الحديثة في تطور الأطفال النفسى ، أن الطفل يمر بأدوار ثلاثة في تطور الغريزة الجنسية ، يبلغ الواحد منها ما يقرب من سبع سنوات . ففي السنوات السبع الأولى يتركز اهتمام الطفل حول نفسه ، فهو يحب نفسه - كما يقول فرويد - ولا يهتم إلا بجسمه وبحاجات بدنه . يريد من أمه كل اهتمامها ، وتمثل الام في عينيه الطعام والراحة البدنية . وهو شديد الاهتمام بأعضائه ، يحاول أن يتعرف مدى قدرتها . وهو غخور بمقدرته على العدو ، ولا يهمه أن يظهر عاريا . وقصارى القول إن نشاطه يتدفق نحو هدف واحد : هو نفسه . وهذا الاهتمام بالنفس شديد جداً عند بعض الأطفال ، وعبثا تحاول الأمهات أن تعلن أمثال هؤلاء حب الغير والتنازل عن الأنانية ولو قليلا . وإن أعطيت الطفل في هذه المرحلة شيئا من الحلوى استأثر بها لنفسه ولا يرضى أن يعطى أخاه أو أخته شيئا منها .

وبعد السابعة تبدو على الطفل ظاهرة جديدة ، وهي اهتمامه بالأطفال من جنسه . ذكورا أو إناثا ، فينتقل اهتمامه من النفس



إلى الجنس ، ويتركز حول رفاقه ومن يكبرونه من جنسه . يجب  
المدرسة ويهتم كثيراً بمعلميه وزملائه . والاباطال في نظره هم أبوه  
أو أخوه الأكبر ، أو أخ كبير لصديق له . ويزدرى البنات ، كباراً  
وصغاراً . وتمر البنات بهذا الدور عيونه ، فلا تحب غير رفقة البنات  
الأخريات . ومن الاعتراضات الهامة التي يوجهها علماء التربية للتعليم  
المشترك بين الجنسين في هذه السن هذه الرغبة الطبيعية عند الأطفال  
في مخالطة أبناء جنسهم أو بنات جنسهن .

وبين الرابعة عشرة والسابعة عشر أو الثامنة عشر تقريباً تبد  
المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة حب الجنس الآخر . وتنمو في المراهق  
الرغبة في معايشرة البنات ، وقد يدخل الطفل في هذه المرحلة تدريجاً  
وبصورة غير محسوسة ، وقد يدخلها مباغتة وفجأة . وهي تند بعض  
الأطفال تبدأ بالاهتمام بالوالد عند البنات ، وبالوالدة عند البنين ، فترى  
البنات أن أباهما عامل هام في الحياة ، ويتغير رأى الولد في أمه وفي  
أخواته ، فيرى أن اخته ربحاً له لادنياً عليه .

وهذا الشعور هو ما يعبر عنه فرويد « بعقدة أوديب » ،  
والاصطلاح مستعار من اسم ( أوديب ) في الأساطير اليونانية ،  
وقد قتل أباه وتزوج من أمه . والواقع أن شعور الطفل نحو والديه  
معقد أشد التعقيد ، فهو ليس حباً خالصاً ، وليس كرهاً خالصاً . إنما  
هو مزيج من هذا وذاك . ولا شك أن جانب المحبة هو الغالب في  
أكثر الأحيان . يحس الطفل أن أمه تحميه وتفي بحاجاته ، ولكنه



يحس كذلك أنها تحرمه بعض العادات ، كما يحدث عند الفطام مثلاً ،  
فبيغضها من أجل ذلك ، وهو يدرك كذلك أن أباه يستنفد كثيراً  
من وقت أمه ومحبتها ، وكان يود لو يستأثر بقلب أمه كله له ، ولذا  
فهو يحس بمنافسة أبيه ، ويود لو لم يقف في سبيله . ولكن غيرة  
الولد من أبنه تتعارض مع بعض العواطف الأخرى السامية ، فالوالد  
يحب ابنه ويظهر هذه المحبة ، فلا يسع الولد إلا أن يجاوب هذا  
العطف . هذا إلى أن الوالد - في نظر ابنه - عليم بكل شيء ، قادر على  
كل شيء ، فهو المثل الأعلى في نظر الابن ، ومحط الإعجاب منه ،  
فيعجب الولد بأبيه ويحبه من ناحية ، ولكنه يحب التخلص منه من  
ناحية أخرى . وما قلنا عن الولد يصدق على البنت سواء بسواء .  
شعور الأطفال إذن نحو آبائهم مزدوج متناقض .

وهذا الشعور المزدوج هو ما يعرف في تحليل النفس باسم :  
Bipolarity . وموجز هذه النظرية أن الإنسان لا يحس إحساساً  
واحداً خالصاً . نحن نحب الموت كما نحب الحياة ، فيكأن الإنسان  
يحب أن يعود إلى الطين كما بدأ . وكلنا لاشك قد مارس في خواطره  
وفي أحلامه هذه الرغبة فرأى نفسه وقد انقضت حياته في هذه الدنيا ،  
فالإنسان لديه غريزة الموت كما أن لديه غريزة الحياة . والمنتحر الذي  
يقبل على الموت يحب الموت كما يحب الحياة ، كأنما هو يريد بانتحاره  
أن يظفر بالنفوذ الذي فشل في الحصول عليه في حياته . ويستشهد  
بعض علماء النفس بانقسام الأحياء إلى ذكور وإناث على صحة هذه



النظرية ، فالرجل إنسان ناقص والمرأة إنسان لم يتم نموه . ، وفي  
الرجل شيء من الأنوثة ، وفي المرأة شيء من الرجولة . ويذكرنا  
هذا الرأى بحوار من محاورات أفلاطون إذ يقول : إن الإنسان كان  
له في أول الأمر أربع أذرع ، وأربع أرجل ، ثم جاء « زيوس »  
وقطعه نصفين ، وسيظل كل جزء يبحث عن نصفه الآخر ، فإذا  
ما اجتمع النصفان ، أحب أحدهما الآخر ، وعاد الجسم إلى وحدته .  
وهكذا يتم باتحادهما الإنسان الكامل . ومما يؤيد هذا الرأى كذلك  
أن الشيء قد يدل على نقيضه في الحلم ، فالبياض قد يرمز إلى السواد ،  
والعلو قد يرمى إلى الانحطاط ، والصغير يدل على الكبير وهكذا .  
ويقول : « آبل » Abel وهو من علماء الألسن إن الشيء ونقيضه  
في اللغات البدائية لهما لفظ واحد ، والضوء والظلام لهما رمز واحد  
في الكتابة الهرغلوفية . ونحن في الأحلام نستعمل لغة بدائية ،  
لغة تقي بأعراض الحلم ؛ ولكنها لا تقي بحاجات اليقظة . وروح  
« بروتس » في رواية « يوليوس قيصر » لشيكسبير تحب قيصرًا  
وتكرهه في آن واحد . الحب إذن دائماً ممزوج بالكرهية ، واللذة  
مختلطة بالألم ، والألم باللذة ، وما يجذبك إليه ينفرك منه وهكذا .  
ويقول أتباع فرويد إن « عقدة أوديب » هي صميم نظرية التحليل .  
وإنه في أثناء التحليل قد يحدث ما يعرف « بالانتقال » Transference ،  
وهو أن يعيد المريض مع طبيب التحليل تاريخ عقدة أوديب ،  
ولا يتسع كتاب صغير كهذا للتغلغل في فلسفة « الانتقال » . فالموضوع



شائك دقيق . ولكننا نستطيع في الإمامة قصيرة أن نقول إن  
« الانتقال » هو شعور المريض بالثقة في طبيبه واحترامه له ،  
ومشاركته إياه الوجدان . وأكثر الناس يحسون هذا الإحساس  
نحو الطبيب أو نحو المعلم أو نحو من يقدم لهم المعونة ؛ ولكن  
المقاومة التي أشرنا إليها آنفاً كثيراً ما تتخذ صورة الانتقال السلبي  
نحو طبيب التحليل ، وذلك أن المريض - وهو لا يرغب في مواجهة  
عقله الباطن - يثير في نفسه عاطفة الكراهية لطبيب التحليل ، ويتخذ  
هذه العاطفة معذرة له عن عدم ثقته في الطبيب أو تغيبه عن موعد  
العلاج ، فليس من المعقول أن يقاومه دون أن يقدم المعاذير . وليس  
« الانتقال السلبي » دائماً لونا من « التبرير » وإنما قد يرجع إلى  
أسباب أخرى ، ولكنه ما دام قائماً فهو عائق للعلاج الناجع .

ونعود إلى المرحلة الثالثة من مراحل تطور الغريزة الجنسية ،  
فنقول إن هذه السن التي يزداد فيها اهتمام الطفل بالوالد أو الوالدة  
( الجنس الآخر ) خطيرة جداً ودقيقة في حياة الطفل . يصبح الوالد  
في رأى البنت - لاشعورياً - المثل الأعلى للرجل ، وبعبارة أخرى  
المثل الأعلى للزوج ، وتتأثر آراؤها في الحب والزواج به  
كثيراً ، لأننا حينما نقول إن اهتمام البنت بأبيها يزداد في هذه  
السن لا نعني ما بينهما من حب البنوة والأبوة وحسب ، فالفتاة  
( أو الفتى ) في سن المراهقة شديدة النقد في حكمها . وإن تولد لديها  
وهي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة شعور بالاحتقار ، أو



البغض ، أو الخوف من أبيها ، فمن المحتمل جداً أن تؤثر البقاء في مرحلة الاهتمام ببنات جنسها دون أبناء الجنس الآخر ، وأن تكبره الحياة الزوجية ، بل والرجال من الناس أجمعين ، وفي هذا ضرر بليغ لا على الفتاة التي تتزوج فحسب ، بل كذلك على أولئك اللاتي يقمن بأعمال أخرى ، لأنه من الضروري للمرأة المتزوجة ، كما هو من الضروري للمرأة التي تخرج إلى ميدان العمل أن تفهم الرجل وتعرف وجهة نظره .

وكثير من البنات يصبن بالنورستانيا ، ويتبين في موقف عصيب وهن في سن المراهقة ، وقد يصبن بالأمراض العصبية ، فيكتبن كثيراً من الآراء ، ويختل توازن عقولهن نتيجة لفشلهن في إيجاد علاقات صحيحة بأبائهن ، فيبتقين في مرحلة الاهتمام ببنات جنسهن ، ويقضين هذه السنين العصبية ، سنى التطور الجثاماني ، دون أن يقفن من الحقائق الجنسية موقفاً صحيحاً ، أو قد يملن في هذا الشأن ميولاً لا يرغب فيها. ولا ضرر البتة من أن تجد الفتاة لذة في رفقة صاحباتها وزميلاتها من البنات ، بل لقد يكون ذلك تسامياً بالغريزة مستحياً ، مادامت تدرك مركزها في الحياة وتفهم نفسياتها فهماً صحيحاً . وليكن بعض مدارس البنات التي لا تسمح بإشراك الجنس الآخر في التعليم ، تجعل المدرسة مليئة بضروب المتع والسعادة . وإن امتد أجل اهتمام الفتاة ببنات جنسها ثلاث سنوات أو أربع بعد الفترة الطبيعية ، فقد تلبث بدأ في هذه المرحلة ، فيكون لذلك أثر على عقلها وخلقتها ، في وقت



قد نضح فيه جسمها نضوجاً يسمح لها بالحياة الجنسية الطبيعية .  
وقد لا تدرك البنات الخطر من ذلك البتة ، فتلجأ إلى إطفاء شهوتها  
-- جهلاً منها وسذاجة -- بطرق غير مشروعة ولا مستحبة ، فينتهي  
الأمر إلى تحطيم حياتها تحطيماً لا نجاة منه .

ومرحلة الانتفال من الاهتمام بالنفس إلى الإهتمام بالجنس  
الآخر عند الأولاد ليست أقل مشقة منها عند البنات ، ولكننا ندرك  
خطرها ، فنبدل جهداً كبيراً لتمكينهم من إدراك الموقف وتحاشي  
الخطر . يقابل الأولاد المشكلة عينها التي يقابلها البنات حينما يبلغون  
السن التي يجتذب إنتباههم فيها النساء من الأسرة ، ولكن الولد  
الذي لا يجد في أمه أو في أخته المثل الأعلى للأنوثة في نظره ،  
لا يتحرج أن يواجه الحقيقة الجنسية ، بل ويواجهها بفكرة وضيعة  
عما يتوقع من النساء ، فيتزوج من امرأة لا ينتظر منها أن تكون في  
مستواه العقلي أو الخلقى ، ويؤسس أسرة الزوجة فيها أقل في نظره  
من أن تكون أما لأطفاله .

ومشكلة الحياة الجنسية بأسرها في المجتمع المتمدن الحاضر تيسر  
كثيراً لو أدرك عامة الناس مدى هذه الغريزة وما تنطوي عليه من  
مشاكل . وكما ذكرنا آنفاً ليس نشاط الأعضاء التناسلية إلا مظهراً  
واحداً خاصاً من النشاط الحيوى الذى يملأ نواحي الخبايعة جميعاً .

ولنعد ثانياً إلى تشبيهه النهر وفرعيه الذى لجأنا إليه من قبل ،  
فإن فرع الطاقة الجنسية أعمق بكثير مما يظن الكثير منا ، والسبب



في أن هذا الفرع كثيراً ما ينسد أو تقف دونه الحواجز ان الظروف  
الإجتماعية تعترض سبيل التنفيس عن الغريزة الجنسية الطبيعية .  
وهذه العقبات قد تكون عسيرة أو يسيرة حسب ظروف الفرد  
الخاصة . فإذا أحب الفتى أو الفتاة ، ومنعته الظروف من الزواج ،  
كان توقف المجرى الجنسي عن التدفق شديداً ، وشق علينا إزالة  
العقبة وتسهيل التدفق كي نكفل له - أو لها - حياة صحية من الوجهة  
البدنية والعقلية ، ولذا وجب علينا مواجهة هذه المشكلة ومحاولة  
التسامي بها بطريقة ما .

والشبان الذين يحسون بالقلق الجنسي وحدة الغريزة الجنسية  
الناهضة كثيراً ما يشبعون خيالهم بالأدب الغزلي ، وهم يفعلون ذلك ،  
وهم يجهلون ولا يدركون أنهم بذلك يشيرون الرغبة بدلا من أطفائها .  
وهم بالحصول على تفريج مؤقت يزيدون من شدة العلة .

ومن الأمور الشاقة على المرين إيجاد المنافع الكافية لهذه  
الغريزة ، وتدريب الأطفال في طرق التسامي القويمة ، والواقع أنا  
ينبغي أن نوجه مجهوداً كبيراً من تفكيرنا نحو هذه المشكلة ، مع  
العلم بأنها عويصة ، والكثير عن حقائقها مجهول لنا . كم من الناس  
يحاولون سنوات عدة أن يتجاهلوا الغرائز المكبوتة دون أن  
يقدرُوا نتائج ذلك ، وكم من فتاة تنشأ على عقيدة أن غريزة الجنس  
كامنة فيها لا تثور إلا عند الزواج . ولذى فلا يبذل القائمون بأمرهن  
أقل جهد في التسامي بهذه الغريزة . وهناك من الفتيات من إذا



أزيلت القيود المدرسية من وجهها واستبدلت بها الحرية وتقرير الذات وقعت بعثة في عادات عقلية وجثمانية تجعل التسامى مستحيلا ، فهي تندفع في العبث ، أو تسترسل في قرارة الأدب الغزلي ، وتقسم وقتها بين القراءة وزيارة صديقاتها من البنات ، وتشعر بالميل نحو زميل لها في الكلية أو مدرس من مدرسيها ، وتسمى هذا الميل صداقة ، وتسترسل في هذه الصداقة إلى حد غير مرغوب فيه ، لأنها قد لا تدرك أن هذه الصداقة ضرب من ضروب الحب . وبهذه الوسائل تقيم في عقلها الباطن صراعا عنيفا ، وبعد ما تقضى عدة أشهر في شقاء جثماني وعاطفي قد تصاب بالهستيريا التي تنسبها إلى الإرهاق في العمل . والولد الذي يسترسل في هذا الضرب من الصداقة ينبغي له أن يعلم جيدا إلى أي حد يجب أن تقف هذه العلاقة ، ولو فعل لباتت هذه الصداقة من أرق العلاقات التي نعرفها في الحياة . ولكن التجربة دلت على أن البنات لا يعرفن الحد الذي ينبغي أن تقف لديه الصداقة مع البنين جهلا منهن ، ويعتقدن أن العلاقة الجنسية إنما تقوم بين الرجال والنساء ، ولا تقوم بين الطلبة والطالبات ، ولا تدخل في حدود الصداقة بينهما . ولكنهن يجب أن يعلمن أن اللذة المعنوية التي تصحب كل مغامرة جديدة في الحياة إنما هي في كنهها ومغزاها « وقوع في الحب » وتحتاج إلى رقابة شديدة وتسام فعال .

وفي كتاب Leonora Eyles (ليونورا أيليس) «الحياة الخفية»



صورة قوية عما يمكن وما لا يمكن من التسامى بالغريزة الجنسية في الظروف المختلفة ، وتسوق المؤلفة أمثلة كثيرة لا يتسع المقام هنا لذكرها جميعاً ، ولكننا نسوق بعضها لايضاح الموضوع بعض الشيء . يذكر المؤلفة لنا مثل الزاهد المتقشف الذى يتوق إلى المتعة الجنسية ولكنه ينكرها على نفسه حباً منه فى إنكار الذات ، وتقديساً للطهارة الجثمانية ، وتضحية فى سبيل الله . وقد ينجح فى إنكار هذه اللذة نجاحاً تاماً حتى يقع فى حب امرأة ، ولكنه يرى أن المثل الأعلى للمتقشف هو فى العزوبة فلا يتزوج ، ويبدأ الصراع فى نفسه وينتهى بتهدم جثمانى وعقلى عظيم . ومثال آخر : المرأة التى رفضت الزواج لأنها ظنت أن والديها بحاجة إلى خدماتها . ولما كان والداها فى صحة جيدة ، وعلى شىء من الثراء ، فإن خدماتها لم تملأ حياتها عملاً ، فقضت عشرات السنين حسرة على ذلك الزوج الذى أضاعته ، حتى أنشأت أحلام الحب والخيال فى نفسها صراعاً خليقياً انتهى بها إلى الحبوط العصبى . وإلى جانب هذه الأمثلة من الفشل من جراء كبت الغريزة الجنسية أمثلة أخرى نجح أصحابها فى التسامى بالغريزة . ومن هؤلاء تلك الطيبية التى أحبت رجلاً لم تستطع الزواج منه ، فشعرت بالخيبة والفشل ، ثم تسامت بنفسها بتكريس حياتها لخدمة الإنسانية ، والعاشق الذى ظن أن العمل نوع من التسامى أرقى من الزواج ، ونجح فى عمله نجاحاً تاماً لأنه كان يعتقد بكل قلبه أن العمل لمصلحة الغير قد يكون منصرفاً كاملاً للغريزة الجنسية .



وقضارى مايجنيه القارى من هذا الفصل أن النجاح فى التسامى  
يتوقف على فهم طبيعة الصراع النفسى . فإن الزاهد الذى فشل ،  
والعاشق الذى نجح ، كان كلاهما ينفق العمر اصالح الإنسانية ، وكان  
كلاهما عاشق يحب امرأة لا تحول تقاليد المجتمع دون الزواج منها ،  
ولكن الزاهد فشل لأنه حاول أن يصرف غريزته بمهاجمتها مهاجمة  
صريحة ، ونجح الرجل العاشق لأنه وجه نشاطه وجهة أخرى . أى  
أن الأول حاول أن يسد المجرى سداً تاماً فانفجر السد ، وأما الثانى  
فقد أدرك أن هناك حاجزاً فسمح للتيار أن يتدفق فوقه وحواليه .  
وأكثر الحوادث التى تعرض للطبيب النفسى هى حوادث تتعلق  
بكبت الغريزة الجنسية أو قمعها . وليس من شأننا هنا أن نتعرض  
لتفصيلات عمل مثل هذا الطبيب ، ولكننا نستطيع أن نفهم عمله  
إجمالاً . ذلك أن الرغبات الجنسية المكبوتة كثيراً ما تغوص فى أعماق  
اللاشعور ، فيدور أكثر العلاج حول إخراجها شيئاً فشيئاً إلى  
دائرة الشعور ، وقد يدرك الطبيب فى ساعة أو بعض ساعة الرغبة  
المكبوتة ، ولكن يشق عليه أن ينقلها من اللاشعور إلى الشعور  
بمجرد نصيح المريض أو شرح المسألة له ، فالمريض لا يعتقد ، ولا  
يقر البتة صدق ما يقال له . ومهارة الطبيب فى إقناع المريض إقناعاً  
قوياً بحقيقة الصراع اللاشعورى . وإذا ما بات الصراع شعورياً  
انفك مقدار كبير من النشاط المحبوس . وإن أمكننا توجيهه وجهة  
جديدة نحو مجار جديدة خير من السابقة نجحنا نجاحاً تاماً . وعمل



الطبيب ينحصر في إقناع المريض بأن هذه المجارى موجودة فعلا ،  
وأما توجيهها وجهة جديدة فيتعلق بالمريض وحده دون سواه .  
ومن الجلى أن المهارة التي يتطلبها هذا الفرع من علم النفس تنحصر  
في صعوبة إخراج الرغبات المكبوتة من اللاشعور إلى الشعور .  
وعملية تهذيب العقل الواعى وتلقينه الحقائق الجديدة والملاءمة بينه  
وبينها تحتاج إلى دراية وعطف وسياسة ، ولكنها ليست عسيرة  
كعملية التحليل . وينبغي أن يكون في مقدور المعلم والوالد والواعظ  
أن يقوم بها . ولكن التحليل يحتاج إلى شخص مدرب واسع الثقافة  
في هذا الباب .

ولذا فإن كثيراً من أسباب النورستانيا يمكن إزالتها بشئ من  
الحكمة . ولو أن منهج الثقافة العامة في المدارس الثانوية يشتمل على  
معلومات أولية عملية عن الغرائز الأساسية وكيفية علاج مظاهرها ،  
لقلّت عند الأطفال الرغبات المكبوتة بمقدار كبير ، وبات في مقدور  
الوالدين والمعلمين معالجة المراهقين من الوجهة النفسية ، وتوجيههم  
وجهاً صحيحة ، ويقل بذلك عمل طبيب التحليل . أجل إن حوادث  
النورستانيا الشاذة لن تنقطع ، ولكن المأساة اليوم هي أن عدداً  
كبيراً ممن نظن أنهم قوم عاديون ، هم في الواقع من الشواذ ، وما ذلك  
إلا نتيجة لأخطاء وقع فيها المرءون ، وكانوا يستطيعون تلافيها .



## الأحلام

كان الناس حتى عهد قريب ينظرون إلى الأحلام كأنها هراء  
لا معنى له ، وقولنا « هذا حلم » و « أنت تحلم » يدل على الرأى العام  
في الأحلام . ولكن المتوحشين والشعوب البدائية تهتم بالأحلام  
وتحاول تأويلها . وكتب الأحلام الشعبية ما تزال شاهداً على اعتقاد  
العامه فيها بعض الشيء .

لم نذكر كثيراً عن الأحلام في الفصول السابقة ، لأن الحلم  
- رغم أنه أداة هامة للطبيب النفسى فى علاج النورستانيا - له  
قيمه عملية محدودة للرجل العادى فى حياته اليومية . والحلم الذى  
لا يحلله صاحبه لا أهمية له . وتحليل الأحلام يحتاج إلى علم واسع  
وهارة وخبرة ، وكثير من يعشقون تفسير الأحلام على غير أساس  
متين من العلم يقعون فى أخطاء جسيمة . ولكن الأحلام - رغم  
ذلك كله - كانت منذ البداية شديدة الارتباط بعلم النفس التحليلى ،  
فلا يمكننا إهمالها عند عرض العلم ، مهما كان العرض مختصراً .

ولقد كان بحث فرويد فى الأحلام هو حلقة الاتصال الأولى  
بين تحليل النفس وعلم النفس العام . كانت الأحلام حتى سنة ١٩٠٠  
تعتبر فى أنحاء العالم أجمع خرافة لا تستحق الدرس ، ولا يصح أن  
يعبأ بها العلم ، وكان بعض الأطباء يعتقدون أنها تنشأ عن اضطرابات



فيزيقيّة في المخ أثناء النوم . وهناك من كان يربط الأحلام بالسكّهانة .  
حقاً إن نظريات فرويد لم يعترف بها إلا القليل حتى الآن ، ولكن  
ليس من باحث اليوم لا يعتقد أن دراسة الأحلام هامة في علم  
النفس ، وأن للأحلام قيمة عمليّة في علاج الاضطرابات العصبيّة ،  
حيث ينبغي تعرف الطبقات العميقة في العقل .

ونحن حين نحاول أن نعالج موضوع الأحلام ، ذلك الموضوع  
الذي لا يزال غامضاً حتى في عقول كبار علماء التحليل النفسي ، لانزعم  
لأنفسنا إننا نصيب الحقيقة التي لا مرأى فيها . بل إننا نعترف أن كل  
ما نقول في هذا الباب عرضة للنقد والتفنيد من لا يؤمنون بالنظريات  
التي نورد ، ومن يعتقدون في آراء أخرى في هذا الموضوع .

كانت العقيدة السائدة أيام ظهر علم النفس التحليلي أن الأحلام  
جميعاً تعبيري رمزي للصراع القائم في العقل الباطن . ثم قام أخيراً  
بعض الباحثين من يقول بأنها ليست جميعاً كذلك ، وأن هناك فرقا  
في المغزى بين حلم وآخر ، فليست الأحلام جميعاً رمزية ، وليست  
جميعاً قابلة للتحليل والتأويل . ويرى « كستر » Coster أن عمل  
العقل أثناء النوم يختلف كثيراً باختلاف الأشخاص ، وباختلاف  
الأزمان ، وأن الحلم الرمزي ، الذي يفيد طبيب التحليل كثيراً ،  
ما هو إلا نوع شائع بين عدد كبير من الناس . وقد تكون هناك  
أحلام أعمق من هذه غوراً ، تبدو فيها الحقيقة بطريقة أخرى غير  
الطريقة الرمزية ، ولكننا في هذا الفصل لن نتعرض لغير الأحلام



العادية التي يمكن تأويلها وتحليلها .

حين ينام المرء تفتت إلى حد كبير قوة الكبت التي تعمل على إخفاء الأفكار غير المرغوب فيها ومنعها من الظهور في ميدان الشعور ، فيضعف إحساس المرء بما هو حق وما هو جائز ، وبما يتفق واحترامه لنفسه . وتمر بالعقل الخواطر التي نأبى التعرض لها أثناء اليقظة ، على هيئة الصور . ولكن الحاسة الخلقية لا تختفي اختفاء تاماً أثناء النوم ، وإنما يبقى لها نفوذ عظيم فتحدد مجرى الحلم إلى حد كبير . فهناك وقت النوم ما يوقف التعبير الصريح عن الآراء البغيضة التي نحب إبعادها ، فلا نسمح لها بالظهور إلا في صورة رمزية ، أو في صورة تشبه الحقيقة وليست بها . ولم يفسر لنا أحد ممن كتبوا في هذا الموضوع هذا المانع تفسيراً كافياً ، ويسميه فرويد بالرقب النفسي الباطني ، Eudo Psychic Censor ، ومن العسير أن نفهم لماذا يحاول اللاشعور أن يتصل بالشعور ، وأن يفعل ذلك على حساب هزيمته . ولكن هذا هو ما يحدث . وكما أن القصص التمثيلية هي أقاصيص مأخوذة من الحياة اليومية ، إلا أنها تنطوي على معنى خفي ، فكذلك الأحلام لحمتها وسداها الحوادث اليومية ، ولكنها ترمز إلى مشاكل نفسانية أشد غوراً .

وإليك شرح موجز للطريقة التي تحلل بها الأحلام : يقص المريض حلمه ، ويرشده الطبيب إلى تتبع كل ما يرتبط بالأفراد ، والأشياء والحوادث التي وردت في الحلم . وفي أكثر الأحلام



تؤدي الزوابط من حوادث بسيطة غير هامة وقعت في اليوم السابق إلى حادث أكثر أهمية بكثير وقع في الماضي البعيد ، ثم إلى مشكلة كبيرة أو صغيرة في عقل المريض . ويسمى الحادث أو الظرف المباشر الذي بعث الحلم « بالصورة الظاهرة » والحوادث البعيدة الهامة التي ترتبط بها « بالصورة الباطنة » ، وأعمق من هذا وذاك أن الحلم في صورتيه الظاهرة والباطنة يرمز إلى شيء آخر سنحدثك عنه بعد قليل ، والحلم في الواقع يترجم الصورة الباطنة إلى الصورة الظاهرة ، وذلك دون تدخل القوى العاقلة . وإليك الآن تحليل حلم من الأحلام البسيطة لتوضيح ما ذكرنا .

جاء إلى الطبيب النفسي يوماً رجل في حالة عصبية شديدة ، وروى له الحلم الآتي : « رأيت في الليلة السالفة أن كلباً مجنوناً يطاردني » . وقد استخرج الطبيب من المريض كل ما يرتبط في ذهنه « بالكلب المجنون » فوصل إلى التحليل الآتي : —

قال الرائي عن الكلب المجنون :

١ - أنا أكره الكلاب ، وقد رأيت أحمد بالأمس وكلبه معه ، فهب الكلب في وجهي .

ب - كان والدي يحتفظ بعدة كلاب أيام طفولتي ، وكنت أخشى أبي ، وقد انتابه دور عجيب فيما بعد فأرسل إلى مستشفى الأراض العقلية . وإني لأحس أحياناً أنني أسير في الطريق عينها التي سلك أبي من قبل ، واني قد انتهت إلى مرض عقلي .



ح - الكلب المجنون ! إن في نفسي شيئاً كالكلب المجنون يريد أن ينطلق ، ولو حدث ذلك لقضى على .

هذا التحليل يبين لنا أن ( ا ) تفسر الصورة الظاهرة ، وأن ( ب ) تؤول الصورة الباطنة ، وأن ( ج ) هي الفكرة الأساسية للطاقة الحيوية المتدفقة ، أو الطاقة الغرزية . ويلاحظ أن ( ا ) و ( ب ) يقومان على الروابط الشخصية عند هذا الرجل ، وأن ( ج ) رمز عام قد يصدق على أي فرد . والطاقة الحيوية المتدفقة كثيراً ما يمثلها حيوان كالأسد أو النمر أو الثور الغاضب .

وهذا الحلم الذي روينا يبين أن النورستانيا عند الرجل ترجع إلى خوف شخصي من أن يرث جنون أبيه .

ولكن الأحلام ليست دائماً بهذا الوضوح ، وعلى أية حال فإن أحلام الاطفال وغير المتعلمين ، أشد وضوحاً وأقل تعقيداً من أحلام الطبقات المثقفة .

ومما يساعد على تعقيد « الرمزية » في الحلم أن كل شخص أو حادث هام في الحلم يمثل وجهاً من أوجه النفس ، فالكلب المجنون مثلاً - بغض النظر عن كل معنى آخر له - يمثل طبيعة المريض الدنيا . ومن الرموز الشائعة في الأحلام أن يرى النائم والده في صورة الملك وأمه في صورة الملكة أو غير ذلك من الشخصيات الكبيرة الهامة . ويرمز الحلم للميلاد بالماء ، وللوت بالسفر ، وللعرى بالملبس ، وللذكر بالعصا أو السكين أو الرمح ، وللأنثى بالأواني



الفارغة والكهوف والصناديق وما إلى ذلك من الأجسام الجوفاء ،  
ولليسر بالخضرة . ومن الذائع بين الناس أن الرمز لا بد يدل على  
شيء معين ، ولكن تحليل النفس أثبت أن هذا يتوقف على الفرد  
والمعاني المترابطة في ذهنه .

وإليك مثالا آخر يعين على توضيح الموضوع . روت فتاة  
متعلمة هذا الحلم :

« كنت في حجرة خالية في أعلى بناء مرتفع ، ورأيت أن الدرج  
الذي صعدت عليه قد تهدم خلقي ، وكنت أخشى ألا أستطيع النزول  
ثانية . وكانت النافذة مفتوحة ، ولم ألبث قليلا حتى طار نحو النافذة  
رجل زرى الهيئة ، ولكن الشفقة تبدو عليه ، فاختمتني على عجل  
وطار بي إلى مكان آمن . وقد سررتني أنى نجوت ، ولكنني غضبت من  
الرجل لسلوكه الذي لم يراع فيه آداب اللياقة .

« والصورة الظاهرة » لهذا الحلم هي أن الفتاة كانت في اليوم السابق  
تحزم متاعها في الطابق العلوي من البيت الذي يمكن الوصول إليه على  
على سلم شديد الانحدار

« والصورة الباطنة » هي أن الرجل الفظ يمثل طبيب التحليل ،  
لأن طرائقه تخلو من اللياقة وليست محببة إلى النفس . والحجرة العليا  
هي المأزق الحرج الذي وقعت فيه من أثر الوهم وعدم النظر إلى  
الحياة نظرة عملية . فالفتاة « معلقة في الهواء » ولا تدري إن كانت  
تستطيع الهبوط ، والدرج ( أو الطرق العادية لعلاج الموقف ) قد



خانها ، والنافذة مفتوحة ، ومعنى هذا أن هناك مخرجا . وطبيب التحليل « يطير » وينقذ الفتاة . أى أن طرائقه فى العلاج عجيبة لم تكن تتوقعها . وقد « نجت » وانفرج الكرب ، ولكنها « غضبت » بعد ذلك ، أى أن علاج الطبيب قد ينجح ، ولكنها لا تحب هجومه المباشر على موطن الضعف فيها .

والرمز العام لهذا الحلم هو أن الرجل الفظ يمثل خلق الفتاة تمثيلا عمليا ، وهى تحتقر فى نفسها هذا الخلق ، ولكن نجاتها معلقة به . والحجرة العليا التى إتحصرت فيها الفتاة فى حلمها هى رمز شائع فى الأحلام ، ويشير إلى الانفصال عن الحقائق والخوف من الجنون وهذا الحلم فيه بالإضافة إلى التفسير الذى ذكرنا معنى الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة . فالمریضة قد نمت فيها غريزة السيطرة نمواً عظيما ، وضربت لنفسها فى الحياة مثلا أعلى غير عملي ، مما جعل أوجه الغريزة الجنسية البدائية كريمة لديها . وهاتان الحقيقتان يمكن استنتاجهما من الحلم بغير عسر .

ويقول فرويد فى مؤلفاته الأولى أن الأحلام جميعاً تمثل رغبة لم تشبع عند صاحب الحلم . ورغم أن البحوث الأخرى فيما بعد كانت تميل إلى إيجاد أنواع أخرى غير هذا النوع ، فقد لبث هذا الضرب — وهو « تحقيق الرغبات » — كثير الانتشار . فالصاى يرى أنه يشرب ، والجائع يأكل . وقد يحقق الرأى رغبة من رغبات الصبا كموت أخيه مثلا . ولكن الأحلام ليست جميعاً كذلك ، فقد يحلم



الطفل مثلاً بأن حيواناً متوحشاً يهاجمه ويريد التهامه ، وقد يحلم طفل آخر أنه دائماً يسقط من أعلى . فمثل هذا الطفل الأخير ربما كان يقطن منزلاً في الطابق العلوي وتحذره أمه من السقوط إذا لم يحرص . فلو أمعنا في النظر قليلاً لأدركنا أن حلمه هو في الواقع تحقيق لرغبة ، لأن السقوط في النوم طريقه لاشعوريه لتحقيق أمنية دفينية ، وتلك هي أن هذا الولد ، وهو طفل صغير يتعلم المشي ، سقط مرة ، فأنت إليه أمه وأولته عطفها ، فأرتبط السقوط بعطف الأم ، ولذا فهو بسقوطه في الحلم يرمى إلى الظفر بعطف أمه .

وربما كان أكثر الأحلام شهرة في العالم أجمع حلم يوسف عليه السلام وهو صبي . فقد رأى أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر تسجد له . ولسنا نتعرض هنا إلى رؤيا النبوة ، ولكننا ننظر إلى قصة يوسف كما تروى لنا ، فنراه أخاً صغيراً يكرهه إخوته ويسبئون معاملته فيفكر في الانتقام منهم ، ولكن نفسه الكبيرة تأتي عليه ذلك ، فيريد الله أن يحقق له هذا الرغبة في الحلم أولاً ، وفي سيادته عليهم فعلاً آخر الأمر . وقد ينبئ الحلم بالمستقبل إذا بلغ بالشخص نفاذ البصيرة أن يتوقع ما تحققه الأيام . فليس عجيباً أن يحلم التلميذ المجد بالنجاح ، ثم ينجح .

ومن الأنواع الأخرى الشائعة في الأحلام ذلك الحلم الذي يمثل الصراع اللاشعوري . وإليك مثلاً من حلم من هذا النوع ، رآته فتاة قوية الخيال ، ويبين خيالها الصراع بين الخلق الفردي ، والخلق



« الاجتماعى » . كانت الفتاة فى ذلك الوقت شديدة الفردية تحيا فى عالم داخلى غنى بالأوهام القوية المشبعة ، ولكنها كانت لا تشعر شعوراً تاماً بخطر حالتها النفسية . وانطلاق الطاقة الحيوية انطلاقاً باطنياً هكذا سبب لها أعراضاً متعددة غير عادية ، منها السرقة غير المقصودة Kleptomania . وقد بدأت هذه العادة عندها فى سن باكورة من الطفولة نتيجة لصدمات جنسية طفيفة صحبها شغف بالمعرفة قوى لم تنطفىء ناره . وكما هو شائع فى أمثال هذه الحالات ، كانت المسروقات عادة أشياء زهيدة تافهة ، فلم ينتبه إليها أحد ، ولم يشتبه أحد فى خلق الفتاة . ولكن لما تقدمت بها السن إزدادت سرقاتها . وبما ساعد على تعقيد الأمر أن كتبها للجريمة كان شديداً جداً لدرجة أنها كانت شديدة النسيان لها . وكانت ترتكب السرقة وهى فى حال عقلية تشبهه حال النائم الذى يهب ويمشى وهو فى غفوته . وبعد تحليل طويل عادت إليها ذاكرتها تدريجاً ، واستذكرت الحوادث واحداً بعد الآخر فى فترات متباعدة قد تبلغ الأشهر أحياناً .

وهذا ما رأته الفتاة فى يوم من أيام التحليل :

قالت : « رأيت إنى نابليون ، يدنى الجميع أن أغامر فى موقعة ما ، وأردت أن أخرج إلى الحرب ولكنى لم أفعل ، ولذا فقد عدت إلى خيمتى ، وكانت فاخرة فى الداخل ، بها كثير من الصور والرسوم وأسباب الجمال ، وكان مكاناً خاصاً لا يتردد عليه أحد . ولبث الناس خارج السرادق يحاولون إخراجى واشتراكى فى الموقعة .

17 SEP 1900



وكان الجند جميعاً يريدون ذلك، وأظهرت الألوف منهم هذه الرغبة .  
ولكنني ما ان أعلنت الرفض حتى ارفضوا وانصرفوا وانتهى الأمر .  
وكان لابد لهم من القبول وهم كارهون .

« رأيت إني نابليون » مامعنى هذا ؟ إن « فردية » الفتاة فردية  
شاذة كانت ترجع إلى رغبة في العلم لم تشبع - وبخاصة العلم بالاشئون  
الجنسية - وكانت القوة في نظرها مرادفة للعلم ، ولذا رأت أنها شديدة  
النفوذ ك نابليون .

« وكانوا جميعاً يريدونني على أن أشارك في القتال الخ . . . »  
مامعنى هذا ؟ معناه أن الأفراد الذين تهمهم سعادتها كانوا يحبون لها  
الشفاء ، فكأنهم يريدون لها - فيما يرى عقلها الباطن - القتال والموت  
وقد رأت أنها « نابليون » فكان من حقها ألا تنزل إلى ميدان  
القتال إلا بإرادتها .

« عدت إلى خيمتي الخ . . . » أى أنها قررت أن ترفض القتال ،  
ولذا تقهقرت إلى عالم من الوهم ، إلى مكان خاص ، حيث تستطيع .  
أن تخفى أسرارها ، إلى مكان « فاخر » غنى بقوة خيالها الخصب ،  
حيث رأت « صوراً ورسوماً وزخارف » كثيرة ، وكلها تمثل  
الحقائق ، وليست بالحقائق عينها .

« وكان الجند جميعاً يريدون ذلك ، وانتشر الألوف منهم » . في  
هذا رمز ثنائى ، فإن كل الحوافز في العالم الخارجى ، وكل قوى البيئة  
الاجتماعية كانت تصر على أن سلوكها الفردى يجب أن يقف عند



حد . وكان استحثاث الطاقة الحيوية يدفع إلى الخارج ، فكان التيار المحجوز يحاول أن يحطم الحواجز .

« واسكني ما إن رفضت حتى انتهى الأمر » . قررت ألا تحاول . كانت « نابليون » فلم يستطع أحد أن يرغبها على فعل ما لا تريد . ولذا فقد وقف تحايلها عند هذا الحد ، ولم يمكن السير به إلى الأمام .

وهناك ضرب ثالث من الأحلام ، لا هو يحقق الرغبة ، ولا هو يمثل الصراع اللاشعوري . وهو كثيراً ما يقع في الفترة الأخيرة من التحليل ، ونسميه حلم التسامي . وقد يتم هذا الحلم في وقت لا تحليل فيه . ومن الأمثلة الطيبة لهذا النوع ذلك الذي رأته الفتاة التي ذكرنا آنفاً في الأيام الأخيرة من فترة علاجها .

روت عن نفسها ما يأتي « كنت في الكنيسة في صلاة مسائية ، واتخذت مكانى المعهود ، وكان المرتلون هناك جميعاً ، وأكثرهم من الرجال والأولاد الذي كنت أعرفهم ، وكان بعضهم يعني « المجد والعظمة لله » وبعضهم الآخر لا يعني مطلقاً . ولحظت فجأة أن الشموع على المذبح من ناحيتهم لم تكن موقدة ، بينما كانت تتوهج الشموع في الناحية الأخرى ، فنهضت وأضأت الشموع الأولى واحدة بعد الأخرى ، بادئة بالصف الأول ، ثم بالعلوى ، فالسفلى . ولما عدت إلى مقعدى بدأ المرتلون في الخروج ، وبدلاً من أن يتسللوا اثنين اثنين ، خرجوا واحداً بعد الآخر . وهكذا كونوا



خطا واحداً ، وخلفوا الكنيسة .

وتفسير هذا الحلم أن الفريقين من المرتلين يمثلان جانبين من نفس الفتاة ، جانباً لا يريد أن ينخرط في سلك الحياة فأظلم ، وآخر يريد الخروج إلى الحياة فأضاء . وقد رأت الفتاة أن المرتلين قد خرجوا موحدين في صف واحد ، أي أن جانبي نفسها قد اتحدا .

ويقول فرويد أن وظيفة الحلم هي وقاية النوم ، وذلك بتحويل كل ما يهدد بإزعاج النائم في نومه إلى تحقيق رغبة من رغباته تحقيقاً خيالياً ، وبذا يهدأ النائم . وقد يكون ما يهدده جثمانياً أو عقلياً ، ألم في المعدة أو الحاح فكرة مزعجة أثناء النوم . وفي معظم الأحيان - بل في كلها ، اللهم إلا حينما يكون النوم عميقاً جداً - يخف إزعاج النائم بطريق معقدة . ترتبط الفكرة المزعجة برغبة مكبوتة ، وهذه الرغبة المكبوتة لاشعورية صبيانية ، فيتخيل النائم أنه يشبع هذه الرغبة المكبوتة . ثم يتغير تحقيق الرغبة هذا تغيراً شديداً قبل أن يبرز إلى الشعور في صورة الحلم .

وهذا التغير ضروري لأن الرغبة تتعلق بالجانب المكبوت من العقل ، وهو الجانب الذي لا يستطيع أن يخرج إلى حيز الشعور ، وقبل أن يبرز إلى الشعور ينبغي له أن يمر بالرقيب الذي يقع بين الشعور واللاشعور . وإن كانت الرغبة المكبوتة قوية جداً ، لا تستطيع عملية الحلم اتمام هذا العمل ويفشل الحلم في وظيفته ، ويحس النائم بما يعرف «بالكابوس» ومعناه أن «الصوره الباطنة» لم تخفف



اختفاء كافياً ، فيشتد الخطر على النفس ويستيقظ النائم كي يعالج  
خطر الدافع اللاشعوري الذي أوشك أن ينطلق ، ويتم هذا في حالة  
اليقظة خيراً مما يتم في حالة النوم ، لأن الرقيب أثناء اليقظة يكون  
أشد تنبهاً ، ولذا « فال-كابوس » عبارة عن محاولة غير ناجحة من  
جانب الطاقة الحيوية للتخلص من الخواطر المكبوتة. وهناك من  
يقول بأن الكابوس عبارة عن رعب مندرس في العقل الباطن ،  
وأنا لا نستطيع الفرار منه حين يهاجمنا لأننا نستجيب كما كان يفعل  
الإنسان الأول بالسكون لا بالحركة . وأمثال هذه الأحلام  
مصحوب في الغالب بالخوف الشديد أو بعاطفة أخرى غير سارة ،  
وهي ذات قيمة كبيرة في دراسة اللاشعور .

وقبل أن يخرج الدافع المزعج في صورة حلم كامل يختلط بالرغبة  
المكبوتة ، ثم تتحقق الرغبة في صورة يقبلها الشعور ، وهذا ما يسمى  
« بالتحريف » Distortion . وهو مما يساعد على غموض الأحلام  
وصعوبة تأويلها ، فنحن في الحلم مثلاً نرى المكان الواحد في صورتين  
مختلفتين ، والشخص الواحد في أكثر من هيئة واحدة . وكثيراً  
ما يبدو من المكان أو الشخص بعض مميزاتة فحسب ، وتختلط  
بمميزات مكان آخر أو شخص آخر ، أو تبرز المميزات المشتركة بين  
شخصين مثلاً في صورة واحدة ، وهذا ما يعرف « بالتركيز » ، ومعناه  
اختلاط الصورة الظاهرة بالصورة الباطنة ، وبالتحليل تتميز هذه  
عن تلك .



ومن مميزات الأحلام التي ينبغي أن نشير إليها قبل أن نترك الموضوع ما يعرف « بالاستبدال » Displacement (١) حيث تنتقل مزايا شيء إلى آخر .

وكثيراً ما تتحول خواطر الصورة الباطنة إلى ما يشبه الرواية المسرحية تشمل في رؤيا النائم . وعند ما ينتقل الحلم إلى الشعور يتم له ما يعرف بالتحريف الثانوي ، وذلك أن الحلم تترابط أجزاؤه ، ويتماسك في صورة معقولة . وتستمر هذه العملية إلى ما بعد اليقظة . فلو كتبت الحلم بعد اليقظة مباشرة ، ثم حاولت تذكره بعد مدة ، وجدت أن ذكرك إياه بعد زمن يختلف عما سجلت

---

(١) والاستبدال معروف في بعض الظواهر النفسية الأخرى ، وهو مألوف بين الأطفال . هب أنا عرضنا في مناسبات مختلفة على طفل ما لعبة في شكل أرنب له فرو كثيف ، وأنا كل مرة نعرض فيها الأرنب نحدث ضجيجاً عالياً خلفه ، فإن الطفل ينكمش خوفاً من الأرنب ، ثم هو يفعل ذلك فيما بعد حتى لو قدمنا له الأرنب بغير الضجيج . ماذا حدث ؟ لقد أصبح الطفل يستجيب بالخوف من منظر الأرنب وحده بغض النظر عن الضجيج . أى أن الأرنب أصبح له عند الطفل معنى ، وكان من قبل هذا المعنى يفتش في ذهنه من مجموعة الأرنب جزء منها . ولكن الخوف كان مبدأ الأمر يرجع إلى الضجيج وحده .

وللأطفال ميل فطري إلى الخوف حينما يفاجأون بصوت مرتفع . =



على القرطاس حين التيقظ . ويجب ألا تفوت المحلل هذه الظاهرة .  
فعمل الحلم إذن يشبه العمل الأدبي ، فهو مشاهدة تجربة ما ، ثم  
تعديلها بحيث يمكن إن تقع في الحياة فعلا ، ويتم ذلك دون علم منا .  
وقد قلنا من قبل أن الأفكار الباطنة تتقهقر (١) إلى اللاشعور

== هذا الميل الآن انتقل إلى الأرنب، نظراً لأن الأرنب والصوت  
كانا في وقت ما يكونان مجموعة واحدة . وليس هذا معناه أن الطفل  
إن يخشى الأصوات المرتفعة في المستقبل ، ولكن معناه أنه سوف  
يخاف الأصوات والأرنب ذات الفراء . وفوق ذلك فإن عملية  
« الاستبدال » أو « اكتساب المعنى » قد تستمر إلى ما لا نهاية  
مادامت مصادر الخوف المتتابعة يشترك فيها عامل واحد . وإذن  
فالطفل - نتيجة لمجموعة الأرنب والضجيج - قد يخشى في المستقبل  
عمة له ترتدى الفراء ، ثم يخاف من أى شخص يشبه العمة في شيء  
ما كالأنف الطويل مثلاً . وتستمر الحال على ذلك حتى يبلغ سن  
الرشد ، ويقول إنه يكره « بالغريزة » كل من له أنف طويل . مثل  
هذا الشخص فريسة لاستبدالات متتابعة ، رغم أنه قد يجهل هذه  
الحقيقة .

(١) نقصد بالتقهقر أو التراجع Regression أن المرء قد يواجه  
مشكلة ما ولا يستطيع التصدي لها . وهذا الضرب من الإحساس  
تلمسه في حياة الناس كل يوم . فالفتاة الصغيرة التي تجد نفسها وقد  
تخطت المرحلة التي كانت أمها تستطيع فيها أن تحميها من كل =



الصبياني . وهي كذلك ، تتقهقر ، بمعنى آخر ، وذلك بأنها تتحول  
من خواطر مجردة معنوية إلى محسوسات ، فهي لا تفهم كلمة « الصوت »  
وإنما تسمعه ، ولا تتصور « الراحة » وإنما تشمها فعلا .

ويظهر من تحليل الأحلام أن الكثير من مادتها مشتق من  
الحياة الجارية ، ومن ذكريات الطفولة . ولذا فدراسة الأحلام  
تهيء لنا الفرصة لمعرفة خفايا اللاشعور ، وما يزعج العقل الباطن في  
وقت ما ، وما يرتبط به من انفعالات وخواطر .

ولزيادة الإيضاح نروي الأحلام الآتية مع محاولة تفسيرها .

١ — رجل متزوج يعرف رجلا آخر له زوجة أجمل من

---

== شرور العالم الخارجي ، تضع أصبعها في فمها ، وتهذي هذيان  
الأطفال كي تنجو مما لا تحب . وهي بهذا تتراجع إلى الطفولة . والشاب  
الذي يأتي إلا أن يكون كلا على البيت ، لا يقوم بغير اللعب ، ويتحاشى  
العمل ، إنما يتقهقر إلى الطفولة ، لأن الرجولة تبدو له ثقيلة على  
نفسه . ونحن نرى أن مثل هذا الرجل عضو غير نافع في المجتمع ،  
وإن تمادى في ذلك أصيب بنوع من الجنون . ومن الأمثلة الشهيرة  
لهذا التراجع ذلك الجندي النمساوي الذي أصيب بارتجاج شديد  
في الحرب العظمى ، فتراجع في تصرفاته إلى طفل عمره عام ونصف  
العام ، وأخذ يزحف على أطرافه ويهذي هذياناً أبعد ما يكون عن  
الكلام المفهوم ، ويلعب بالصور ، ويسر من رسوم الحيوان ، ويطلق  
عليها مسميات الأطفال .



زوجته . رأى هذا الرجل يوماً جبلاً شاهقاً ، وأن بجانب الجبل كهفاً ،  
وأنه وقف إلى جوار الكهف ، وظن أن الكهف هو قبر نابليون في  
«سنت هلنا» ، وكان اسم زوجة صديقه «هلن» . في هذا الحلم دليل  
على حبه «هلن» ، ولكن الفتاة لم تظهر له في الحلم كي لا يحس بوخز  
الضمير ، إذ قد لا يفهم معنى الحلم بعد يقظته ، رغم أن العقل الباطن  
قد قضى بالحلم مأربه . ومثل هذا الحلم نافع لصاحبه لأنه يظني  
بعض شهوته بطريق لا يحاسبه عليها العرف والأخلاق

٢ — رأى رجل أنه يسكن إلى جانب بحيرة ، وأن على سطح  
البحيرة زورقاً لا يتسع لغير راكب واحد ، وأن الزورق قد انقلب  
وغرق راكبه في لجة الماء ( وكان في اليوم السابق يقرأ شيئاً عن  
حياة الصيادين ) ، وبالبحث مع هذا الرجل ظهر أن له ابناً واحداً ،  
وأن هذا الابن كان متغيباً في رحلة مدرسية ، وكان يخشى أن يكون  
ابنه قد مات لسبب ما . وقد رآه في النوم فعلاً وقد غرق ، لأن  
الشعور كما ذكرنا من قبل مزدوج دائماً . فالأب يحب ابنه ويخشى  
عليه من الموت ، ولكنه يكره فيه من ناحية أخرى منافسته له  
فيحقق رغبته في التخلص منه بهذه الوسيلة في الرؤيا .

٣ — شاب يحب أمه حباً جماً ، ولكنه رأى في نومه أنها قد  
ماتت فهل هو يحقق بذلك رغبة في نفسه ؟ أجل ، ولكنه هذه  
الرغبة التي يحققها في سن الشباب مندسة في نفسه من أيام الصبا ،  
حين كان لا يعقل كثيراً ، ويتمنى لأمه الموت لأنها تضربه تأديباً له .



٤ — رسب طالب في الامتحان ، وكان يتمنى أن يكون له  
« ملحق » فرأى أنه اشترى قماشاً ، وأن القماش لم يكف رداء له ،  
فاشترى « ملحقاً » للقماش يكمل به الرداء . وفي هذا الخلط اللفظي  
مثل من أمثلة الاستبدال ، في الأحلام

٥ — روى تلميذ صغير يتعلم الكتابة أنه كتب اسمه في الحلم  
خمس مرات . وتأويل هذا الحلم أن الطفل يجب أن يتعلم كيف  
يكتب اسمه ، وقد حقق هذه الرغبة في الحلم . وقد تسأل ولماذا كتب  
اسمه « خمس مرات » ؟ وقد يكون ذلك لأن أباه أعطاه خمسة مليات  
في صباح اليوم الذي رأى فيه الحلم

ومما يجدر ذكره هنا أن بعض الأحلام قد عرضت على أطباء  
مختلفين للتحليل فاختلّفوا في التفسير . ويرى بعض الناس أن في هذا  
دليلاً على أن تحليل الأحلام لا قيمة له ، وهذا خطأ لا شك فيه ،  
فليس معنى تفسير القصص الدينية على صور مختلفة أن القصص  
الدينية لا مغزى لها ، فليس الحلم بالامر الواقع الذي يمكن تفسيره  
بسهولة ، إنما هو أمر معقد ينطوي على معان كثيرة . وعالم التحليل ،  
الذي يظن أن الغريزة الجنسية هي صاحبة السلطان ، يرى رموزاً  
جنسية ، بينما قد يجد غيره رموزاً للقوة . ولكن بما أن الغريزتين ماهما  
إلا صورتان مختلفتان لقوة واحدة ، فإن طريقة التحليل ليست بذات  
أهمية . هذا إلى أن بعض مفسري الأحلام يهتمون بالصورة الباطنة ،  
بينما يهتم الآخر بما يرمز إليه الحلم . وكما أن الصورة لا يفهمها على



صحتها الا مصورها ( والمعنى فى بطن الشاعر ) فكذلك الحلم لا يعلم  
ما يرتبط به وما يشير إليه الا صاحبه . فالمحلل إذن مرشد فقط ، وهو  
يقترح التأويل ، وللمريض وحده أن يقبله أو يرفضه ، ولا يتوقف  
صدق التحليل على عقيدة المحلل ، وإنما على ثقة الحالم نفسه .



## الاستهواء

من الثابت في علم النفس ان العقل والجسم بينهما علاقة وطيدة ،  
فالخائف قلبه ينبض رعباً ، والمريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً  
جدياً . وليس هذا مجال التبسط في هذا المبحث ، وإنما يكفي أن  
نشير إليه إشارة خفيفة لما ينبغي عليه من حقائق في التحليل  
النفساني . يقول علماء التحليل إذا صح أن توهم الموت يؤدي  
إلى الموت فعلاً ، فلماذا لا تؤدي العقيدة في سلامة البدن إلى  
الصحة والعافية . ولدينا دليل قوي في أثر الطلاسم والرقى على العامة  
الذين يعتقدون فيها ، وأثر الأولياء على كثير من المرضى . تؤثر  
هذه الأوهام في العقل الباطن فتفعل فعلها وتظهر نتائجها على الجسم .  
ولامراء بعد هذا في أنك إن قلت لرجل صحيح البدن ، سليم الأعضاء ،  
إنه عميل ، وكان في قولك من التثبيت والتأكيد ما لا سبيل إلى  
الشك فيه ، اعتقد الرجل في مرضه وأحس به فعلاً ، وبخاصة إن  
كان المتكلم طبيباً له نفوذ في هذه الناحية على عقل المريض . ولو  
قلت لرجل مريض إنه يطرد في التحسين ، وإن قوته تزداد ، والصحة  
تبدو عليه ، وكررت له ذلك في لهجة الصدق ، كان الكلامك  
تأثير يؤدي إلى شفاؤه ، وبخاصة إن كنت ممن يعتقد فيهم . ومن ثم  
كان أثر الوالدين شديداً على أبنائهم لأنهم يكررون لهم منذ طفولتهم



كثيراً من الآراء مما يشق انتزاعه فيما بعد ، والطفل - كما نعلم - شديد الثقة في والديه . فللتكرار إذن من الأثر ما هو أقوى من الإقناع بالمنطق ، وتقوم الإعلانات التجارية على هذا الأساس ، فهي كاذبة في كثير من الأحيان ، ولكن كثرة وقوع العين عليها يؤدي إلى الثقة فيها والتصديق بها . والزعماء والخطباء يلجأون إلى هذه الوسيلة عينها لأنهم أعلم بنفسيات الجماهير ، فيعمدون إلى تكرار الرأي في صور مختلفة ، ولا يحاولون تعزيزه بالعقل والمنطق . ولقد كان الدكتور « بودوان » يعالج مرضاه بقوة الاستهواء الذاتي فينصح للمريض أن يلهم نفسه بما يريد ، ويكرره صباح مساء ، حتى يحقق رغبته . وتقوم نظرية التنويم المغناطيسي على هذه القاعدة عينها ، إذ أن المنوم يطلب إلى مريضه أداء عمل معين ، فيقوم به هذا دون تفكير . ولا شك أن الاستهواء أشد ما يكون أثراً في الحالات التي يكون العقل الواعي فيها قليل التيقظ ، وذلك في الغالب قبيل النوم وبعيده . وكثيراً ما يتوهم أحدنا أن الطقس بارد فيبرد ، أو أن الجو حار فيتصعب منه العرق . وللوهم أثر كبير ، فتعد يتوهم الرجل أنه شجاع فيتشجع فعلاً . وإنا ننصح للحزين أن يتوهم السرور، وللخجول أن يتوهم الإقدام فيقدم .

ومن المبالغة أن نقول إن الإيحاء يشفي جميع الأمراض ، وإنما هو أشد ما يكون نجاحاً في الأمراض التي نشأت عن علة في النفس ، أو في الأمراض النفسية كاعتقاد الطفل في غيائه ، أو الرجل في



ضعفه ، اعتقاداً لا أساس له من الصحة .

ومما سبق تبين أهمية المعتقدات وتأثيرها في النفوس . ونحن على ضوء هذه الحقائق نوصي بالاهتمام بدراسة الدين في سن الطفولة ، حيث تثبت المبادئ السامية في ذهن الناشئ كي يعمل على التمسك بها في حياته . ونجاح الأنبياء في رسالاتهم يعزى إلى قوة عقيدتهم التي لا يعترها الشك . وما يصدق عليهم يصدق على كبار القادة والزعماء . والمرء لا يتأثر بإيحاء فرد معين فحسب ، وإنما هو يتأثر كذلك بالعقائد السائدة والأمثال الشائعة ، كما يتقيد بالعرف والعادة ، ويميل إلى التقليد . والواقع أن في ذلك خدمة كبيرة للمجتمع ، إذ لولا ذلك لتفككت الجماعة وسار كل منا على نهجه الخاص . ونحن إذ نقلد غيرنا من أفراد المجتمع الذي نعيش فيه لانفكر ، ولا نعلم إلى تأييد المنطق . وكلما ضعفت مقاومتنا للرأى نجح الاستهواء ، ومما يساعد على نجاحه أن يصادف قوة وجدانية من فرح أو غضب أو حماسة . ولذا فإن قوة الاستهواء وقابلية الناس له تختلفان اختلافاً كبيراً باختلاف الناس واختلاف الأحوال . وكما تؤثر فينا الآراء السائدة وأصحاب النفوذ ، تؤثر فينا الصحف والمجلات والصور والكتب . ومن ثم يجب ألا ينشر من الكتب إلا ما يعمل على رفع المستوى الخلقى وما يقدم مثالا عالياً في الحياة . وقد أصابت الحكومة إذ حظرت على الصحف نشر أخبار الانتحار ، لأنه شوهد أن مثل هذه الأخبار توحى لكل من يصيبه هم أن يتخلص من الحياة بالموت .



وأساس الاستهواء هو ان كل فكرة تخطر بالبال لا تبقى مجرد صورة قائمة في الذهن ، بل تتحول بطريقة لا شعورية إلى اعتقاد أو عمل . فكل فكرة بها قوة كامنة فيها تجعلها تتحول إلى عمل أو إلى نزوع إليه على الأقل ، فهي إذن بداية عمل . وأثر ذلك يتجلى واضحاً في الأطفال ، وفي من يقرب من الفطرة والبدادة ، فإنه لا يكاد يخطر بفكر أحدهم خاطر حتى يرى أثره بادياً في ملاحظه أو في أعماله ويظهر ظهوراً تاماً ، فغالب أعمالهم اندفاعية . في حين أنه يقل وضوحاً عند الإنسان المتحضر الراقى لأن المجتمع وتقاليده ، وسلامة المرء ، تقتضى منه أن يكتف في نفسه كثيراً من الآراء والغرائز والعواطف . هذا وإن تقل الإنسان المتحضر مشحون بكثير من العادات والآراء التي اكتسبها من بيئته وتربيته ، فتقف في سبيل غيرها ، ولا تحتم على المرء أن يقبل كل ما يوحى إليه به . ومع ذلك فكل منا يحس أثر ذلك في كثير من الظروف ، فإن تذكر نغمة موسيقية يدفعنا إلى ترديدها أو تحريك قدمنا . فأثر التفكير والرغبة يظهر في عمل المرء وحركاته ، فإذا ما شعرت بأن القلم وقع من يدك انحنيت لالتقاطه ، وإذا أحسست بدنو ميعاد ما أخرجت الساعة . وإذا أحسست بحرارة الحجرة فتحت النافذة ، فتصور الفعل يدفع إلى الفعل نفسه

وقابلية الاستهواء عامة بين الناس ، فهي ميل فطري فينا يتصل اتصالاً وثيقاً بغريزة الجماعة . وهذه القابلية تختلف قوة وضعفاً



حسب الظروف والأحوال التي تمنع الآراء المعارضة من الظهور في الشعور، أو التي تعين على ظهور الآراء والانفعالات المؤيدة وحدها. فكأن مجرى الشعور في الاستهواء يضيق حتى لا يبقى فيه إلا ما يؤيد موضوع الاستهواء ويزيده قوة. فإن ما يحدث هو انفصال الآراء والذكريات والعواطف المعارضة للفكرة المدعى بها ووقوفها موقفاً سلبياً، في حين أن الآراء والانفعالات المؤيدة هي التي تكون بارزة في الشعور ومنتخدة موقفاً إيجابياً. فالقابلية للاستهواء تكون عظيمة إذن عند الجهل بموضوع الاستهواء، وقلة الخبرة به، أو عدم وجود معلومات منظمة عنه، وعند الأطفال لشعورهم بضعفهم وبقوة مدرسهم أو آبائهم، وعند ضعاف الثقة في أنفسهم، والمتهورين والعصبيين، وفي الجماعات، لأن الإنسان وسط الجماعة يكون أشد ميلاً إلى قبول ما يوحى إليه به غيره منه إذا كان منفرداً، وعند ما تكون حالة المرء النفسية ملائمة للموضوع الذي يراد استهواؤه إليه. فإن كنت تتردد في شراء شيء لارتفاع ثمنه، ثم أغراك البائع بجودة الصنف اندفعت إلى الشراء دون تفكير؛ وعندما تنقص قدرة المرء على حكم قواه العقلية من جراء التعب العقلي أو البدني أو المرض أو اليأس وتششت الفكر، أو في التنويم المغناطيسي، حيث يكون خضوع المرء لإرادة غيره شديداً جداً.

وتكون قوة الاستهواء كبيرة إذا كان الموحى شخصاً له قيمته، أو له مكانة عالية. فالاستهواء قوى إذا صدر من رئيس إلى مرءوس،



أو من مدرس إلى تلاميذه ، أو من الغنى إلى الفقير . ويكون  
الاستهواء شديداً كذلك إذا صدر من شخص له ثقة في نفسه ، وإذا  
تكرر ، وإذا قيل في صيغة الإثبات لا صيغة النفي ، لانا بالنفي نشير  
في الموحى إليه قوة المعارضة ، وإذا قيل في صوت قوى له رنين حتى  
يسلس قياد المستهوى ولا يجد فرصة للمقاومة ، وإذا كان الأمر  
لا يخرج على العرف وتقاليد المجتمع .

والاستهواء - كما ذكرنا من قبل - إما يصدر من شخص أو من  
شيء أو موقف أو جماعة ، فهو تأثير العوامل الخارجية في شخص ما ،  
كتأثير المدرس في تلاميذه ، أو الطبيب في مريضه ، أو الكتاب  
في قارئه . وإما يصدر من ذات الشخص ، وبوساطته يستطيع المرء  
أن يتغلب على أهوائه وميوله الجاحجة ، ويوجه سلوكه وإرادته إلى  
الخير والعمل ، كما أن به يمكن التغلب على كثير من الاضطرابات  
العصبية . ولكن من جهة أخرى كثيراً ما يكون سبباً في مثل هذه  
الاضطرابات ، وفي الضعف والتردد والخوف والفشل ، فالمرء قد  
تخطر له فكرة ما ثم تملكه ، وتؤثر في نفسه ، وفي صحته ، فتدفعه  
إلى الضعف والشر أو المرض ، فإذا تملكه الحزن أو اليأس ، أو  
فكرة المرض ، أو العجز عن تأدية عمل ما ، واسترسل الإنسان في  
أفكاره هذه ، واستهتر بها ، فإنها لا تلبث أن تنعكس كلها في أعماله  
وتؤثر في جسمه التأثير السيء ، فالمرء يعمل على نجاحه أو فشله ،  
سعادته أو شقائه ، بيديه . ولذا يعتقد كثير من علماء النفس بحق أن



السرور يجلب السرور ، والثقة في النجاح خير سبيل تؤدي إليه ، كما أن الاعتقاد في الشفاء من داء معين كثيراً ما يساعد على النجاة منه . فالاستهواء الذاتي قوة كبيرة لدى الإنسان ترفعه أوتهوى به ؛ وبوساطته يتسنى للمرء أن يربى نفسه بنفسه من جديد ، ويعلمها طرازاً آخر من السلوك غير الذي ألفت .

ويستحسن ألا يكون الاستهواء مباشراً كي لا تثير في الموحى إليه قوة المعارضة ، وإنما خير لك أن تسوق الإيحاء في قالب مستور . وقابلية الأطفال للاستهواء - كما ذكرنا من قبل - كبيرة ، وتبلغ أقصاها كما يقول Thorndike حوالي السنة التاسعة ، وذلك لقلة ما لديهم من الآراء والأفكار المنظمة التي ينتظر أن تقف في سبيل ما يلقي في نفوسهم . هذا إلى سعة خيالهم ، وشعورهم بضعفهم ، وبقوة آبائهم أو مدرسيهم ، واحترامهم لهم ، وثقتهم فيهم ، واجتماعهم تلاميذ في فصل واحد ، أو في مدرسة واحدة ، وعدم قدرتهم على التمييز والتفكير والنقد ؛ فهم ينقادون لما يقول المدرس أو يعمل ، ويقلدون البيئة المحيطة بهم - اجتماعية كانت أو طبيعية - وقدرتهم على كف أنفسهم ، وإخفاء آرائهم وعواطفهم ضئيلة ضعيفة . فإذا تكرر إيحاء فكرة سامية إليهم ، استقرت في نفوسهم وأصبحت عقيدة ثابتة لديهم . ومن هذا يتضح مقدار القوة التي في أيدي المدرسين والآباء . ففي استطاعتهم التأثير في نفوس التلاميذ الصغار ، وتشكيل أخلاقهم إلى حد كبير ، فينفشون فيهم روح العمل والرجولة ،



والاستقلال الذاتى ، وقوة الإرادة ، ومحبة الخير للفرد وللوطن ، كما يستطيعون أن ينفثوا فيهم جمال الذوق ورشاقة التعبير .

ويجب ألا يغفل عن الأذهان أن الاستهواء ليس مقصوداً على الإرشاد المباشر باللفظ والعبارة ، بل إن الأعمال المختلفة والموقف الذى يقفه المرء ، والقدوة ، والبيئة بكل ما فيها من عوامل القوة والضعف ، لتستهوى الناس إلى الخير ، أو إلى الشر . فإذا أردنا أن نحمل الأطفال على المطالعة والنظافة وحسن الهندام ، والنظام ، فليكن كل شيء فى المدرسة ، أو فى البيت ، يوحى إليهم بذلك من تلقاء نفسه . فإذا رأى التلاميذ النظام فى مدارسهم مرعياً ومطلوباً ، والنظافة بادية فى كل شيء ، والمدرسين مهتمين بأعمالهم ، وبمستقبل من ألقته الظروف ودبغة فى أيديهم ، كل منهم قدوة حسنة فى إقامة العدل ، والاستمسك بالحق ، وفى حب العلم ، وفى الرجولة ومحبة العمل ، فإنهم لا يلبثون أن يتأثروا بمن يرون ، وتمتلىء نفوسهم بالروح العالية التى تعم جو المدرسة الصالحة . فبكل مدرسة ، وكل أسرة ، تتميز بروح خاصة ، تسرى إلى كل أفرادها ، وتوحى إليهم النبيل والشرف والطاعة والنظام ، أو الخبث والمكر والفوضى .

وتقل قابلية الاستهواء تدريجاً وبانتظام كلما تقدم الأطفال فى السن ، وهذا طبيعى ، فتقدمهم فى السن يصحبه ترق فى العقل والخلق وقدرة على النقد والتمييز . ولذلك يزداد واجب المدرسين صعوبة ، ويبدو أثر ذى الشخصية القوية منهم ، القادر على فهم التلاميذ



واستهوائهم إلى ما يريد . فضعف القابلية للاستهواء في التلاميذ  
يستدعى أن يكون لدى المدرس قسط كبير من القدرة عليه ، ومن  
الخبرة ، وأصالة الرأي ، حتى لا يصدم التلاميذ بأقواله وأفعاله ،  
فيجعلهم ينقلبون عليه ، ويناقضون كل عمل يأمرهم به .

وتزداد هذه القابلية في الأطفال وهم مجتمعون في الفصل أو في  
المدرسة ، ولذلك يجب أن تكون الروح الغالبة على المدرسة روح  
نظام وعمل وأخلاق سامية ، كما يجب أن تكون العناية باختيار  
المدرسين والمدرسات كبيرة ، حتى لا يقع نظر التلاميذ إلا على كل  
قدوة حسنة ، يحاكونها في سلوكها وآرائها ، ويستوحون نفسها  
العالية في كل ما يعملون ، فالتلاميذ يتأثرون بما يعمل المدرس أكثر  
مما يتأثرون بما يقول

ومن هذا يتضح أن تربية التلميذ في مدرسة منظمة طيبة ، خير  
من تربيته في البيت تربية فردية بعيداً عن تأثير المدرسين وتأثير  
الجماعة ، كما يفعل بعض أفراد الطبقة العليا ، وهم مخطئون .

وهناك طائفة من العلوم تدرس بالمدارس والقصد منها الإيحاء  
بالمثل العليا وبت الفضائل النفسية والاجتماعية ، كالتاريخ وآداب  
اللغات والتربية الوطنية والقصص والأخلاق والدين . فكلها تدرس  
لغرض أسمي من معرفة الحوادث والألفاظ المصاغة فيها .



## السهو والنسيان

لقد كثرت الكلام في هذا الباب من علم التحليل النفسى أخيراً ، ولما كانت الأمثلة فيه ميسورة مألوفة لكل منا تقع كل يوم ، وهى مظاهر مفهومة لمشاكل نفسية أشد تعقيداً مما يبدو عليها ، وجب أن نتحدث عنه بشيء من التفصيل حتى يتضح فى الأذهان ويقل التخبط فيه .

ويشمل هذا الموضوع ضروب الزلل المختلفة التى يقع فيها العقل أثناء إشتغاله كل يوم : زلات اللسان ، وزلات القلم ، ووضع الأشياء فى غير مواضعها ، وما إلى ذلك . ويمكن تشبيه هذه الأخطاء بأعراض النورستانيا البسيطة . وتتشرك كلها فى صفة واحدة : فهى اضطرابات مؤقتة ، واختلال فى وظيفة من وظائف العقل ، يؤدىها المرء بنجاح فى أوقات أخرى . وكثيراً ما يدرك الخاطيء خطأه بمجرد توجيه الإنتباه إليه . ونحن عادة لانأبه لأمثال هذه الزلات ، ونؤولها بعدم التنبيه ، أو المصادفة العمياء ، أو ما شابه ذلك .

ولكن فرويد يقول إنها نتيجة لعمليات عقلية لا يدركها المرء أثناء حدوثها . وهى دليل من الأدلة التى يسوقها على أن الإنسان ليس له إرادة مطلقة فيما يفعل ، مهما كان الفعل تافهاً . ويتفق فرويد فى هذا مع رأى الشائع الذى وصل إليه العامة باليدوية . فإنك إن ضربت موعداً لصديق لك ولم تف بوعده واعتذرت بالنسيان



لم يلق اعتذارك قبولا . بل قد تضاعف بمثل هذا العذر من غضب صاحبك . وإن اعتذرت بكثرة الأعمال فربما قال لك « ولماذا لم تعتذر لي بها من قبل ؟ كلا . إني أفهم إنك لم تعد تكترث لي كما كنت تفعل من ذى قبل » . ونحن نعرف كذلك أن الزوج إذا أهمل خدمة زوجته ولم يوفها ما تطلب ، أولت ذلك بتحويل قلبه عنها ، ولم تقبل منه معذرة ما . وقد تنسى اسم واحد من معارفك ، فإن أدرك منك ذلك غضب في نفسه كيف تتجاهله إلى هذا الحد ، وكان يتوقع منك أن تذكر اسمه دائماً . وإن ناداك رجل بغير إسمك عرفت أن قيمتك لم ترتفع في عينيه إلى حد يجعل إسمك دائماً نصب ذاكرته . هذه أمثلة نمارسها كل يوم ، ونعلم أنها ليست ساذجة كما تبدو ، وإنما هي تدل على طوايا النفس وخفاياها .

والعلاقة إذن واضحة بين هذه الهفوات وأشباهها ، وبين العواطف المكبوتة في العقل الباطن . إنا حين ننسى شيئاً كان ينبغي لنا أن نعرفه حق المعرفة نخطئ خطأ لا مبرر له في نظرنا وفي نظر غيرنا . ولكن هناك في الواقع دافعا معيناً يدفعنا إلى عدم التذكر ويرغبنا في النسيان ، وقد يكون هذا الدافع لا شعورياً محضاً ، فيعارض المحاولات الشعورية التي يبذلها المرء في التذكر . وقد يتصل الدافع اللاشعوري بالشيء الذي تريد تذكره اتصالاً مباشراً ، كأن يكون حلقة من سلسلة أفكار لا تريد إحياءها ، كأن تنسى مثلاً عنوان رجل لأنك تبغضه . ولكن الدافع كثيراً ما يكون مرتبطاً بفكرة



أخرى ، أو بسلسلة من الخواطر ترتبط بالذكري التي أنت بصدددها ،  
كأن تنسى اسم صديق لك لأنه يشابه اسم رجل آخر تبغضه .  
ولذا فالنسيان حركة عقلية تتم في العقل دون شعورنا بها . وتحليل  
النفس يظهر الدافع الخفي ويخرجه إلى حيز الشعور . وإذا اشتدت  
هذه الظاهرة برجل ما ، وبات كثير النسيان ، كان هذا عرضاً من  
أعراض النورستانيا أو الهستريا . وقد يمتد النسيان إلى ذات الشخص  
فينسى شخصيته وتاريخه الماضي ومسكنه وما إلى ذلك مما يتعلق  
به شخصياً .

النسيان إذن مقصود يمليه دافع يرمى إلى عدم معرفة جانب من  
جوانب النفس . ونحن ننسى ذكريات الطفولة أو جانباً منها على  
الأقل - رغم علمنا بغنى هذه الفترة من الحياة بالتجارب العقلية  
المعقدة ، وأهميتها في توجيه سلوك المرء في المستقبل - ولا نذكر  
منها إلا التافه قليل الأهمية ، فما علة ذلك ؟ لعل السبب يرجع إلى  
أن الطفولة عامرة بالذكريات ، ومنها البغيض ومنها المحبب إلى  
النفس ، وكلها مشتبك بعضها ببعض ، تنحدر إلى اللاشعور فيعدل  
فيها ويبدل ، ولا يبرز منها إلى الشعور إلا ما لا ضرر منه ، وما يصلح  
ستاراً للأراء الذميمة التي لانحب تذكرها . ومثال ذلك ما يرويه  
رجل من من أنه يذكر أنه حينما كان في الخامسة من عمره يتعلم  
حروف الهجاء ، سأل عن الفرق بين «ل» و«لا» فقيل له أن «لا»  
بها حرف «ا» زيادة عن «ل» . وبعد التحليل ظهر أنه في هذه السن



عينها — سن الخامسة — كان كذلك يتساءل عن الفارق بين الولد  
والبنت وأدرك أن الفارق هو أن الولد يزيد على البنت بعضو من  
الأعضاء ، فاختلطت هذه المعرفة بتلك . ولما كانت الأولى نزيهة  
ساذجة ، والثانية تدعو إلى الشك والريبة ، اتخذ — بعد نضوجه  
وبلوغه سن الرشد — الذكرى الأولى ستاراً للذكرى الثانية . ومن  
ثم كان تذكرة لما هو قليل الأهمية دون المهم . وقد تتخذ ذكريات  
الطفولة التافهة كذلك ستاراً نحجب به التجارب البغيضة التي نمارسها  
في سن الرشد ، ونقذف بها إلى اللا شعور لأننا لا نريد تذكرها  
والنسيان في معظم الأحيان ليس نسياناً مطلقاً تاماً ، أي أنا قد  
ننسى من الشيء بعضه ونذكر بعضه الآخر . وكثيراً ما تقع في النسيان  
إذا شرعنا نتحدث في موضوع قبل أن نفرغ من موضوع آخر ،  
فينسى المتكلم في الموضوع الجديد بعض ما فيه ، ويخاطبه بحقائق  
الموضوع السابق له . فان كنت مثلاً تتحدث عن باب التعليل في  
علم المنطق ، ثم سكت عنه قبل أن تتحدث بكل ما تريد ، ثم شرعت  
تتكلم في موضوع آخر يتعلق بصديق لك اسمه «عبد الكريم» فانك  
قد تنسى اسم هذا الرجل ولا تذكر منه إلا «عبد» ثم تغيب عنك  
لفظة «الكريم» وتذكر بدلاً عنها «العال» ، فتسمى الرجل خطأً  
«عبدالعال» والسبب في هذا الإسم الجديد أنك خلطت بين موضوع  
الحديث الأول وموضوع الحديث الثاني ، فأخذت «العين واللام»  
من كلمة «التعليل» وأدخلتهما على إسم الشخص الذي أردت أن تذكره



وقد تنسى الشيء — كما ذكرنا من قبل — لأنه يرتبط بشيء آخر  
لا تحب أن تذكره، فقد تزيد أن تروى هذا البيت :  
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل  
فتذكر صدر البيت ، ويغيب عنك عجزه ، لأن رداءك الذي  
ترتدي ممزق قدر ، وعجز البيت يذكر الرداء الجميل ، فيرتبط هذا  
بذاك وينحدر الى هوة النسيان ، لأن عقلك الباطن لا يريد أن  
يذكره بيت الشعر برداءة ملبسك ، أو قد تنسى عجز البيت لأن  
حببتك حين هجرتك كانت ترتدي رداء جذب منك النظر ، وأنت  
لا تريد أن تذكر رداءها كي لا تبعث في نفسك آلام العشق الذي لم  
تواتك فيه معشوقتك .

وإليك أمثلة أخرى من النسيان تدل كلها على أنا لا ننسى اغتباطا  
ولكن لغرض في النفس دفين .

قد تنسى اسم رجل تعرفه تمام المعرفة ، وذلك لأن اسمه كاسمك  
وأنت أناني تحب أن تتفرد بهذا الاسم وحدك .  
أعرف مدرسا يتردد كثيرا على طبيب اسمه « الدرس » للعلاج  
وكلما حاول أن يذكر اسم الطبيب خانته ذاكرته ، لأنه يكره عمله  
ويكره إلقاء « الدروس »

يجب على فتاة ، وللمرء تزوجت من صديقه احمد ،  
فكثيراً ما ينسى على اسم صاحبه لأنه حرمة الزواج من معشوقته  
فنحن إذن ننسى كي نتحاشى ما قد يتسبب لنا من آلام نفسية ،



لأن الشيء المنسى قد يتصل بشيء بغيض ، أو يتصل بما يتصل بشيء بغيض . فأنت تنسى أن تدفع ما عليك من دين ، ولستك أبدأ تذكر مالك من مال عند غيرك . والنسيان معد ، فان مجرد قولك لشخص يتحدث إليك إنك نسيت كذا يصيبه بعدوى النسيان فينسى هو كذلك ما نسيته أنت . وكذلك قد تنسى شخصاً ما فتصيب عدوى النسيان شخصاً آخر يتصل به ، وعبثاً تحاول أن تذكره

ومن الأمثلة المعروفة التي تتعلق بالرغبات المكبوتة أنك قد تنسى إلقاء خطاب ما في صندوق البريد . وذلك إما لأنك تذكره محتويات الخطاب بنصها ، أو تذكره ما تمت إليه ، أو لأنك على عجل ، وإن عرجت على صندوق الخطابات فاتك موعد ما فيغيب الخطاب عن ذاكرتك . ومن الناس من عرف عنهم أنهم لا يتذكرون القاء الخطابات في حينها مطلقاً ، وتعليل ذلك أن غريزة الملكية فيهم قوية فهم لا يحبون البتة أن يفقدوا شيئاً ما بحوزتهم . في الواقع الخطاب عديم القيمة إلا أن العقل الباطن لا يفرق بين ماله قيمة وما ليس له . وما أشبه هؤلاء بأولئك الذين لا يعيدون الكتب التي يستعيرونها في موعدا مطلقاً . هذا حب منهم للملكية صريح ، وإن كانوا لا يدركونه ، وهم صادقون ، لأنهم يخفوا نفوسهم جاهلون .

ومن المعروف كذلك أن الأحلام تنسى بسرعة ، وذلك لأنها في الكثير الغالب تنافي والعقل الواعي ، فتندس في اللا شعور . ولذا فان خير وقت لتذكر الحلم هو عند اليقظة مباشرة ، حينما يكون العقل الواعي قليل التنبه .



ومن أسباب النسيان أن يكون الموضوع الغائب عن الذهن  
متصلاً بعامل خفي بغيض الى النفس ، ومن أمثلة ذلك ما يأتي :

١ — أردت مرة أن أتوجه الى بائع حقائب أعرف محلّه ،  
وترددت عليه كثيراً قبل ذلك ، ولكنني لم أجده هذه المرة ، وعبثاً  
حاولت أن أبحث عنه . وقد تبين لي فيما بعد أن السبب يرجع الى أن  
المحل في عمارة تقطن بها أسرة أكرهها وأمقتها . ولذا فقد كنت  
بعقلي الباطن أريد أن أنسى العمارة وكل من فيها ، فضلت سبيلي الى  
بائع الحقائب

٢ — احتفظت مرة بقائمة كتب كي أرجع اليها حينما أريد ،  
ولكنني نسيت أين وضعت القائمة ، وبالتحليل فيما بعد عرفت أن القائمة  
كتاباً لمولف قيل لي مرة إنه يفكر ويؤلف على طريقي وأسلوبى ،  
فأردت أن أتعرف اليه ، ولكنني راوغني ولم يتصل بي ، ففكرته ،  
وأردت لاشعورياً أن أخفي كل ما يتصل به

٣ — روى لي رجل أن زوجه أعطته في يوم من الأيام كتاباً  
وطلبت اليه أن يقرأه ، وكان لا يعرف في زوجه اخلاصها له ، فلم  
يأبه لمطلبها ، وطرح الكتاب جانبا ولم يتصفحّه ، بل ونسى موضعه .  
وذات يوم مرضت والدة الزوج وقامت الزوجة بخدمة الأم خير  
قيام ، فقدر الرجل فيها هذه العاطفة النبيلة ، وسرعان ما وجد  
الكتاب المفقود دون جهد ، والتعليل واضح في هذا المثال .

٤ — روى لي تاجر أنه كلما أراد أن يضع في خزانة مالا الني



المفتاح في جيبه دون عناء ، وإذا أراد أن يخرج منها نقوداً افتقد  
المفتاح وقد لا يجده أياماً عدة .

٥ — يقول « ارنست جونز » Ernest Jones العالم النفسى  
الشهير إنه يدخن الغليون ، وأنه يفتقدها أحياناً ، وكلما فعل ذلك  
بحث في نفسه عن السبب فوجد أنه في ذلك الحين كان يرى أنه أدمن  
في التدخين وقد يصيبه الضرر ، وان من الخير له أن ينقطع عن  
التدخين ، فيقوم اللاشعور بما عجز عنه الشعور .

٦ — قلت لأخى مرة : « ألا تعلم أن أسباب النورستانيا كلها  
صراع في العقل الباطن ؟ » فقال : « لقد قلت لك بذلك منذ سنين ،  
ولكنى لم أذكر قوله ؛ لأنى لم أرد أن يكون هو أسبق منى إلى العلم  
بالحقائق . ولقد ثبت لى صدقه بعد أيام .

وقد تعزم على أداء شىء فيصديك النسيان ، ومن أمثلة ذلك أن  
يفوتك موعد ضربته من قبل ، ولذا فمن قواعد الجيوش أنها لا تقبل  
النسيان معذرة عن التقصير ، لأنك إن نسيت أمراً هاماً فمعنى هذا  
أنك تنظر إليه فى دخيلة نفسك على أنه تافه لا يستحق العناية . ومن  
ثم وجبت العقوبة فى الجيوش وفى المدارس على النسيان .

وقد لا يكون الباعث على النسيان مباشراً ، فقد يصلك مثلاً  
خطاب ما يتطلب منك رداً حاسماً ، ولكنك ما تدرى ما تقول ، فتنسى  
الرد على هذا الخطاب ، وعلى غيره من الخطابات .

ومن الهفوات الشائعة الخطأ فى اللفظ قولاً أو كتابة ، ولها



جميعاً أسباب لاشعورية ، وإليك أمثلة منها : -

١ - جاء إلى الطبيب يوماً رجل يخشى العدوى من الحمى فقال :  
« انتشر الخوف في قريتنا أخيراً ، فماذا عساي فاعل للوقاية ؟ » وهو  
إنما يريد أن يقول « انتشرت الحمى في قريتنا . . . » ولكنه أخطأ  
واستبدل « بالحمى » « الخوف » ، وليس هنا علاقة لفظية بين الكلمتين ،  
ولكن الخطأ يرجع إلى ارتباط الحمى بالخوف في ذهنه .

٢ - ومن أنواع الخطأ في هذا النوع ما يشبهه عملية « التركيز »  
في الأحلام ، أى أنك تأخذ بعض الأحرف من كلمة في اللاشعور  
وتخلطها ببعض الأحرف الأخرى في كلمة أخرى تريد النطق بها ،  
كأن تقول مثلاً « المداء » وأنت تريد أن تقول « المداد » ولكنك  
مريض تفكر في « الدواء » فاستعرت الهمزة من كلمة الدواء  
واستبدلتها « بالمدال » في « المداد » . وقد يحدث ما يشبه هذا في  
الكتابة فتكتب مثلاً « تفسير الأحلام » هكذا « تفسلا حلم »  
وذلك لأنك متعجل في الكتابة ، ويظن عقلك الباطن لسداجته  
أن طريقة العجلة هي أن تحذف بعض الأحرف من كل كلمة  
وتنتهي هكذا .

٣ - وقد يفضح قولك ما بنفسك ، فقد يأتيك زائر فترحب  
به قائلاً « مع السلامة » وأنت تريد « أهلاً وسهلاً » ولكنك تود  
بكل نفسك أن يرحل عنك هذا الرجل . يروى عن رئيس مجلس  
النواب في النمسا أنه قال مرة « أعلن انتهاء الجلسة » وهو يريد



« افتتاح الجلسة » وذلك لأنه يجب أن ينتهي من العمل .

٤ — قد تريد أن تقول « للقرء منظر مضحك وهو يقرض الطعام » فقول « للقرض ..... » وفي هذا الخطأ « تركيز » للفتنين في لفظ واحد .

٥ — والنسيان كما قلنا من قبل معد ، فقد يسمعك محدثك وأنت تقول « قرض » بدلا من « قرء » فيقول « فكيفه » مثلا بدلا من « فأكفه » في حديثه معك .

٦ — زوجة هجرها زوجها ، وتقول إنها رأتها آخو ما رآته في المسرح يشهد رواية « الضابط نمرة ٦٠٦ » والواقع أن اسم الرواية « الضابط نمرة ٦٦٦ » وقد استنتج المحلل من هذا أن سبب الشقاء الزوجي ، هو مرض عند الزوج علاجه الحقنة نمرة ٦٠٦ ، ومن ثمة كانت زلة الزوجة في الكلام .

٧ — أعرف طبيباً كان يعود مريضاً ، وقد تماثل المريض للشفاء ، فقال له الطبيب : « سوف تستطيع قريباً إن شاء الله أن تسافر إلى الاسكندرية وتستمع بجوها هذا الصيف لأنك سوف لا تشفى بإذن الله ، وهو يقصد طبعاً « لأنك سوف تشفى ... » ومصدر الخطأ أن الطبيب يطمع في مد أجل المرض كي يزداد أجره ، وهو يخفي هذه الرغبة ، ولكن هفوة من اللسان قد تفضح خفايا النفوس .

٨ — أعرف طبيباً آخر كثيراً ما ينادي زيدا باسم عمرو وحسناً باسم إبراهيم ، وهكذا يخاطب بين الأسماء ، لأنه يريد أن يقول لمرضاه



لأنه يعالج كثيراً من الناس ، وأن الإقبال عليه شديد ، لذا فهو لا يذكر الأسماء ، ويعتقد اللاشعور أن هذه هي الوسيلة إلى ما يريد .  
٩ — لي صديق يحبني دائماً أن أزوره ولكنه لا يرغب في رد الزيارة . تحدث إلى مرة في المسرة وطلب إلى زيارته ، فتأبیت ، وطلبت إليه أن يؤدي بعض الواجب ، ويرد ما عليه من دين لي في الزيارة ، فقبل ، وقال لي : « هل الغد يناسبك ؟ » فقلت : « نعم » فأجاب « إذن نؤجلها للأسبوع القادم » ! وليس تمت للتأجيل داع بطبيعته الحال ، مادام الغد يلائمني ، ولكنه أخطأ في الرد لأن عقله الباطن لا يحب الزيارة .

١٠ — لي صديق أبل من مرضه ، ولما سألت زوجته عما نصح به الطبيب في دور النقاهة قالت : « يقول الطبيب أنه شفي تماماً ويستطيع أن يأكل كل ما أريد » وهي تريد أن تقول « كل ما يريد » ، ولكنها زلت فدلّت على حبها للسيطرة على زوجها .  
ومن ضروب الخطأ الأخرى أن تؤدي عملاً ليس لك رغبة شعورية في أدائه ، ومن ذلك الأمثلة الآتية : —

١ — أن يكون بنفسك هم مكبوت فتضرب بالقلم على المكتب لتنفس عما تخفي .

٢ — ما يحدث أحياناً من اصطدام قاطرة بأخرى ، أو سيارة بإحدى المارة ، أو سقوط رجل وهو يتسلق شجرة ما ، ففي كثير من هذه الحوادث تكون بنفس الخطيء رغبة في الموت لاشعورية ،



فتنفس عن نفسها بهذه الطريقة العنيفة غير المقصودة .

٣ — كثيراً ما يريد المدرس أن يضرب التلميذ ضرباً خفيفاً عقاباً له على تقصير في أداء واجب ما ، فيشتد في الضرب دون وعي منه لأنه يكبت في نفسه بغضا لهذا التلميذ .

٤ — إعتاد رجل أن يفتح منزله بمفتاح يحمله دائماً في جيبه . وقد لاحظ أنه يخرج المفتاح أحياناً ويحاول فتح باب صديق له كلما توجه لزيارته ، ومعنى هذا أنه يألف المكان ، ويحب هذا الصديق فلا يرى فارقاً بينه وبين نفسه ، وهذه العملية اللاشعورية دليل على ذلك .

٥ — وعرفت رجلاً آخر تعود أن يحمل مفتاحين أحدهما للمكتب والآخر للمنزل ، وقد روى أنه دائماً يخرج مفتاح البيت ليفتح المكتب ، ومعنى ذلك أنه يأنس إلى الراحة ويكره العمل . وقد لاحظ أنه ذات مرة قام بعكس ذلك ، فأخرج مفتاح المكتب وحاول أن يفتح به المنزل ، وقد كان ذلك لأن بالمنزل ضيفاً لا يجب أن يلقاه .

٦ — روى لي إبراهيم أن له صديقاً يقطن بالدور الثاني في عمارة كبيرة ، وقال إنه توجه لهذا الصديق مرتين ، وفي كل مرة يصعد إلى الدور الثالث ، مع علمه بأن صاحبه في الدور الثاني . وبعد ماوجهت إليه أسئلة مختلفة علمت أنه في المرة الأولى كان ساجحاً في أحلام اليقظة وكان يفكر في طلب العلا ، فصعد إلى أعلى لأن



اللاشعور لا يدرك أن الصعود إلى أعلى لا يحقق المطلب الذي يرجو  
من الرقى . وكان في المرة الثانية يستذكر نقدا وجهه له صديقه هذا  
مرة إذ قال له « أنت رجل متعال ، وقد حاول بعقله الباطن أن يطبق  
« التعالي ، بالصعود إلى أعلى .

ولعل القارئ قد أدرك من قبل أنه كثيراً ما يمسك بالكتاب  
فلا يقرأ ما به ، وإنما يقرأ ما بذهنه لأدنى علاقة بين المكتوب  
والرغبة الباطنة . أردت مرة أن أركب السيارة رقم ١٥ ، وقد أقيمت  
السيارة رقم ٥ ، وحدثت فيها ، ولكني رغم ذلك قرأت الرقم المبين  
عليها رقم ١٥ ، ولم يتبين لي خطأى إلا أخيراً . وذلك لأنى كنت  
أفكر في الرقم ١٥ فغلب تفكيري قوه الأبصار .

وهناك من الأخطاء في الكتابة ما هو شبيه بذلك . من ذلك  
أن فتاة أرادت أن تنهى أختها بمنزل جديد وجيه رحلت إليه فخررت  
العنوان القديم على ظرف الخطاب ، لأنها كانت تخفى في نفسها غير  
من تمتع أختها بالمنزل الفاخر الجديد ، فظهرت رغبتها في مكتوبها .  
ومن ذلك أيضاً أن موظفاً أراد مرة أن يتغيب عن العمل لغير ما  
سبب سوى حب البطالة والكسل ، فأرسل إلى رئيسه يعتذر عن  
غيابه ويقول « حدث لي اليوم حادث كنت أتوقعه . . . » وهو  
يريد في الواقع أن يقول « . . . لم أكن أتوقعه . . . » ففضح أمره  
بزلة قلبه ، وذلك لأن اللاشعور لا يعرف إلى الكذب سبيلاً .

17 SEP 1987



ومن الناس من تسقط الأشياء من أيديهم كثيراً ، ومنها ما ينكسر لأنه هش ، ولا يحدث ذلك لغير ما سبب باطن ، وإنما لا بد في كل حالة من سبب لا شعورى . من ذلك أن الخادم كثيراً ما تنكسر منه الأطباق عفواً — كما يبدو له — ولكنه في حقيقة الأمر يتخلص بهذه الطريقة دون وعى منه — من مشقة غسل هذه الأطباق كل يوم . وعندنى صديق لى مرة أنه سيقدم لى قلماً ظريفاً هدية لى فى يوم عيد ميلادى . وكان لى قلم عاش معى أكثر من ست سنوات دون أن ينكسر ؛ وما إن سمعت بهذا النبأ من هذا الصديق حتى سقط قلبى القديم من يدى وتهشم تهشياً ، وذلك لأنى كنت أريد بهذه الطريقة الساذجة أن أثبت لصديقى ضرورة القلم الجديد لى . وهكذا يمكنك أن تقول على أمثال هذه الحوادث العرضية أنها مقصودة قصداً لا شعورياً .

وقد يمسك الواحد منا بسكين يريد أن يقطع به تفاحة أو برتقاله ، فتجرحه السكين فى إصبعه ، وتعليل ذلك أن كلامنا لا يجب فى نفسه شيئاً ما ، أو يكره فى خلقه خلة من الخلال ، فهو يجب أن أن يؤذى نفسه عقاباً لها على ما بها من عجز ونقص ، فتظهر هذه الرغبة الخفية فى ضرر يلحقه بنفسه على غير وعى منه . وكثيراً ما يصيب الواحد منا أذى ما عقب اقترافه إثماً من الآثام ، وذلك لأن عقله الباطن يريد أن يكفر عن آثمه فيتعثر فى مشيته ويسقط ، أو يحدث له ما يشبه ذلك .



فعلم التحليل النفسى إذن ينكر المصادفة ولا يقول بحرية الإرادة.  
هب إنك وضعت قصة عن امرأة وأردت أن تختار من بين أسماء  
النساء جميعاً اسماً لهذه القصة ، فإنك لا تقع على هذا الإسم إعتباطاً ،  
وإنما لا بد من سبب لاشعورى يؤثر اسماً على آخر فتختار مثلاً إسم  
فتاة أحببتها فى عهد الشباب أو ما شاكل ذلك . طلب إلى رجل مرة  
أن يختار رقماً أياً كان فقال « ٤٨٧٩ » ، وبالتحليل ظهر أن عمره ٤٨  
عاماً وله من الاولاد ٧ ، وأن راتبه تسعة (٩) جنيهات فى الشهر ،  
ومن ثم تكون هذا الرقم . فالأرقام ترتبط بذكريات خاصة بمندسة  
فى اللاشعور ، فقد تؤثر مثلاً الرقم ٣٥ لأنك نلت الليسانس فى عام  
١٩٣٥ ، أو الرقم ٢٥ لأنك ربحت مرة ٢٥٠ جنيهاً .  
ونختم هذا الفصل ببعض الأمثلة التى تؤيد أن سلوك الإنسان  
لا يقوم على المصادفة العمياء مطلقاً .

١ — كنت أسير مرة فى أحد شوارع القاهرة ، وكنت أفكر  
فى صديق محمد ، وإذا بى ألقاه بعد لحظة . الواقع إنى كنت لمحتة بعيداً  
وغاب عن ذاكرتى لشرورد ذهنى فى أمور أخرى ، ثم عادت ذكراه  
إلى وأخذت أفكر فيه دون أن أدرك أنى رأيته من قبل ، وفيما  
أنا كذلك إذا بى أقرب منه وألقاه فأظن أن هذه المقابلة وقعت  
لمجرد تفكيرى فى هذا الصديق .

٢ — روت فتاة مرة أنها حلمت برؤيا صديقة لها فى شارع معين  
أمام متجر معين ، وأنها فى اليوم التالى للحلم قابلت هذه الصديقة فى



نفس المكان . وبعد التحليل ثبت أنها لم تحلم بلقاء هذه الصديقة ، وإنما تطرق إلى ذهنها هذا الظن حينما التقت بها ، وتوهمت أنها حملت بذلك من قبل ، وقد دخل في روعها هذا الوهم لأنها كانت من منذ مدة قد التقت مرة بصديقة أخرى لها دون انتظار ، فذكرتها هذه المقابلة الجديدة بالمقابلة القديمة وظنت أنها كانت حلما من الأحلام .

٣ — ذهب رجل مرة مع زوجته إلى دار السينما ، وفيما بين الفصل والفصل أخذوا يتحدثان ، فذكر الرجل اسم قريب لهما وأراد أن يروي عنه خبراً ، فدهشت الزوجة لأنها كانت تفكر في هذا القريب عينه في ذلك الحين . فما علة هذا التوافق ؟ الواقع أن رجلاً يشبه هذا القريب كان في دار السينما فعلاً ، وكان يتسلل في الظلام أثناء التمثيل ، فمر شبجه بهما وهما مشتغلان بمشاهدة الرواية ، وذكرهما الشبح بقريبيهما ، وأخذوا يتحدثان عنه بعد ما اختفى شبيهة وغاب عن شعورهما . لقد أثار الشبح في ذهنيهما صورة القريب وظنا أنهما فكرا فيه معاً مصادفة واتفاقاً .

٤ — زارت فتاة منزلاً في الريف لأول مرة ، ولكنها أحست حين دخلت الدار أن المكان مألوف لها ، وأنها رآته من قبل . فكيف كان ذلك ؟ كان بالمنزل ثلاث بنات ولهن أخ مريض . وكانت في سالف أيامها قد مرت بظرف كهذا حيث كانت تعرف ثلاث أخوات يقمن على خدمة أخ لهن عليل ، فذكرتها هذه الظروف الجديدة بالظروف القديمة ، وخلط العقل الباطن بين الشبه



في ظروف سكان البيتين والشبه بين المنزلين ، وظنت أنها رأت  
هذا المنزل عينه من قبل .

\* \* \*

ومن هذه الأمثلة جميعا يتبين لنا أن الهفوات قد تشير إلى خطير  
الآراء الخفية في النفس ، وأن كثيراً من أسباب الشقاق الظاهري بين  
الرجل وزوجه أو بين الصديق وصديقه تافه في ظاهره وليكنه  
خطير في حقيقته ، ودراسة حوادث السهو والنسيان تم عن رغبات  
المرء وعن نفسيته .



## الهستيريا

هذا المبحث هام جداً في علم النفس التحليلي لأنه مصدر لكثير من حقائقه. فالهستيريا أو النورستانيا حالة شاذة تظهر بميزات النفس مكبرة بحيث يستطيع أن يراها الطبيب أو المحرب. هي كالعنسة المكبرة تحرف الشكل قليلاً ولكنها توضحه. ويقول بعض الناقدين إننا في بحث أمثال هذه الأحوال نتعرض لحوادث شاذة نادرة الوقوع، ولذا لا ينبغي لنا أن نقيس عليها ونبنى. ولكن - في الواقع - بين الشاذ والطبيعي اختلاف في الحكم لا في الكيف. فأعراض النورستانيا تشابه ما نشاهده كل يوم من تصرفات الناس وليس فيها سوى اليسير من المبالغة. فالنورستانيا - أو الهستيريا - ليست إذن مرضاً بالمعنى المعروف. إنما هي طريقة من طرق الاستجابة للمشاكل النفسية المعقدة. المرض اضطراب في العلاقة بين الفرد والبيئة الطبيعية، والنورستانيا اضطراب في العلاقة بين الفرد والبيئة الاجتماعية. والأول فرع من دراسة الفسيولوجيا، والثاني فرع من دراسة علم الاجتماع. والنورستانيا أشبه ما تكون بزلات اللسان وزلات القلم، فلوجاز لنا أن نسمى هذه الأخيرة مرضاً، جاز أن نعتبر النورستانيا كذلك. النورستانيا والهفوات كلاهما يدل على اختلال في وظيفة العقل لأعلى عجز في الجسم. والنورستانيا شبيهة



بالأحلام ، والحلم كما نعلم أمر عادي .

ومظاهر النورستانيا أما إيجابية كالتألم والخوف ، أو سلبية كمنقص في الشعور أو عجز في كفاءة المصاب في العمل . وهي إما فيزيقية كالقيء المستمر ، أو العمى ، أو انحراف الجسم ، أو عقلية محضة كالخوف الشديد ومس الجنون . ومن ضروب النورستانيا الشكوى من فقدان السعادة أو عدم القدرة على مسايرة الأسرة ، أو الشؤون الزوجية أو الاجتماعية أو ظروف المهنة .

والهستيريا نوعان : هستيريا الخوف ، والهستيريا الجنسية ، ويصاب المريض في النوع الأول بالحرس أحيانا أو بشلل في أحد أعضائه ، وذلك لأن المريض يستجيب بهذه الوسائل — وهي الصمت والجمود — للحوادث المرعبة كما كان يستجيب الإنسان الأول لكل ما يهدد حياته . فقد يحدث مثلا إنفجار شديد تتحطم منه بعض المنازل فترتعد الفرائص ، ولكن معظم الناس ينجون من هذا الرعب ويتغلبون عليه ويخرجون منه سليمي العقل والجسم . ولكن هناك من يصاب عقب الحادث بالبكم وبالشلل أو الاختلال العصبي ، وهذه الإصابات كلها استجابات عتيقة لجأ إليها الجهاز العصبي عند ما وقعت هذه الصدمة التي أذهلت العقل الواعي لشدتها ، فقام العقل الباطن يستجيب للخطر بطريقته القديمة ، وهي طريقة الجمود في اللسان والأعضاء . وأما الهستيريا الجنسية فتصيب أكثر ما تصيب الفتيات لأنهن أكثر من الفتيان كبتا للغريزة الجنسية ، ولذا فان عقل الفتاة



الباطن يطغى أحيانا على عقلها الواعي ويحدث لها في يقظتها تلك الحركات الشاذة وتلك التشنجات

وكانت هذه الظواهر قديماً تعلق بهذين العاملين : (١) الضعف الموروث في الجهاز العصبي ، (٢) وجود مشكلة عويصة كالقشل في الحب أو كثرة العمل . ولكن فرويد هبط علينا بعامل ثالث وهو وقوع أحداث معينة للمريض أثناء تطوره الجنس الباكر . ولم ينبذ العاملين الأولين ولكنه ربطهما بهذا العامل الثالث . ولذا فالحوادث التي تؤدي إلى النورستانيا يمكن وصفها بإيجاز كما يلي : يتحد العاملان الأولان وهما من أثر البيئة والتربية ويسببان حالة عقلية خاصة تجعل من العسير على المريض أن يواجه مواقف الحياة الحرجة . وتختلف هذه المواقف باختلاف الناس ، فمنهم من يستطيع ملاقات الموت في الحرب ولا يستطيع أن يتحدث على المائدة لأن هذا الحديث في نظره مشكلة شديدة التعقيد . ومنهم من يتيسر له حديث الموائد ويشق عليه لقاء عدو واحد . وهذه المواقف الحرجة قد تكون تافهة في ذاتها ، وقد تكون شاقة فعلا في نظر الرجل العادي — كأحزان الموت ، والإفلاس ، والأخطار الجثمانية والخلقية — وقد تكون عامة جداً كالحياة نفسها ، مثل الحبوط الذي يصيب المرء في مرحلة معينة من مراحل العمر ، أو المشكلة التي يلاقيها الصبي حينما تاتي عليه التبعات العادية في حياة الراشدين

وفي مثل هذه الأحوال قد يكون لدى المرء استعداد للنورستانيا



فيتجه إلى باطن نفسه ويسير في طريق الفردية « Introversion » ويكون في نفسه مجموعة من الأوهام يقصد بها إلى أن يعالج أو يمحو المشقة القائمة . وسرعان ما ترتبط هذه الأوهام بالأوهام اللاشعورية فيستقهر المريض (regresses) ويصل اضطرابه إلى الطبقات العميقة في اللاشعور . وإذا ما نشط الجانب اللاشعوري اضطرت الدوافع الكامنة به مع قوى « الذات » وبذا تتور وتريد أن تعبر عن نفسها . ولذا فمظاهر النورستانيا ما هي إلا تعبير متنكر لهذه الدوافع المكبوتة وهذا التنكر يشبه ما يحدث في الحلم . أو بعبارة أخرى النورستانيا هي المظاهر الخارجية لصراع لاشعوري بين ناحيتين من نواحي الشخصية .

وتتميز النورستانيا عن الظواهر النفسية الأخرى التي ذكرنا من قبل (كالزلات والأحلام) بمظهرها الخارجي العملي ، وبأنها تقوم في غالب الأحيان على عوامل جنسية في طبيعتها ، ولذا فظواهر النورستانيا ليست إلا تعبيراً متنكراً عن الغريزة الجنسية الصبغانية ، وإذن « فعقدة أوديب » هي لب كل إصابة من هذا الضرب .

وتنجم النورستانيا — كما ذكرنا — عن صراع لاشعوري قائم في النفس . وقد أثر الكشف عن هذه الحقيقة في طريقة العلاج ، إذ كان هذا المرض يعالج من قبل بمجرد الحدس والتخمين ، أما اليوم فهو يعالج بالتحليل النفسي الذي يظهر جانبي الصراع ، ويخرجهما إلى الشعور ، وبذا يهيء الفرصة لإيجاد حلول مقنعة غير شاذة ، لأن النورستانيا تبقى ما بقيت أسبابها لاشعورية .



## تطبيقات عامة

### الطب :

لم يقدر الطب بعد قيمة التحليل النفسى حق قدره ، وما زال هذا العلم يميل إلى جانب الاجتماع أكثر منه إلى جانب الطب ، وذلك رغم أن كثيراً من نظرياته يتفق والآراء الحديثة فى الطب . فالطب الحديث - كما نعلم - يهتم بوظائف الأعضاء ، وكيفية قيامها بواجبها ، أكثر مما يهتم بالتشريح ، وهذا يتفق ووجهة نظر تحليل النفس الذى يبحث فى السكبت والصراع النفسى وما إلى ذلك ، ولذا فهو فى الواقع يهتم بوظيفة العقل وبعمله .

ويشتبك تحليل النفس مع الطب بشكل واضح فى النورستانيا . وقد كانت دائماً مجالاً لفشل الطب ، وميداناً للدجالين . ولو عرفنا أن الأطباء يبذلون كل وقتهم تقريباً فيما يخص الجسم لا فيما يخص العقل أدركنا لماذا هم لا يفهمون أهمية العلاج النفسى ووضع الطب فى صيغة نفسية . والواقع أن الأطباء يجب أن يعرفوا أثر العقل فى الجسم حق المعرفة .

وكما أن مدارس الطب تهمل دراسة علم النفس فهى كذلك تهمل الأمور الجنسية ومشاكلها . نحن لا نريد من الطبيب أن يتخصص فى هذه الدراسات ولكنه يجب أن يلم بها إلماماً عاماً . فقد يستفيد من



معرفة في العلاج بطريق الوقاية ، إذ قد تكفي كلمة حكيمة لطفل أو راشد لتكفل له سعادته في المستقبل ، وقد تكون سبباً في عدم إصابته بالنورستانيا في مقتبل العمر .

وليس هنا مجال البحث في أثر العقل في الجسم ، والعلاقة بينه وبين الأمراض . وإنما يكفينا الآن إن الغريزة الجنسية - في نظر علماء النفس - هي عامل جثاني كما هي عامل عقلي . إن النطفة التي يتكون منها الجنين تحتوي على الميول الفطرية جميعاً ، ولذا فهذه الميول فينزيقية في أصلها . وكلنا يعرف التغيرات الفسيولوجية التي تصاحب نشاطها كلما تقدمت سن الطفل . وعلم النفس التحليلي يؤكد العلاقة بين العقل والجسم ، ويقول إن الغرائز قد تكون سبباً في أمراض وعاهات جثمانية . ومن الأعراض الجثمانية البحتة ما يقوم على علاقة نفسية ، فهناك مثلاً من إذا رأى لحم الأوز على مائدة الطعام اشمأزت نفسه من الأكل ، وذلك لأنه أيام طفولته قد شاهد الأوز وهو يتغذى على المخلفات القذرة . وكان لقصر عقله يظن أن لحمه بعد ذبحه يحتوي على هذه المخلفات ، فيتمترز من مأكله . ولما تقدمت به السن أدرك خطأه ولكن عقله الباطن مازال محتفظاً بالعادة القديمة . وقد يفيد التحليل النفسي في إخراج أمثال هذه الأوهام إلى دائرة الشعور وعلاج المريض .

وإذا أراد الطب أن يصل إلى علاج ناجح لمظاهر الجنون ،  
وجب أن يدرس العلاقة بين الجسم والعقل ، وأن يهتم بدراسة علم



النفس التحليلي وأحل أن بعض أسباب الجنون جثمانية غير أن أنواعاً كثيرة منه تنشأ من أسباب عقلية ، وأشهر هذه الأنواع Dementia Paraecox . وعلم النفس التحليلي يعالج هذا المرض بعض الشيء . وأهم مايجح فيه التحليل في هذه السبيل علاج Paranoia ( أو جنون الوهم ) والمنخوليا .

### التربية :

علاقة هذا العلم بالتربية وثيقة ، ولـكنا يجب الأندفع في الأخذ بنظرياتة . حتى نتثبت من صحتها . وقد أشرنا فيما سبق إلى كثير من نقط هذا الموضوع ، ونزيد عليها الآن مايلي :

١ - نلاحظ أن الطفل يقاوم عملية التعليم ، عملية تلقى المعلومات ، وذلك رغم تعطشه للمعرفة ، وذلك لأنه ينظر إلى العلم كأنه نقد لنقص فيه ، ويرى أن التعليم يتضمن الاعتراف بجهله ، وأن التربية أشبه بعلاج عيب فيه . وفي هذا انتقاص من قدره لنفسه ؛ وهذا يعرقل تعلم الطفل رغم ذكائه . والأطفال لايجبون النقد الخلقى ، ومن الحق أن نقول إنك كلما أشرت إلى الجانب الخلقى في الموضوع عرقات سير الدرس وأضعفت ذكاء الطفل . والسبب في ذلك يؤدي بنا إلى النقطة الثانية .

٢ - المدرسون لهم في نظر الطفل معنى الآباء في اللاشعور ، وليس



ذلك في ظاهر الأمر فقط ، وفي سلطة المدرسين وحسب ، ولكنه يشمل كذلك علاقات الحب . ويظهر ذلك خاصة في تعليم البنات في سن معينة . والتعليم المنتج يتوقف على المحبة المتبادلة بين المعلم والتلميذ . وأية نظرية في التربية يجب أن تحسب حساب العواطف والخواطر المكبوتة .

٣ — أما فيما يتعلق بالمادة نفسها التي تعطى للطفل ، فنحن نعرف أن مقدرة الأطفال على تمثيل المواد تختلف من فرد إلى آخر ، ويرجع ذلك - في نظر علماء التربية - إلى الكفاءة العقلية ، أو النقص العقلي . ولكن علم النفس التحليلي يقول إن السبب في معظم الأحوال هو مقاومة أو تسام من جانب المتعلم . ويتعلق هذا بالروابط اللاشعورية عند الطفل للمادة ، فقد يكره الطفل مادة الحساب مثلا لعلاقة لاشعورية ترتبط في ذهنه بها ، كأن يرتبط العدد على الأصابع - وهو من المراحل الأولى في تعليم هذه المادة - بالكراهية ، لأن أمه كانت تحرم عليه وضع الأصابع في الفم . وقد يكره الطفل أرقاما دون الأخرى لأنها ترمز لأشياء لا يحبها . وكثيراً ما يحدث أثناء التحليل أن ترتقي كفاءة الفرد في ناحية ما بعد ما يتبين له المكبوت اللاشعوري الذي يتعلق بها . وتشككنا هذه الحقيقة في اختبارات الذكاء لأن العقل الذي نقيسه ليس شيئاً واحداً لدى الأطفال جميعاً .

وقد دل تحليل النفس على أن شخصية الفرد يكاد يتم تكوينها في



سن الخامسة ، ولا يكون للمؤتمرات الخارجية بعد ذلك إلا أثر سطحي . وخلال هذه السنوات الخمس يبرز الطفل بأدوار عاطفية معقدة استغرق الجنس البشري فيها خمسين ألف سنة ، ولذا تقوم بنفس الطفل ضروب كثيرة من الصراع العقلي ، بين الوحشية والمدنية ، وواجب المربي أن يتحلى بالصبر مع الأطفال ، وأن يقدر مشقة ما يعانون .

والحب ضروري لتنمية عقل الطفل ضرورة الطعام للجسم . ولكننا ينبغي رغم ذلك أن نبعد هذه العاطفة النبيلة عن مظاهر الغريزة الدنيئة . وكلما كان تعليم الطفل قائما على ما يجب ويهوى لا على الدروس الخلقية العلمية ، خفت حدة الصراع في نفسه .

والصراحة ضرورية في تربية الأطفال ، لأن إخفاء بعض المعلومات — وبخاصة الجنسي منها — له أثر سيء ، لأن الأطفال يعلمون عادة — شعوريا أو لا شعوريا — عن الموضوع أكثر مما نتوهم . كما أن الصراحة تنفس عن مكنون اللاشعور .

والظاهر أن الأطفال جميعا يمرون بدور أشبه ما يكون بالنورستانيا ، وبالتحليل تزول الأمراض .

ويفيدنا تحليل النفس فائدة عمالية في التربية ، وذلك لأنه ينبهنا إلى أن جرائم الأطفال ترجع إلى أخطاء الوالدين في التربية ، فالسرقة قد تكون انتقاما من قسوة الأم ، أو من إخفاء المعلومات الجنسية عن الطفل . والعصيان قد يكون غيرة من الأب لأن الأم توليه



بعض حبها . ويعمل لنا تحليل النفس اختيار بعض الرجال لمهن خاصة دون غيرها ، فمن يحب الجراحة من الأطباء مثلا قد يكون مصابا بالسادزم .

وكثير من المدارس في أوروبا اليوم توجه الأطفال إلى المهن التي يدرسونها على أساس التحليل النفسي .

وأخيراً ينبغي ألا ننسى أن حوادث الطفولة تندس في العقل الباطن وتؤثر في الرجل . فأنا مثلا أخاف الكلاب حتى اليوم لأن أمي كانت ترهني بها أيام الصغر ، وأخي يكره اللغة العربية لأنه كان يكره مدرستها ويمقتها .

### الاجتماع والسياسة :

تهتم النظم الاجتماعية والقوانين المسنونة بالسعادة المادية والحياة الاقتصادية والصحية الخ . . من ناحية ، ولكنها تهتم كذلك من ناحية أخرى بقيمة النفوذ والشرف والوطنية ، والصراع بين الطبقات وبين الجنسين ، ونظريات الحكم ، والفكرة العامة عن العدالة ، وعن تنظيم السلوك الخلق ، وما إلى ذلك . ومن الجلي أن العوامل الشخصية تؤثر في هذه النظم جميعا . وتحليل النفس يلقي ضوءاً على هذه الموضوعات بإشارته إلى العوامل اللاشعورية التي تؤثر في الحكم . ويرى تحليل النفس أن الجانب الأكبر من النشاط العقلي ، الذي يتجه نحو هذه المصالح : مشتق من ميول اللاشعور البدائية ، وأن



دراسة اللاشعور على ذلك - تهيء لنا الفرصة للنظر في هذه النظم  
نظرة موضوعية حرة .

فموضوع الصحة مثلاً محاط بكثير من الأوهام والخاوف والتحريم،  
التي لا يختص بها العامة وحدهم . وفي ميدان الاقتصاد قل أن يفكر  
الإنسان حراً ويسلك سلوكاً عادياً في موضوع يخص المال .  
والحرب لا تمتنع إلا إن عرفت أسبابها اللاشعورية ، لأنها في  
غالب الأحيان تقوم على أضغان دفينية في العقل الباطن لا يدركها  
الباحث في ظواهر الأمور .

ونظرية الحكومة تتوقف على العلاقة بين الطفل والوالد - وهي  
من دراسات تحليل النفس - لأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ليست  
سوى صورة مكبرة لهذه العلاقة . واهتمام الناس بحياة الأسرة المالكة  
هو مطابقة لاشعورية بين هذه الأسرة وأسرنا ، فالملك رمز لاشعوري  
للأب ، والملكة رمز للأم . ونحن نعرف مما سبق أن الولد يحب  
والده كما يكرهه ، فيكان الإنسان قديماً يحب الملكية ويمقتها في آن .  
أما في العصور الحديثة فقد حاولت الشعوب أن يكون شعورها نحو  
ملكها حياً خالصاً ، فأسندت السلطة التنفيذية إلى رئيس الوزارة ،  
بحيث تستطيع إسقاطه إن اشتد بها المقم لسياسته ، ولا يبقى بنفسها  
نحو ملكها . إلا جانب الحب وحده . وليست مطالبة الشعوب  
حكوماتها بالقيام بكل أسباب الراحة لها سوى استمرار عقيدتنا بأن  
الأب قادر على كل شيء . وقبولنا نفوذ القادة علينا شعور من جانبنا



بالطفولة ، ومعنى الاستقلال أن الأمة قد بلغت سن الرشد .  
وكثير من العلاقات الاجتماعية يرجع إلى الغريزة الجنسية ،  
كسائل الزواج والطلاق وتحديد النسل ، واليوجونية ، وأسباب  
الشحناء بين الجنسين . كل ذلك نتيجة لصراع لم يفتنه ، ويتعلق بتطور  
الغريزة الجنسية .

وفي هذه الأيام ثورة ضد نظام الأسرة ، ولا يمكن معرفة  
أسبابها إلا بالتحليل النفسى .

وقادة الأمم يدركون أن الإنسان وسط الجماعة تنحط عقليته  
لأنه يتخذ نفسية القطيع ، التى أساسها اللاشعور أكثر من الشعور ،  
فلا يحاولون إقناع الجمهور بالحجج المنطقية ، وإنما بالتكرار . ويقول  
جوستاف لوبون إن رأى الجماعة منحط لأنه رأى العقل الباطن ،  
ولذا فأحكام المجالس النيابية أقل نضوجاً من رأى الفرد . وثورة  
الجماعة أيسر وأسرع من ثورة الفرد .

### الجرائم والقانون :

الجدل بين الأطباء ورجال القانون فيما يختص بالتبعة الخلقية  
قديم معروف . هل الخطيئة مرض أو جريمة ؟ يرى رجال القانون -  
وقد تبعمهم الأطباء فى ذلك - إن هناك farkاً بين الجريمة التى تنشأ  
عن المرض ، والجريمة التى تنشأ عن انحطاط فى الخلق ، وأن النوع  
الثانى نتيجة لحرية الإرادة . وقد انساق الأطباء لرجال القانون ،



وأصبحوا يميزون بين الصحة العقلية والمرض الجشاني ، وهم بذلك يتخطون حدود علمهم ويعترفون بجزئية الإرادة ، وإنكارها أهم ما يميز «العلوم» .

ولسكن تحليل النفس ينسكرك حرية الإرادة ويؤكد الجبرية . والسلوك في كثير من الجرائم لا يقوم على عقل أو منطق ، وفي هذا دليل على قيام عوامل لا شعورية بنفس الجارم . وقد ضربنا من قبل مثلاً السرقات التافهة kleptomania وقلنا إنها نتيجة غير معقولة لمقدمات سابقة ؛ هي تخفيف عن موقف لا شعوري أليم ، وحل لصراع يستعرج في النفس ، لأنها لون من ألوان التنفيس ، وضرب من ضروب السلطة والنفوذ . ومن مكتشفات تحليل النفس أن الفرد يرتكب الجرم ليخفف به عن رغبة لا شعورية في ارتكاب جرم أشد وقعاً .

وتحليل النفس يعترف بالجبرية إلا أنه لا ينفي ضرورة العقوبة ، ولسكن من واجبتنا أن نبحث أولاً عن العوامل الباطنية . أن فهم طبيعة الناس ونفسياتهم تقتضى ثورة في القمانون ، ومن ثم كانت مقاومة الهيئات المسؤولة لعلم النفس ، وعلم النفس التحليلي بنوع خاص .

ومن أسباب الخطأ في أحكام القضاة أنهم قد يعكسون project مشاعرهم الخاصة على المتهمين ، وقد يكشفون في غيرهم ما يجهلون في أنفسهم ، وقد تتأثر أحكامهم بانصراع انقائم في نفوسهم . وما



يقال عن القضاة ، يقال عن المحامين والشهود ، وهوؤلاء بنوع خاص ، لأن رؤيا الشيء تشير العاطفة أكثر من سماعه .

وقد دلنا علم النفس التحليلي على طريقة جديدة في اكتشاف الجرائم ، وذلك باستخدام تداعي الألفاظ . فيمكنك في قضية القتل مثلاً أن تذكر للمتهم كلمة « سكين » وتطلب إليه أن يقول فوراً وبغير تفكير كل ما يجول بخاطره على أثر هذه الكلمة ، فإن ذكر كثيراً مما يتعلق بالجريمة التي يراد الكشف عنها ، كأن ذكر أشياء وجدت في حجرة المقتول ، كان ذلك من دواعي تأكيد إتهامه .

### الفن والأدب :

الفنون حب لا شعوري للمناظر أو الألوان أو الأصوات أو الآراء . والفنان العبقري لا يعمل إلا كما « يوحى إليه » ومعنى الوحي اتصال الحياة الخارجية بالاشعور . وينبغي ألا يكون الحافز للفنان إطفاء شهوته وحسب ، وإنما يجب عليه كذلك أن يعمل على تخفيف الآلام الخفية عند الآخرين . فمن عمل الأديب أن يقدم الصور الكريهة في صيغة مقبولة . « فالأماسة » مثلاً لذينة في قراءتها أو مشاهدتها رغم أنها أليمة في نهايتها . وذلك لأنها تلمس في خفايا نفوسنا ضعفاً وتحاول أن تعالجه . ودراسة الأدب على الجملة ممتعة للأديب وللقارئ لأنها تخفف كثيراً من مشاكلنا اللاشعورية . فإن كانت القصيدة مثلاً خلواً من المعنى ولا تقوم إلا على الوزن والقافية كانت



نظماً ولم تكن « شعراً » ، لأن جانباً كبيراً من لذة الشعر يرجع إلى ما يحوى من آراء وما ينطوى عليه من علاقات جديدة بين الأشياء التي يتعرض لها . وهذه الآراء وتلك العلاقات تمثل ما يقوم بالاشعور ، ولن نستطيع الكشف عنه إلا بمعونة التحليل النفسى .

وكثير من خير المنتجات الأدبية يقوم على حقائق نفسية ثابتة ، فرواية « أوديب » التي قتل فيها الابن أباه ، و « الكترا » التي قتلت أمها ، تبين لنا ازدواج الشعور الذى أشرنا إليه من قبل .

وفى الأدب اليونانى القديم أن « فيدرا » أحبت ابنها ، و « ميديا » كرهت ابنتها وكانت تغار منها ، و « هيراكليس » قتل أبناءه ، كما أن « كليوباترة » و « هلن » فى طروادة و « دليلة » فى العهد القديم ، كل أولئك أمثلة فى نظر آدلر « لرغبة التذكير » و « هاملت » مثال « للجحود » فى حب الأم ، ولذا فهو لا يتزوج من « أوفيليا » ، كما أنه كان يرغب لاشعورياً فى قتل أبيه ، ولذا فلم يفلح فى الانتقام له . والرواية اليوم تقوم على التحليل النفسى ، ومن أشهر الكتاب الذين تأثروا بهذا العلم « لورنس » و « هكسلى » و « رادكلف » وتلمس فى الفن كذلك أثر اللاشعور ، فالنحاتون يحبون الأشكال الدائرية ، والأشكال البيضية لأنها تمثل استدارة المرأة .

وتطور الآداب والعلوم دليل على صحة هذا العلم ، فالآداب القديمة كلها من وحي العقل الباطن . وفى العصور الوسطى كثر الجدل



والبحث في علم الكلام ، وهو مظهر من الصراع بين العقل الباطن والعقل الواعي . وفي العصر الحديث طغى العلم على ألوان المعرفة الأخرى ، والعلم مظهر لانتصار العقل الواعي . وحتى الأدب نفسه في العصر الحديث قد تأثر بالعلم ، فعندنا مثلاً هـ . ج . ولز يكتب في البيولوجيا والعلوم ، ورواياته تتأثر بالعلوم البحتة .

والفكاهة مثل قوى لإثبات قوة الغريزة الجنسية ، فالنكتة عند العامة في مصر تدور حول تورية في الغريزة الجنسية . ومادة الأدب والفنون مليئة بما يثبت شدة هذه الغريزة . فتماثيل المرأة كثيرة ، والشاعر يتغزل بالغواني أو يرمز برسوم الدار لحبيبته . فإن أشبعنا الغريزة الجنسية انحطت الآداب والفنون .

### الأساطير والخرافات الشعبية:

الخرافات كلها من نتاج الوهم البشري . والميثولوجيا صورة متشكرة لرغبات الإنسان ومخاوفه البدائية . وتشبه طريقة التنكر والدافع إليه ما يحدث في الأحلام . والشبه على الجملة قوى بين الأحلام والأساطير .

إن الطاقة الحيوية التي لا تستطيع الانصراف إلى الحياة تتمثل في الأساطير التي تحقق الرغبات ، كما تتمثل في القصص الخرافية . وقد تخلصت الديانات الكبرى من خرافات الميثولوجيا باهتمامها بشؤون الحياة الواقعية وبالمثل الخلقية العليا .



وفي ديانات قدماء المصريين واليونان نرى أن الأسرة لها أثر كبير ، والعلاقات العائلية تخالف ما نألفه اليوم ، بل تخالف المثل العليا لهؤلاء القوم الأقدمين أنفسهم .<sup>١١</sup> يس من المبالغة أن نقول أن أهم ما كان يشغل الأذهان هو الزنا مع من لا يصح الزواج منهم ( Incest ) ، والخصى ، والشئون الجنسية عامة واضحة في الميثولوجيا . وهي واضحة كذلك في حياة الطفل وتكون جانباً هاماً من عقله الباطن حينما يبلغ سن الرشد . ولا تظهر أمثال هذه الآراء اليوم في الميثولوجيا ، ولكنها تبدو في النورستانيا . ونلاحظ أن أفراد القصة الميثولوجية هم أفراد الأسرة .

وتمثل بعض الأساطير آراء الأطفال . فالطفل يظن أنه أعلى سبباً من أحد والديه أو كليهما . ولا يختلف هذا الوهم الصياني عن عقيدة كل شعب بأنه من أصل كريم .

وتقسم الخرافة الحوادث قسمين : ما يجلب السعادة ، وما يجلب النحس . وقد يكون السبب علاقة بين الحادث وبين فكر لا شعورية . فإن كان الحادث مما يؤدي إلى حسن الحظ فهو - لا شك - يتصل برغبة نريد تحقيقها . وإن كان مما يؤدي إلى نكبد الطالع ، فهو يتصل بشيء نضمر له الكراهية في العقل الباطن .

الديون :

من الأوجه الهامة في علم النفس التحليلي ، التي لم تنل حتى اليوم



إهتماماً كبيراً من الباحثين ، علاقته بأراء الفلاسفة الأقدمين وكتاب  
الدين فيما يختص بالروح ، ولدينا من الخلفات القديمة كثير مما يشير  
إليها ، وهي لا تزال اليوم على جانب كبير من الأهمية ، كما كانت  
بالأمس . فنحن لا نطمع في إيجاد فلسفة جديدة تحل محل فلسفة  
أفلاطون وشيشرون ومن إليهما ، ولا نستطيع أن نخلق مثلاً أعلى  
لكمال الإنسان أرقى مما ورد في الأديان السماوية . ولقد تغيرت  
الظروف الاجتماعية وتقدم العلم ، مما يجعل بعض ماورد في الفلسفات  
القديمة باطلاً ، ولكنها - رغم ذلك - قد أتت إلينا بكثير من الأحكام  
العملية الخاصة بالروح التي أيدت صدقها الخبرة الطويلة .

ولذا فعلم النفس الحديث يجب أن يقوم بتأييد وشرح وتسمية  
الآراء العظيمة التي جاء بها كبار المفكرين ، لا بنقضها ومحاولة الغض  
منها . ومن ثم كان علم النفس في الواقع تسمية لمجهود بدأ منذ عهد قديم .  
كل عصر جديد يحتاج إلى ترجمة الحقائق القديمة إلى اللغة الحديثة .  
ومن الخطأ أن نظن أن الأقدمين لم يعالجوا موضوعات التسامى والعقد  
واللاشعور لأن هذه الألفاظ لم ترد في مؤلفاتهم . إنما واجبنا أن  
نوجد الصلة والرابطة بين آرائنا وآرائهم ، فإننا بذلك نوسع دائرة  
البحث توسيعاً لا حد له . وإذا ظل علم النفس التحليلي مهتماً على  
مشاهدات وبحوث علماء النفس في العصر الحديث فيما يختص بالشواذ  
من الناس ، فسيفيق علماء ضيقاً لا يحتمل التوسيع ، وإن يصبح العلم  
واشداً حتى يخرج من دائرة الأمراض النفسية وعلاجها إلى دائرة

17 SEP 1987



أعم وأوسع وحتى تطبق حقائقه على الأصحاء والعاديين من الناس كما  
تطبق على المرضى والمصابين بالأمراض العصبية .

إن علماء النفس وأطباء العلاج النفسى يتحدون مع الفلاسفة  
الأقدمين وعلماء الاجتماع فى الغرض : وذلك هو البحث عن خير  
السبل لتوفير الصحة والسعادة للإنسان . وطريقة طبيب التحليل  
تهيئة السبيل للفرد كي يتسامى بغير انزله ، أما المصلح الاجتماعى فينشده  
الإصلاح بالتربية والتشريع والملاءة بين الإنسان والبيئة . ويسعى  
رجال الدين إلى هداية الناس عن سبيل العبادة وتقليد الإنسان  
الكامل « كالمسيح » و « كمحمد » عليه السلام .

وقد بينا من قبل أن التسامى الناجح ما هو إلا ملاءمة للبيئة :  
وعالم النفس كالمصلح الاجتماعى يسعى لايجاد طريقة للتفكير ، وأسلوب  
للعيش يوفر منفذاً كافياً للفرد فى البيئة التى يعيش فيها . هذه الملاءمة  
كما بينا من قبل ينبغى أن تتوفر فيها شروط ثلاثة : اللذة للفرد ،  
والنفع للجماعة ، وتحقيق المثل الأعلى للإنسان ، والدين أرقى صورة  
من صور التسامى .

والتحليل النفسى كبقية العلوم يميز بين ما يقوم على العقل وما  
يقوم على العقيدة . وقد ألقى الضوء على حقائق متعددة مما يختص بالدين .  
فلقد هدانا إلى أن بعض العمليات العقلية الظاهرية تتأثر بالعمليات  
اللاشعورية . ويحدث ذلك خاصة فى الأمور الشخصية ، فإن المرء  
حينئذ يفلسف الموضوع ، أو يجعل له صبغة روحية أو عقلية . وقد



تكون الحقائق التي يصل إليها الإنسان مطابقة أو غير مطابقة للواقع .  
ولقد هدانا إلى الشبه بين المسيحية والحياة العائلية ، فالإله هو  
الأب ومريم هي الأم والإبن هو المسيح .

والخطيئة في عصيان « الأب » ، أو عدم تقديس « الأم » ، وهما  
في مغزاهما الإحساس « بعقدة أوديب » عند الطفل .

والدار الآخرة تحقق رغبة الإنسان في العيش الرغد الناعم .

و « الخلاص » في المسيحية معناه الائتلاف مع الوالدين .

والميثولوجيا - وهي الصورة الساذجة للديانات الأولى - تمثل

النورستانيا عند الاطفال ، ولما تطورت الميثولوجيا إلى الديانات

السامية كان دعاة الأديان دائماً من العباقرة الذين هم إلى المصايين

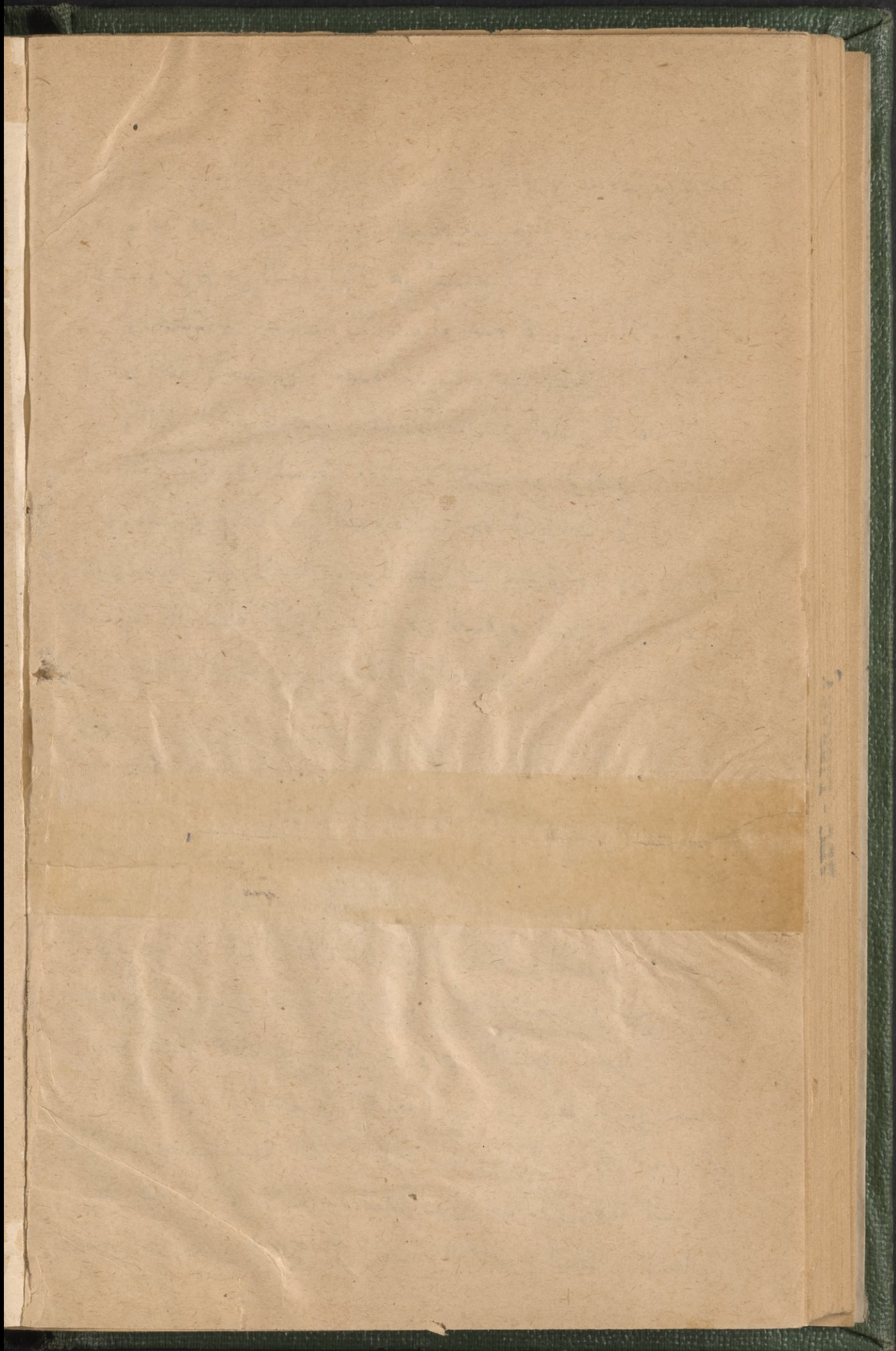
بالنورستانيا أقرب منهم إلى الأفراد العاديين .

خاتمة :

لقد حاول داروين أن يبرهن على العلاقة بين جسم الإنسان  
وبقية الأحياء في هذه الدنيا ، ويحاول فرويد أن يفعل ذلك فيما  
يختص بالعقل البشري . فبحوث علم النفس التحليلي تؤيد بحوث  
البيولوجيا ، وذلك أن الإنسان لا يزال في دوره الأول من التطور .  
فالشعور حديث في نفسية الأفراد ، وأما اللاشعور فراسخ قديم .  
وتسعة أعشار عمالنا على الأقل من وحي اللاشعور وحيته .

إن سيطرة الإنسان على الطبيعة أقوى من سيطرته على نفسه ،  
فالإنسان يجلب لنفسه الشرور بالحروب وما إليها . وإن اليوم الذي  
يسيطر فيه المرء على لاشعوره ليبدأ دوراً جديداً في حياة البشرية .  
ويسعى علم النفس التحليلي إلى إخضاع اللاشعور لسلطان الإنسان .







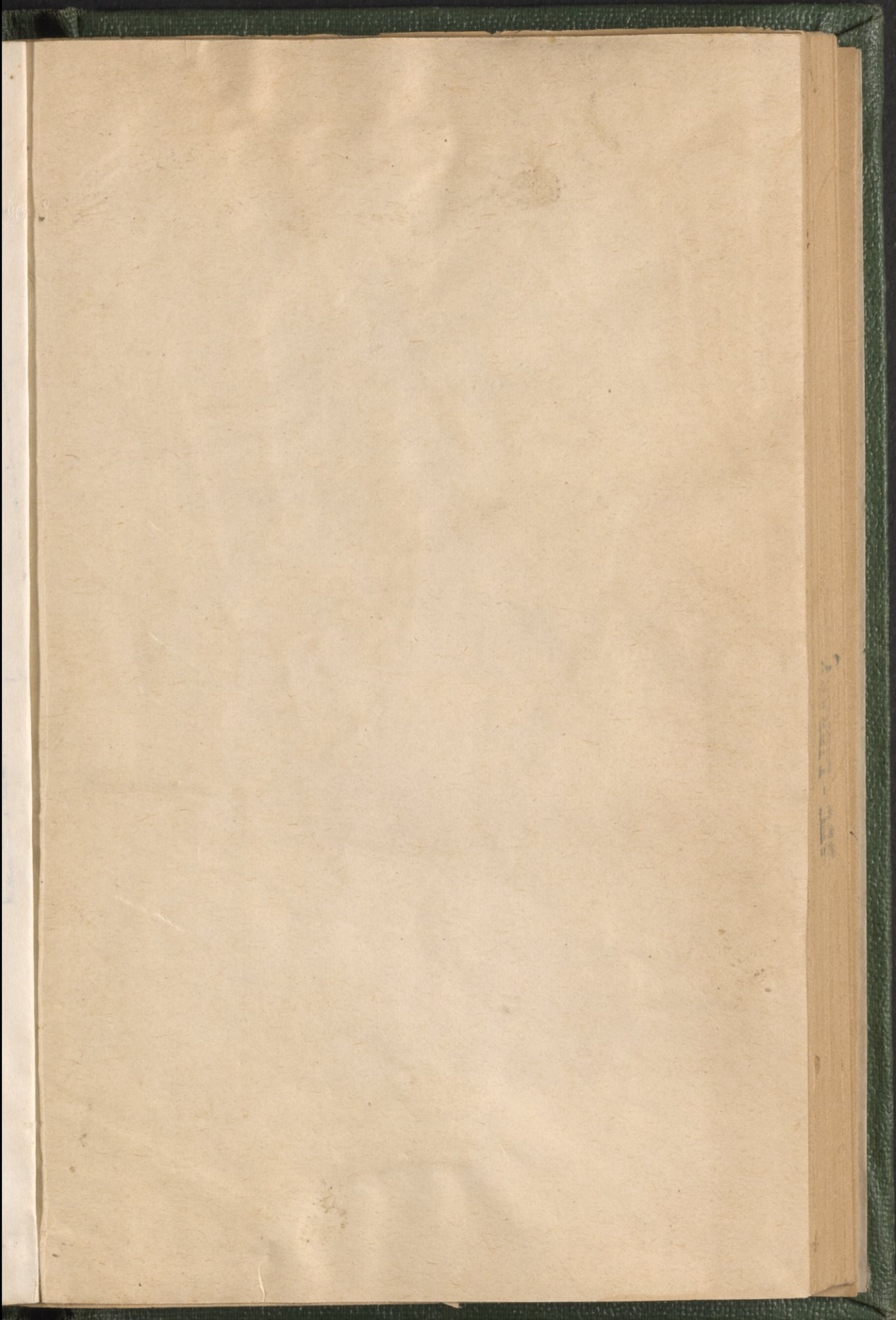
## فهرست الكتاب

	صفحة
المقدمة	٣
تاريخ التجليات النفسية ومباحثه	٨
قيمة التحليل النفسي بين العلوم وقائده	٢٣
اللا شعور	<del>٣٨</del>
الطاقة الغريزية	٥٠
الخوف	<del>٧١</del>
غريزة السيطرة	<del>١٠٢</del>
غريزة الجنس	١٤٢
الأحلام	١٦٧
الاستهواء	١٨٦
السهو والنسيان	<del>١٩٥</del>
الهستيريا	١٨٢
تطبيقات عامة	١٨٦

٢٠٢

17 SEP 1987







17 SEP 1987



LIBRARY

DUE

---

LIBRARY



قوله عز وجل  
والذين آمنوا  
عملوا الصالحات  
سوف نؤتيهم أجرهم  
عندنا  
بغير حساب



BF  
173  
M2x  
c.1

17 SEP 1987

1987



